أنا ومريم

تأثير الفراشة

رواية

محمود منصور

شارك في الكتابة: محمد عبدالعزيز

الرواية: أنا ومريم ١ (تأثير الفراشة).
تأليف: محمود منصور .
تصميم الغلاف: محمود منصور.
الترقيم الدولي: ٩٧٨-١٧٢٣٥٦٣٣٠٠
رقم الإيداع: ٢٠١٨/١٤٣٠٢
الطبعة الأولى: يوليو ٢٠١٨
عدد الصفحات: ٣٥٧
الأبعاد: ١٣,٨سم x ١٩,٧سم

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للكاتب.
يُحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الكاتب.

إهداء

إلى المرأة التي أراد الناس أن يرونها بأعينهم، ورأيتها بقلبي
في مرحلة ما .. كنت أكتب لكِ
لكني اليوم أكتب عنكِ للآخرين .. فهذا كل ما أملكه

تقديم

كانت فكرة الرواية مجرد مُزحة، بدأت بهاشتاج يحمل نفس الاسم «#أنا_ومريم»، غير أني أصابتني الدهشة من اِفتراض الناس أن هناك فعلياً رواية منشورة تحمل نفس الاسم. ووجدت نفسي فجأة في مواجهة مع متابعي صفحة بتنجان، الذين قرروا أن يُضفوا عليّ صفة الكاتب والأديب، ومضى المتابعين مع تزايدهم يوماً بعد يوم بإلحاح عجيب في السؤال عن الرواية، رابط تحميلها، أماكن توافرها، موعد طرحها للجمهور. حتى أن بعض المتابعين تمادوا أكثر في الاِهتمام إلى السؤال عن أين توقفت، ولماذا الكسل، وأصبح الأمر يتزايد يوماً بعد يوم.
شيء مريب ومضحك في نفس الوقت، أن يهتم متابعي الصفحة بشخصية بطلة الرواية «مريم»، لمجرد أنني قررت عدم الإجابة عن أي أسئلة تتعلق بها. غريب فعلاً، كيف يُمكن للشيء العادي، أن يستقطب اِهتمام البشر لمجرد أنه يحمل شيئاً من الغموض .. كيف يمكن للبشر أن يقوموا بحقن الأشياء العادية بجرعات متفاوتة من الخيال والوهم، ثم يرون فيها شيئاً ربما أكثر جمالاً وتشويقاً مما هي حقيقتها؟!

لقد رأيت دوماً كتاباتي عادية ومكررة، وحتى هذه الرواية تأتي في جملة الأشياء العادية، التي أُقدم على فعلها دون أن أهتم بجدواها، أو أن يكون هناك أي نية للاِستمرار في الكتابة، وأعلم أنه ربما يأتي يوماً، أتمني لو يعود الزمن للوراء، كي أتراجع عن تلك الخطوة.

لماذا أقوم بنشرها إذاً ؟ أو لماذا أكتب في العموم، إن لم يكن لدي النية في الاِستمرار؟
في الحقيقة أن إجابتي على هذا السؤال تختلف بمرور الأيام، فدوافعي للكتابة تختلف مع كل نص. أعتقد أننا حين نختار البوح سواء بالكلام أو الكتابة، نختار ما نُريد أن يعرفه الآخرون عنا. فالكتابة نوعاً من مقاومة الاختناق بكل تلك المشاعر والخيبات التي نمر بها، حينها تُصبح الكتابة كثُقب الباب الذي ننظر منه للعالم الخارجي.

الشيء المؤكد أني لم أكتب يوماً من أجل الشهرة، وإلا كنت أثرت الكتابة في مواضيع أكثر تشويقاً وجذباً للقراء، وتجنبت مجموعة من الكتابات التي جلبت على اتهامات كثيرة منها: محاولة استقطاب النساء، الإلحاد، أو التحيز لموقف سياسي معين. أنا لا أدعي الفضيلة هنا، ولكني أؤمن أن الشهرة حين تُصبح

دافعي الأوحد للكتابة، فيجب علي أن أتوقف حينها.
هل أبدو لك مُدعياً؟ .. ربما، لأن كل الإجابات التي تختلف عما نتوقع سماعه، تبدو لنا كاذبة.

ربما طبيعة شخصيتي الكتومة، هي ما جعلتني أكتب من باب التحرر من تلك المشاعر والمواقف، من باب الفضفضة من وراء حجاب، كي لا أُثقل كاهل المقربين مني بكل تلك الهراءات والكراكيب التي تشغل رأسي، لكن ما حدث من اهتمام متابعي على صفحة الفيسبوك، والذي لم يكن يجول بخاطري، حين بدأت النشر في الفضاء الإلكتروني، أن يصلوا لهذا العدد، أو أرى منهم هذا الاِهتمام، هو ما يجعلني اليوم أُقدم على تلك الخطوة في توثيق بعض من تلك الكتابات، والمواقف في عمل ورقي.

الأمر باختصار يا أصدقائي أني لا أرى نفسي صالحاً، كي أكون روائياً مُحترفاً. أنا لا أعرف كيف أتخيل شيئاً لم يحدث، وفي اِعتقادي أن الكتابة الاِحترافية تتطلب قدراً من الخيال، وهنا يأتي السؤال الذي شغل بالي كثيراً، هل هناك فرق بين التخيل والكذب؟ أنا لا أجد فرقاً، ولا أعرف كيف أكذب على الورق، لذا لا يُمكن لك أن تُصنفني كروائي أو أديب، ولا يمكن أن أعدك بمزيد من الكتابات.
ما حدث معي شيء لا أعرف له توصيفاً أدبياً، لقد كان الموضوع أشبه بإعادة رسم لوحة زيتية بألوان مختلفة، مع اِستبدال أبطالها لتظهر لوحة جديدة، تحمل روح الأولى، لكن معظم المشاهدين لا يُدركون ذلك، لأنهم لم يروا اللوحة الأصلية.

أنا غير مهتم حقاً بما يُمكن أن تصف ذلك .. كذباً، تخيلاً أو إبداعاً .. لكنه بالنسبة لي من أكثر الأشياء صدقاً، التي أفعلها في حياتي. أعتقد أننا جميعاً نشعر بنفس الطريقة مهما اختلفت أسباب ذلك الشعور سواء كان حُزناً، خيبة، إحباطاً، سعادة أو فرحاً، وكل ما يفعله الكُتاب هو محاولة تجسيد تلك المشاعر، يخلقون لها مظهراً مرئياً، يجعلون لها أثراً خالداً، ينحتون ملامحهم في معانيها، لهذا فهم مصابون بلعنة عدم النسيان.

يتبقى لك، أن تعلم يا من تقرأ هذه الرواية، أنها حصاد سنوات من المشاعر الصادقة، وذاكرة متخمة بمواقف، عجزت الأيام عن طمسها، وحروف تجسد اِمتنان روح حظيت في هذا العالم، بفرصة العثور على نصفها الآخر.

ملحوظة غير مهمة

«في حالة وجود أي تشابه في الأسماء، أو الأحداث مع شخصيات، أو أحداث حقيقية، فهو من قبيل الصدفة البحتة، غير المقصودة».

أنا شخصياً حين أقرأها في صدر أي كتاب، لا أصدقها، بل أعتقد حينها أن العكس هو الأصح. ومع ذلك لا أجد أمامي إلا تلك الصيغة المستهلكة، كاِستهلال للتملص من ذنب الإدانة.

إن كُنت يا صديقي القارئ، تبحث عن الحقيقة فستجدها في مكان واحد فقط .. داخلك أنت.

الفصل الأول
«صدفة»

مطار فيوميتشينو - صالة المغادرة
روما - خريف ٢٠١٢

صدفة واحدة يُمكن أن تقلب حياتنا رأساً على عقب. تغيير بسيط في مجريات الأحداث يُمكنه أن يحول مسار حياتنا بالكامل، هذا ما يسمونه تأثير الفراشة. لم يكن أدهم يعلم ذلك، وهو يجلس مسترخياً على مقاعد الاِنتظار، وساقاه ممدتان فوق حقيبة السفر، في اِنتظار الطائرة التي ستقله إلى دبي، ومنها إلى مقر عمله في جوبا، فقد أُعلن عن تأخير طارئ لوجود عطل فني في الطائرة وسيتم استبدالها بأخرى، ولذا سيكون هناك

تأخير ثلاث ساعات على الأرجح، عن موعد القيام المحدد في الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة عصراً.

كان أدهم قد اِضطر للسفر المفاجئ منذ عدة أيام من جنوب السودان إلى روما، برفقة مديرته التي أُصيبت بطلق ناري، أثناء هجوم إحدى الجماعات الانفصالية على معسكر اللاجئين، الذي يُباشرون فيه عملهم.
نهض من مقعده متكاسلاً، وهو ينظر إلى صورته المنعكسة على الواجهة الزجاجية لأحد متاجر السوق الحرة. مرتدياً شورتاً وقميصاً خفيفاً مع قبعته الإنجليزية التي يهواها، ويبدو في حالة يُرثى لها.

وفي محاولة لقتل ساعات الاِنتظار، قام أدهم للتجول قليلاً في ممرات المطار، وأثناء مروره بجانب إحدى المقاهي المرصوصة على جنبات المطار، أثارته رائحة القهوة المنبعثة منها.
دلف إلى داخل المقهى، وجلس مباشرة على البار. طلب كوباً من القهوة الأمريكية والتي كانت سيئة كما هي العادة في قهوة المطارات. نحى الكوب جانباً، وأخذ يجول بنظره في قاعة المقهى، إلى أن لاحظ فراشة زرقاء اللون تُحلق في خفة خارج النافذة الزجاجية الكبيرة، والتي تفصل قاعة الاِنتظار

عن مهبط الطائرات. هل ما أراه حقيقياً، أم أنها هلاوس بصرية نتيجة الحرمان من النوم في الأيام الماضية.

لم تمنحه الفراشة فرصة للتحقق من الأمر، وسرعان ما خفقت بأجنحتها وحلقت بعيداً. توقف بصره فجأة على مضيفة طيران شابة تحمل شارة خطوط طيران الاتحاد الإماراتية، جالسة إلى مائدة بالقرب من النافذة الزجاجية التي كانت تحوم حولها الفراشة. فتاة أنيقة، متحفظة، ومستغرقة في قراءة أحد الكتب الذي يبدو أنه يستحوذ على كل اِهتمامها.

كانت في البدء مجرد نظرة عابرة ثم وجد نفسه يطيل النظر إليها بشكل غريب. امرأة ذات ملامح ملائكية وتمتلك نوعاً غريباً من النظرات الساحرة، ينبعث منها نوع من التأثير العفوي على المشاعر، يُمكنك أن تري نوعاً من السمو في كل تحركاتها ونظراتها وحتى اِبتسامتها.

وجد أدهم نفسه فجأة يصرخ في داخله قائلاً

- « وجدتها .. إنها هي»

المرة الأولي التي يشعر فيها بشيء كهذا، هنا التقينا، تعارفنا بطريقة رومانسية والتي غالباً ما ستكون السبب في تحديد

بدايات أمور، قد تُشكل مُنحناً في حياتنا فيما بعد. أربكته وملكت عليه كل مشاعره في ثواني معدودة، وشعر لوهلة أنها ليست المرة الأولي التي يري فيها تلك الفتاة.

مدفوعاً بحماس غير مفهوم، ترجل أدهم من مقعده وتوجه إلى طاولتها. إنها هنا، وحيدة في هذا العالم، على بعد خطوات منه. في أقل من عشر ثوان سيتبادل الحديث معها.

لكن كيف السبيل إلى ذلك؟

حاول أن يختلس النظر إلى غلاف الكتاب بين يديها، يا إلهي، هل هي مصرية؟. لقد كان كتاب «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ. لم يكن أدهم في الحقيقة من هواة أدب نجيب محفوظ ولم يسبق له أن قرأ الكتاب لكنه قرأ كثيراً عن الانتقادات التي وجهت لنجيب محفوظ بعد صدوره.

وقف حائراً يفكر في كيفية اختراق تلك المرأة، يُمكن أن يكون عرضة لردة فعل قوية، بكل تأكيد، أو ربما صفعة مدوية على وجهه. لكن هل لديه خيار آخر غير المجازفة بالمحاولة؟

غريب ما يحدث معه، لم يحدث معه شيء كهذا من قبل، إنه لم يقترب منها ومع ذلك تملكه الخوف من أن يفقدها، غريب أمر الإنسان فعلاً حين يخاف من فُقدان شيء لم يمتلكه بعد.

أهذه هي صفعة الحب من أول النظرة؟ هل هذا حقاً هو سحر المفارقات الذي طالما قرأنا عنه في الروايات؟
إنهُ شعورٌ غريب ومريب، أن تُشعر بالحب من أول نظرة، وأن تشعر أنك تتنفس شخصاً عوضاً عن الهواء، وأن تشعر بالقوة بعد الضعف، وأن تشعر أن بداخلكِ قلبٌ ينبض نبضاً كاملاً، وأن تشعرَ أنَه يمكن أن يكون لك وطناً لأول مرة.
- ماذا سأفعل الآن؟ .. دع الأمور بسيطة.

كانت تجلس واضعة ساقاً فوق الأخري برقة، منغمسة في القراءة وتستمع إلى الموسيقي، وتحرك قدميها كطفلة. شعر أدهم أن الكون يتراقص مع إيقاع قدميها، كانت الفتاة آسرة في صمتها، وبدأ يتابعها في فضول ولهفة.
شعر أدهم بالدهشة إذ أخذت تلوح لطفلة صغيرة بصحبة أمها كي تأتي إليها، ابتسمت الأم وهزت رأسها بالموافقة لابنتها. تقدمت الطفلة نحوها بخُطي نجولة، استقبلتها فاتحة يديها وهي تطبع قبلة على خدها. في تلك اللحظة تمني أدهم لو كان مكانها.

- ما اسمك يا صديقتي الصغيرة؟
-نيرفانا
- الله، هذا اسم جميل جداً، لكنك أجمل منه كثيراً.

تمني أدهم حينها، لو أن الطفلة سألتها عن اسمها أيضاً، لكنها لم تفعل.

التصقت الفتاة بالنافذة مُفسحة مكاناً للطفلة، كي تجلس وتشاهد مهبط الطائرات. تناولت هاتفها وبدا أنها تبحث عن لعبة مناسبة للطفلة.
أخذت الطفلة تلعب، وبدأت ترتسم على وجه الفتاة ملامح نفذت إلى أعماقه، كانت تضحك في انسجام مع الطفلة بشكل عجيب. عاد أدهم للجلوس على البار شاعراً بخيبة أمله ،في عدم الإقدام على الحديث إليها.

أخرج هاتفه لإرسال بعض الرسائل النصية وحين رفع عيناه كانت تحتضن الطفلة التي غطت في نوم عميق، كان شكلهما يخطف الأنفاس، وقفت الفتاة وأخرجت من حقيبتها غطاء خفيفاً ووضعته على جسد الطفلة. قامت الأم متجهة إليها لتأخذ طفلتها لكن الفتاة أشارت عليها ألا توقظها، وأنها ستجد مكاناً آخر لتجلس فيه.
تحركت الفتاة بخطي بطيئة، اهتزت لها مشاعر أدهم، كانت تمشي كأميرة أسطورية في تلك اللحظة، فاتنة لبساطتها.
ما تلك التركيبة الغريبة، شابة فاتنة، طفلة بريئة، وأم حنون؟!.

هيا، الفرصة الآن مواتية، سأقوم وأصطدم بها، وكأنها غير مقصودة، ولكن اِنتظر فهناك دوماً حالة من الحساسية غير المفهومة حين يصطدم شاب بفتاة مصادفة. تُدرك غالبية الفتيات أن الشاب قد أخذ وقتاً طويلاً في الترتيب لهذا، بينما غالباً ما يدعي الشاب أن هذا يحدث للمرة الأولي.
والحقيقة أن الشاب يُصاب حينها بنوع غير مفهوم من ألاستلطاف، مما يسمح له بالتصرف بحميمية غير متوقعة، بينما تُقابله الفتاة باِستنكار، ونظرة تحمل الكثير من الإدانة.

- لماذا ستشذ هي عن تلك القاعدة؟
- يا إلهي! .. إنها قادمة في اِتجاه البار.

جلست مباشرة إلى يساره، وارتمى عطرها فجأة في أحضانه.
أيعقل أن تهتز مشاعره لعطر فتاة لا يعرفها، لعطر لامس قلبه قبل أن يداعب حواسه؟!
وفي محاولة يائسة لتشتيت انتباهه، أخرج كتاباً من حقيبته، تذكر أن إحدى صديقاته أهدته إياه، كان كتاب «أعلنت عليك الحب» للكاتبة والروائية السورية غادة السمان. أخذ يطالع غلافه باهتمام، وبدأ يقرأ الصفحات الأولي دون أن يعي من الكلمات المسطورة أمامه شيئاً.

جلس أدهم يرمق خلسة الرجل الجالس إلى جوارها، تمني لو يستطيع في تلك اللحظة أن يخبأها عن العالم أجمع، كيف يمكن للحب أن يلغي المنطق من حساباتنا؟ كيف نشعر في لحظة بعشق الامتلاك تجاه من نحبهم؟

بدأ الصراع مبكراً بين عقله الذي يُخبره أنه مازال مبكراً جداً لتسميته حباً، وقلبه الذي يقر بذلك، نعم إنه حب، حب من النظرة الأولى. لم يتخيل يوماً شكل الفتاة التي سيقع في حبها، كان يردد دوماً أنه سيعرفه من النظرة الأولي، وها هي تجلس بجواره، ملاكاً يستعصي عليه أن يمنع نفسه من الوقوع في حبها.
لم يستطع أدهم أن يتمالك نفسه، والتفت إلى تلك الفاتنة الجالسة بجواره. في تلك اللحظة رأي نظرة على وجهها، أدرك حينها أنه من المستحيل عليه نسيانها، نظرة طفل يُشاهد شيئاً ساحراً لأول مرة. لم يستطع أن يُخفي سعادته، ولا الابتسامة التي ارتسمت على وجهه. أحس أن الكلام يكاد ينفجر من حنجرته، حاول أن يستجمع شجاعته ليبدأ الحديث فقد واتته الفرصة الآن.
جاء صوتها ليقطع عليه كل تلك الأفكار:

- الكتاب الذي بين يديك، من ألطف ما قرأت في أدب البوح العاطفي.

أدهم: في الحقيقة إنها المرة الأولي التي أقرء فيها لغادة.
الفتاة: رغم أن الأبيات تتأرجح بين الشعر والنثر، لكن أسلوبها شديد الرقة والعذوبة، ويترك أثراً في النفس بعد قرأتها.
أدهم: كل ما في الأمر أن الكتاب هدية، وقطعت وعداً لصاحبته أنني سأقرأه.
ابتسمت قائلة: أها .. فهمت.
أدهم: ماذا؟
الفتاة: أعتقد أنها رسالة.
أدهم: رسالة؟
الفتاة: نعم! لا تقل أنك لم تفهمها. غالباً ما نلجأ إلى التستر وراء تلك الإهداءات من الأغاني والكتب، للبوح الطرف الآخر بما يجول في خاطرنا من وراء حجاب.
أدهم: هل تقصدين؟
الفتاة: ربما.
ساد الصمت لثوان بينهما، فيما أخرجت كتابها مرة أخري معاودة القراءة بينما راح سيل من الأفكار يتضارب في عقله. مرت ثوان من الصمت، وكأنها دهراً من الحيرة والارتباك في كيفية التصرف تجاه هذا الفيض الجارف من المشاعر.
- هل «هي» «هي حقاً»؟!

قرر أدهم أن يُلقي الكُرة في ملعبها، ويتركها تُجيب على هذا التساؤل. ربت على كتفها قائلاً:
هل تؤمنين بالحب من أول نظرة؟ سألها وهو ينظر إليها دون تريث.

نظرت إليه بمزيج من الدهشة والفضول لما يقوله ذلك الأحمق الذي اقتحم عزلتها دون سابق استئذان. عموماً، فقد اعتادت التعامل مع تلك المضايقات بحكم وظيفتها، وكانت دوماً تعتذر بهدوء ودون تمهل، غير أنها تشعر تلك المرة بانجذاب لهذا الرجل الجالس أمامها على المائدة.

أدهم: الحب من أول نظرة، هل تؤمنين به؟
الفتاة: لا، ردت عليه وهي تمط شفتيها استخفافاً بالأمر.
أدهم: صدقيني، ولا حتى أنا. لم أكن أؤمن به قبل أن أدخل إلى هذا المقهى منذ قليل.
تناولت رشفة من فنجان قهوتها، وظلت غارقة في صمتها، محافظة على هدوئها، ومفسحة بذلك المجال أمامه لمتابعة الحديث:
- قبل خمس دقائق ، لم أكن أؤمن بوجود توأم للروح، ولا بضرورة البحث عن النصف الآخر.
الفتاة: أنت مصري؟

أدهم: بالتأكيد.
الفتاة: لماذا تتحدث الإيطالية إذاً؟
أدهم: لأننا في روما، قالها بابتسامة بلهاء.
الفتاة: إذا أردت التحدث لفتاة لأول مرة فربما يجب عليك أن تستخدم لغة تجيدها.
أدهم: وهل هذا يعني أن لغتي الإيطالية الضعيفة؟
الفتاة: بالتأكيد، قالتها وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة.
أدهم: سأكون على متن رحلة روما-دبي عند الساعة الثامنة والنصف تحديداً. فهل يمكن ...
قاطعته: رحلة سعيدة.

- ميرا .. هيا

وقع اسمها على مسامعه كموسيقي هادئة، كان كالحلم، لم يعلم أين قد سبق له أن سمع بذلك الاسم، لكنه أحبه فعلاً، وبدأ يتخيلها زوجته منذ تلك اللحظة .. «مدام ميرا».

التفتت نحو مصدر الصوت، ولمحت عند مدخل المقهى مضيفتين من طاقم الطائرة يحثاها على الإسراع، وملوحتين بالهاتف المحمول، في إشارة لتسارع الوقت.

- أنا قادمة .. أجابتهما مبتسمة.

أغلقت الكتاب، ونظرت نحو أدهم:

- علي أن أغادر الآن.

الغريب أن حديثهما لم يتجاوز عدة دقائق لكنه وقع في قلبه كفرشاة ملونة سقطت على لوحة رمادية، وحوله لرجل على استعداد لفعل أي شيء لنيل عدة دقائق أخري معها.

- هل لك أن تقبلي دعوتي على العشاء في أبوظبي مساء الغد؟ .. اقترح أدهم وهو يُصاحبها إلى خارج المقهى.
ميرا: أنت تحلم! .. أنا لا أعرف من أنت.
أدهم: سيكون العشاء إذاً فرصة جيدة للتعارف.

تجاهلت ما قاله وأسرعت لتلحق بزميلتيها، تاركة أدهم خلفها ببضعة أمتار، ليصلها صوته بإلحاح:

- هيا، لا ترددي، فقبول دعوة على العشاء لن يُكلفك أو يُلزمك بشيء.

تظاهرت ميرا بعدم سماعه، وهي تنضم إلى زميلتيها، إذ فجأة بادرت إحداهما بالرد ولكنة بدا منها أنها مغربية:

- أنا على أي حال، ليس لدي مانع .. اسمي لطيفة.

ابتسم أدهم، وهو يتجاوزها للوقوف أمام ميرا، وقال:
- ولكن ماذا لو كنت توأم روحك المقدر لك؟
تابعت الفتيات الثلاث ثرثرتهن باستخفاف مرح إزاء هذا الشخص الذي بدا لهن غريب الأطوار.

أدهم: هيا، امنحيني فرصة، أنا لا أطلب أكثر من ساعة من وقتك.
ميرا: لو كنت توأم روحي لما تصرفت على هذا النحو.
أدهم: ماذا تريدين مني أن أفعل؟
ميرا: توأم روحي سيدهشني بكل ما لديه، سيُقنعني بأن الكواكب والمجرات ستنخفض إذا عبست وسيتوقف الناس عن العيش إذا تعكر مزاجي، سيخلق بي قناعات جديدة أُصدقها وحدي .لو كنت توأم روحي لعرفت كيف تُبهرني وتحرك مشاعري بدلاً من أن تكون مثيراً للضحك والسخرية بهذا الشكل.

أدهم: الضحك، هذه بداية جيدة، أليس كذلك؟
- بلي .. بادرت لطيفة .. هيا يا ميرا، امنحيه فرصة على الأقل .. يبدو لطيفاً.
تجاهلت ميرا اقتراح لطيفة، واتجهت بصحبتهن إلى الجناح

الخاص بطواقم الطائرات في المطار، ليبقي أدهم واقفاً بمفرده خلفهن، وهن في غمار ضحكهن، لوحن له مرددات ما يشبه لحنا جماعياً:
- باي باي أيها المجنون.
«لو كنت توأم روحي لعرفت كيف تُبهرني وتحرك مشاعري.»

ظل أدهم واقفاً في مكانه، فرغم محاولته لم يظفر منها بشيء، ولم يستطع أن يُخبرها حتى باسمه أو وظيفته، ولم يفلح في أن يثير لديها الرغبة في قبول دعوته.
بعد تلك المناورة التي لم تؤت ثمارها، وجد نفسه يتهاوى على أحد المقاعد بالقرب منه، ليظل فترة طويلة مُغمض العينين بلا حراك.

قطع فترة الصمت التي سيطرت عليه، نداء عن قرب انطلاق رحلته على متن خطوط طيران الإمارات إلى دبي.
تفقد الشاشة المعلقة على حائط المطار والتي تُظهر الرحلات المغادرة. كانت رحلة طيران الاتحاد الوحيدة في الساعة العاشرة مساءً، إذاً سيكون موجوداً في الإمارات قبلها.
المسافة من دبي إلى أبوظبي يمكن أن تأخذ بالسيارة حوالي الساعة والنصف، ولذا طلب من أحد أصدقائه المقيمين هناك توفير سيارة، وانتظاره في المطار.

هبطت الطائرة في مطار دبي، نظر أدهم إلى ساعته، طائرة ميرا إذاً لن تصل قبل ساعتين. أتم إجراءاته الجمركية، وخرج مُسرعاً ليجد صديقه في انتظاره.

أدهم: هيا سنذهب إلى أقرب مركز تسوق، أريد شراء بعض الأشياء.
نادر: يُمكنك أن ترتاح قليلاً، ثم نذهب في المساء.
أدهم: هيا .. سأشرح لك في الطريق.

في حوالي الساعة السادسة صباحاً، كان أدهم يقف في صالة الوصول مرتدياً بذلة رمادية اللون وقميص أبيض، ومنتظراً ظهور طاقم طائرة الاتحاد. وجد نفسه في تلك اللحظة يلغي كل الحسابات ، ويسقط كل الدفاعات والمخاوف، ويتقدم نحوها، في حركة بريئة وساذجة، حاملاً باقة من زهور التوليب وهو في كامل أناقته، حليق الرأس وفي بدلته الجديدة.

كانت ميرا مُحاطة بزميلتها لطيفة وزميلين آخرين من طاقم الطائرة، ومتوجهين جميعاً نحو باب الخروج، حين اعترض أدهم طريقها فجأة، ماداً إليها يده بباقة الزهور.

أدهم: هل يبدو هذا كافياً لتحريك مشاعرك؟
لم يصدر عنها أي رد فعل، مما جعله يظن أنها لم تتعرف إليه، فكيف يكون هذا الرجل هو نفسه الذي صادفته صباحاً في مطار روما؟
ثم سرعان ما اِنتبهت لما قام به هذا الشخص، واِنتابها إحساساً بالخوف. فبادرة من هذا النوع في حقها من رجل مجهول لا تعرفه، تبدو لها «مُبالغ فيها»، مبالغ في قيمتها، مفرطة في جنونها، مبالغ فيها للحد التي تبدو فيها مرضية، وغير معقولة.

ميرا: هل أنت أبله؟ قالتها وهي ترمقه بنظرة حادة، ثم أسرعت في خطواتها منصرفة في محاولة للإفلات منه غير أنه ظل لصيقاً بها.
أدهم: أعتقد أنك تبحثين عن رجل يُبهرك.
ميرا: هل أنت مجنون؟
- هذه من أجلك، اِقبليها مني هدية لك. قالها وهو يقدم لها باقة الورود.
انتزعت منه باقة الورود في غضب، عازمة على أن تقذف بها في وجهه لولا أن لطيفة أمسكت يدها. فأخذت تسرع من خطواتها مرة أخري نحو باب الخروج من المطار.
ميرا: من فضلك، ابتعد عن طريقي وإلا سأطلب الشرطة.

وليظهر زميلاها بمظهر لائق ومشرف، بادرا بصده عن ملاحقتها، لكنه قام بدفعهما بعيداً عنه، ولحق بها إلى خارج المطار.

أخذت ميرا ولطيفة مكانهما في طابور انتظار سيارات الأجرة، ووقف أدهم بجانبهما وتوجه إلى ميرا:

- لم يكن في نيتي مضايقتك أبداً

ميرا: إذاً، اِنصرف، لقد فشلت.

أدهم: اِسمعي..

ميرا: لا شأن لي باسمك، ولا يهمني من تكون، ولا أريد أن أعرف شيئاً عنك.

أدهم: كنت أود إرضاؤك فقط.

لكنها كانت قد اِستدارت، واِندست مسرعة بجوار لطيفة في سيارة الأجرة التي كانت على أهبة الاستعداد للاِنطلاق.

وبينما كانت السيارة تنطلق، اِستطاع أدهم أن يقرأ على شفتيها آخر رسالة حرصت على توجيهها إليه:

«عليك عرض نفسك على طبيب نفسي».

أشار لها أدهم بلغة الإشارة أن طائرته غداً في التاسعة مساءً.

بعدها اِنطلقت السيارة مسرعة، وبقي أدهم وحيداً على الرصيف لعدة دقائق، قبل أن ينطلق عائداً إلى دبي، وهو يردد كأنما يخاطب نفسه: كان بودي إرضاؤك فقط.

في ظهيرة اليوم التالي

- ما عليك إلا المجيء معي .. اِقترحت لطيفة على ميرا.

ميرا: لا، أنت ذاهبة لرؤية صديقك وأنا لا أريد أن أفسد عليكما تلك اللحظات الحميمة.

لطيفة: هيا يا ميرا، لا تكوني عنيدة، لا أُريدك أن تمكثي بمفردك في المسكن حتى عودتي، أنا سأتناول العشاء معه فقط ثم يمكننا أن نذهب للتسوق بعدها.

تحت ضغط لطيفة وإصرارها، وافقت ميرا.

وسط مركز دبي للتسوق وأمام نافورة المياه الراقصة، تطلعت الفتاتان إلى شلالات المياه المتراقصة على أنغام الموسيقي.

ميرا: هيا لنلتقط بعض الصور.

في تلك اللحظة رن هاتف لطيفة، وقالت:

- إنه طارق، لقد وصل إلى المطعم.

ميرا: اسمعي، يمكن أن تنهي عشائك معه، بينما سأذهب أنا لمطالعة المحال التجارية.
لطيفة: ميرا هيا، لا تكوني سخيفة.
ميرا: لا .. لا أريد أن أفسد عشائكما الرومانسي.

في تلك الأثناء، كان أدهم قد وصل إلى مطار دبي اِستعداداً لرحلته التي ستنطلق إلى جوبا. جلس على أحد مقاهي المطار وأخرج كتاباً من حقيبته ، كانت رواية أولاد حارتنا، والتي كان قد اِقتناها من إحدى المكتبات في المطار.

بقت ميرا بمفردها، وانطلقت تتجول في المحلات التجارية. كان كل ما يجول في خاطرها، هو ذلك الغامض الذي اِضطرها لتدفعه بعيداً عنها في الصباح، وهو من أتي من دبي إلى أبوظبي لرؤيتها، لقد اِختلق المفاجأة إرضاءً لها.
صحيح أن تصرفاته لم تخل من الاِندفاع والجنون، لكنها كانت مؤثرة ورومانسية. وكأن ذلك المعتوه قد خلق منها بطلة فيلم أو رواية من التي اِعتادت قراءتها في بضع دقائق.
نعم لقد شعرت بالخوف لأول وهلة، وعاملته بعنف، دون أن تعرف لماذا عاملته بتلك القسوة، رغم أنها شعرت نحوه بنوع من الاِنجذاب دون أن تدري السر وراءه. لكن ها هي الآن

تشعر بشيء من الندم، فربما كان يستحق فرصة. ما من رجل سبق له أن قام من أجلها بمثل ما قام به ذلك الغامض المريب. لا أحد على الإطلاق من بين كل الذين عرفتهم وخرجت بصحبتهم.
واصلت جولتها في مركز التسوق وهي تشعر بشيء من السعادة، فهناك رجل ما في تلك المدينة الكبيرة يترقبها ويفكر فيها، رجل عشقها من أول نظرة، رجل قادر على أن يسابق الزمن من أجل اللحاق بها. لكن كم الساعة الآن؟ إنها السابعة وطائرته من المفترض أن تكون في التاسعة مساءً من مطار دبي.

- لكن ما سر هذا الانجذاب الذي شعرت به نحوه؟
لابد أن ما قام به هو دليل قوة وثقة لن تتحصلا له بالصدفة. لقد تسرعت في صده، وأضعت في لحظة كل شيء. لم أعطيه حتى الفرصة لمعرفة اسمه، وليس بيدي الآن أي خيط يمكن أن يقودني إليه.
وقفت مريم متجمدة في مكانها فجأة:
- يا إلهي، إنها الدمية المربوطة إلى حقيبة ظهره.

*****

جلس أدهم لتناول قهوته وبدأ في القراءة، قبل أن يقطع لحظات الهدوء تلك، هذا الصوت:

- هل هذا المقعد فارغ؟ .. بغته صوت امرأة تسأله.
حرك رأسه بالإيجاب، دون أن يرفع عينيه ليتبين مصدر الصوت، ظناً منه أنها إحدى رواد المقهى تريد ببساطة سحب المقعد من مائدته إلى مائدة أخري.

ثم تفاجأ بالصوت يقول:
- إنها نفس الرواية التي كنت أقرأها في روما.

رفع أدهم عينيه، فوجد ميرا تجلس أمامه:
- هل تؤمن بالحب من أول نظرة؟
حدق فيها وعلى وجهه ملامح الصدمة، وهي تتابع حديثها:
- ولا أنا، قبل عشرين عاماً، لم أكن أؤمن بذلك.
أنا مريم .. قالتها بعذوبة ورقة.

اِرتسمت علي وجهه سعادة الدنيا.
- أنا أدهم.
- أعلم ذلك.

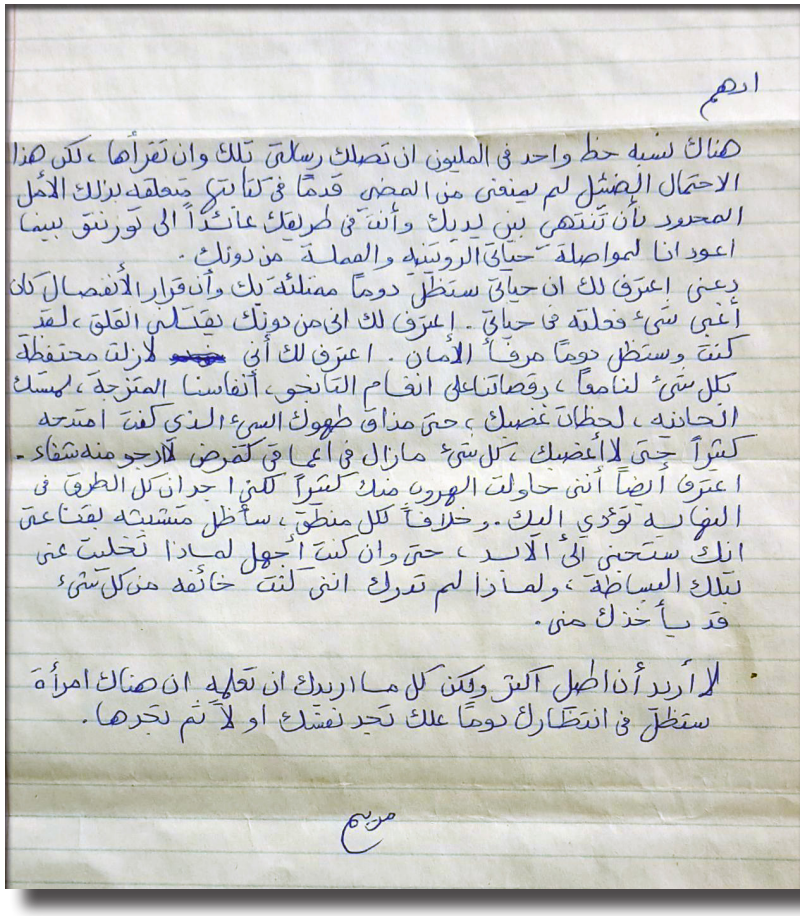

ادهم
هناك نسبة حظ واحد في المليون ان تصلك رسالتي تلك وان تقرأها، لكن هذا
الاحتمال الضئيل لم يمنعني من المضي قدماً في كتابتي متعلقة بذلك الأمل
المحدود بأن تنتهي بين يديك وأنت في طريقك عائداً الى تورنتو بينما
اعود انا لمواصلة حياتي الروتينية والمملة من دونك.
دعني اعترف لك ان حياتي ستظل دوماً ممتلئة بك وأن قرار الانفصال كان
أغبى شيء فعلته في حياتي. إعترف لك اني من دونك يقتلني القلق، لقد
كنت وستظل دوماً مرفأ الأمان. اعترف لك أني [illegible] لازلت محتفظة
بكل شيء لنا معاً، رقصاتنا على انغام التانجو، أنفاسنا الممتزجة، لمساتك
الحانية، لحظات غضبك، حتى مذاق قهوتك السيء الذي كنت امتدحه
كثيراً حتى لا أغضبك، كل شيء مازال في اعماقي كمرض لا ارجو منه شفاء.
اعترف ايضاً أنني حاولت الهروب منك كثيراً لكني اجد ان كل الطرق في
النهاية تؤدي إليك. وخلافاً لكل منطق، سأظل متشبثة بقناعتي
انك ستحبني الى الأبد، حتى وان كنت أجهل لماذا تخليت عني
بتلك البساطة، ولماذا لم تدرك انني كنت خائفة من كل شيء
قد يأخذك مني.

لا أريد أن أطيل اكثر ولكن كل ما اريدك ان تعلمه ان هناك امرأة
ستظل في انتظارك دوماً علك تجد نفسك او لا تجدها.

مريم

الفصل الثاني
«ذِكرى»

تورنتو - خريف ٢٠١٦

مد أدهم يده لإيقاف رنين المنبه المتصاعد في محاولة لالتماس عدة ثوان من النوم قبل النهوض من السرير. كان رنين المنبه في ذلك الصباح يبدو أكثر صرامة من أمه حين كانت تُحاول إيقاظه من النوم كل صباح للذهاب للمدرسة.

استغرق وقتاً طويلاً في محاولة لاستجماع نشاطه للنهوض من السرير. فقد شعر بالحمي تغزو جسده، متقطع الأنفاس كما لو كان قضي ليلته في الركض. رأسه على وشك الانفجار من

الصداع وكأن إبرة مثقاب كانت تنخر بشكل مستمر في قلب رأسه طوال الليل، حنجرته جافة من الظمأ كأنه لم يقرب الماء من أيام. انتابته رغبة في التقيؤ مع ألم يجثو على صدره.
حاول أن يهدئ من نبضات قلبه التي بدت سريعة جداً. بجهد فتح عينيه ليتبين شعاع الضوء الذي اخترق نافذة منزله.

وجد نفسه متكوماً على طرف السرير. حاول استجماع أفكاره تدريجياً، ولكنه فجأة استشعر وجود أنفاس أخري في غرفته. التفت مختلساً النظر بعينيه المُتعبة.

- امرأة

يا إلهي! من تلك المرأة؟
كانت نائمة، شبه عارية، مال أدهم نحوها ليستطلع وجهها، كانت خصلات شعرها تتدلي مخفية ملامح وجهها ومنسدلة في انسياب على الوسادة. حاول أدهم بهدوء أن يرفع خصلات الشعر عن وجهها في محاولة للتعرف إليها.

تحت وطأة الإجهاد والصداع الذي يعاني منه، حاول أن يتذكر من تكون متسائلاً عن الظروف التي جاءت بها لتندس في سريره، لكن لم يستطع تذكر أي شيء. لا شيء يتردد في رأسه غير الصداع. بدت ذاكرته في تلك اللحظة كبرنامج كمبيوتر

يستعصي عليه التحميل. حاول مضاعفة جهده لتجاوز حالة التشويش التي تُسيطر على عقله، بالكاد تذكر أنه بعد أن غادر مقر عمله بالأمس، حاول الاتصال بمريم لكنها أغلقت الهاتف في وجهه عدة مرات، فقرر الذهاب إلى إحدى الحانات القريبة في وسط المدينة وطلب كأساً من الفودكا، فكأسين ثم ثلاثة. وبعد ذلك. لا شيء يذكره بالمرة. حاول عبثاً أن يستحضر أية ملامح أخري لليلة البارحة لكن دون جدوي.

- تباً!

فكر في إيقاظ تلك الجميلة المجهولة، أملاً في إنعاش ذاكرته، غير أنه تراجع لتفادي محادثة عبثية قد لا يظفر منها بشيء.

تسلل من السرير بهدوء، وتوجه بخُطي مترددة إلى الحمام. فتح صنبور المياه فانبعث منه بخار ساخن سرعان ما غمر المرايا المعلقة أمامه بسحابة ضبابية.

- حسناً، لقد حدث الأمر .. لا ترتعب.

تدريجياً بدأ إحساس الذعر في التلاشي، فمن الواضح أنه لا جدوي من محاولة اِستعادة سيناريو ما حدث بالأمس.

في الأغلب أنه كان ثملاً لأنه غير معتاد على الشراب، وهذه الفتاة؟ ربما قد صادفها في الحانة وراودها ثم قررا قضاء ليلتهما سوياً.

قرر أن يستعيض عن البخار الساخن بدفقة ماء بارد، فربما تساعده تلك الصدمة الحرارية على اِستعادة نشاطه.

عاد إلى الغرفة، ووجد أن تلك المجهولة لا تزال نائمة.

وقف واجماً لبرهة، ينظر إلى كل الملابس المبعثرة على أرضية الغرفة. وجد حقيبة يدها على الطاولة، بلا تحفظ قام بتفتيش محتويات الحقيبة. وجد بعض المبالغ النقدية ونظارة شمس ورخصة قيادة صادرة من مونتريال.

أخذ ملابسه بهدوء وقام بكتابة ورقة وضعها أسفل حقيبتها حتى يتيسر لها رؤيتها « أعتذر جداً عن الخروج هكذا، ولكن لدي بعض الأمور الهامة للاعتناء بها، يجب أن أصطحب ماريو للتريض قليلاً، يمكنك إغلاق الباب خلفك بعد انصرافك».

كان بوده إضافة شيء ما، ربما تفسير لائق على سبيل التبرير، لكنه اِتخذ كلبه ذريعة للخروج بتلك الطريقة غير اللائقة. وفوق ذلك كان تلك أحد صفاته التي يبرع فيها « كُرهه لتقديم التبريرات» ولكن مع مريم كان الوضع مختلفاً. إنه يحاول الهروب من وجه مريم في تلك اللحظة.

في أيامه الأولي بكندا، عاش أدهم في غرفة منفصلة مشاركة في أحد المنازل لمدة ثلاثة أشهر قبل أن ينتقل إلى مسكنه الحالي بعد تحسن أحواله المادية وما كان يروقه في تلك الفترة أن الغرف الأخري كانت تتداول قاطنيها عدة مرات، معظمهم يمكث لأسبوع أو إثنين ثم يرحل. في إحدى المرات جاور شاب أفغاني مسلم حاصل على لجوء سياسي، ومرة فتاة هندية غريبة الأطوار لكنها مرحة، وفي مرة وجد نفسه يتشارك فنجاناً من الشاي مع فتاة أيرلندية.
الناس في بلاد المهجر لا يُزعجون أنفسهم ليقولوا أهلاً أو وداعاً كما هي عادات أهل الشرق. هم يأتون ويرحلون فقط بكل بساطة.

دخل إلى المطبخ، تناول بعضاً من الكورن فليكس وارتدى ملابسه الرياضية وقفازين من الفرو وقبعة من الصوف واصطحب كلبه ماريو وخرجا إلى ممارسة رياضة الجري التي يُمارسها سوياً، متجاهلاً تماماً تلك المرأة النائمة في فراشه.

كان المكان بالخارج لازال مظلماً بعض الشيء وما أن أطل برأسه خارج المنزل حتى شعر بصفعه على وجهه من الهواء البارد.

عشية ذلك اليوم، أعلنت النشرة الجوية عن طقس ثلجي، ولكن على غير المعتاد لم يتساقط أي شيء حتى الآن.

سارا هو وماريو بخطوات سريعة. كانت أضواء أعياد الميلاد وأكاليل الصنوبر تُزين الحدائق ومداخل المنازل مانحة إياها مظهراً احتفالياً. مرا أمام مرفأ السفن وبعد أن هرولا حوالي المئة متر دخلا إلى الحديقة.

في تلك الساعة من صباح الأحد ونظراً لبرودة الجو، لم يكن هناك إلا القليل من البشر الذين يمارسون رياضة الجري. كانت الرياح القادمة من بحيرة أونتاريو تكتسح حلبة الجري الفردي، كان الهواء قارصاً، ولكنه وعد نفسه منذ مجيئه إلى كندا بألا يتخلى عن ساعته اليومية من الجري لأي سبب.

بعد حوالي خمسين دقيقة، جلس على العشب ليلتقط أنفاسه وأعطي بعض الطعام لماريو. تذكر أشتية مصر المعتدلة، كورنيش النيل الممتد لعدة كيلومترات، وكيف لم يُفكر يوماً في ممارسة التريض هناك.

فجأة استسلم لذكري ضحكات مريم التي بدأت تغزو عقله.

كان في شدة اشتياقه لوجهها الطفولي البريء وعيناها الواسعتان وضحكتها الصافية. نظرتها إلى المستقبل كوعد، حبها للضحك والقراءة، وهذا شيء من النادر أن يجتمع في أنثي. فعلى الرغم من أنها كانت محبه للروايات والقصص الرومانسية إلا أنها اختارت أن تلتحق بكلية السياحة والفنادق.
تحت هيئتها الحالمة تركت مساحة قليلة للتعامل مع تلك الحياة المادية. كان يُصادف كثيراً أن يُعاودا النظر إلى لقطات لقائهما الأول، نحو بعض اللحظات السعيدة التي كانا يُلملمها، لعبهما سوياً على الشاطئ، عنادها، استفزازها الدائم له.

- لكن لماذا؟ .. سأله أصدقاؤه.
لقد كنت رافضاً تماماً لفكرة الهجرة وترك مصر، الهروب ليس حلاً، حياتك وعملك هنا على ما يرام!
- أريد أن أري شكلاً أخراً للحياة.
في الحقيقة أنه لم يكُن يُريد أن يُزعج أحداً بعبثية أحزانه.

- أنت مجنون! كندا ليست لك. دوماً ما كنت معترضاً على فكرة الهجرة والبدء من جديد في مكان آخر. أنت تعلم جيداً أنك لا تستطيع التأقلم مع تلك النوعية من الحياة الروتينية.
- سأتعلم.

رغم أنه كان هناك الكثير من المنطق فيما قاله أصدقاؤه، لكن أحد لم يُدرك حقيقة أن أحلامه كلها أصبحت عن الغربة، أن يصبح غريباً في إحدى المدن الباردة أفضل من أن يكون غريباً في نفس المدينة التي تحمله هو ومريم دون أن يلتقيا.

كان أدهم يعتقد أنه في هذا المنفي الاختياري، ستصبح ذاكرته بيضاء، ستتلون مشاهدها باللون الأبيض. فربما تقدم له الغربة شيء من السكينة، سكينة بلا حب وبلا وجع وجودي يلون الحياة وبلا مريم، لكنها سكينة. سينسي وسيحاول أن يلحق بوتيرة الأيام السريعة التي ستشده إليها، بعيداً عما حدث في القاهرة.
بدا الجميع قلقاً جداً من قراره المفاجئ، لكن لم يستطع أحد إقناعه بالعدول عن تلك الفكرة.

فجأة انتصب ماريو واقفاً، وبدا كأنه يقول: توقف عن رش الملح على الجرح.

فرغم مرور مدة ليست بقصيرة على فراقهما إلا أنه مازال مسكوناً بذلك الفراغ الشاسع، فراغ ينهشه من الداخل، رغم كثرة الضجيج في الخارج، لم يراوده يوماً أن الحياة يُمكن أن

تكون بتلك القسوة لتنتزع منه مريم وتتركه وحيداً بائساً. شعر بدفء دموعه تنهال قبل أن تمسحها الرياح الباردة.
في تلك اللحظة بدأت الثلوج في التساقط، فقام مسرعاً مصطحباً ماريو وعاد إلى المنزل، ليتسنى له التأكد من أن تلك النائمة المجهولة لازالت على قيد الحياة.

أدهم: صباح الخير، آسف على الخروج ..
قاطعته: ليس هناك مشكلة، لقد قرأت رسالتك.
أدهم: عذراً، لكني لا أستطيع تذكر اسمك، ربما ثملت كثيراً بالأمس.
- بالتأكيد، أنا بليندا.
- أدهم.

بليندا: من هي مريم إذاً يا سيد أدهم؟
أصابت أدهم دهشة بالغة من ذكر الاسم.
- نعم، لقد كنت تهزي باسمها كثيراً، حتى أني شعرت أنها الحاجز الذي منعك من لمسي بالأمس.
أدهم: أنا أسف فعلاً ولكن..
بليندا: لا داعي للاعتذار، أنا أتفهم. هل هي صديقتك؟
أدهم: لا، إنها زوجتي.

بليندا: يا إلهيّ! هل أنت متزوج؟
أدهم: لقد اِنفصلنا منذ فترة، وأنا أحاول أن أتناسي تلك العلاقة.
بليندا: هل تلك الصور لها؟
أدهم: أجل.
بليندا: ما دمت تحتفظ بكل تلك الصور، فكل ادعاءات النسيان، أو اعتياد الغياب مجرد كذبة لا يصدقها أحد، ولا حتى أنت.
وهل حاولت أن تجد امرأة أخري؟
أدهم: أعتقد أني كبرت على أن أضع قلبي في مكان وأعيش في مكان آخر.
بليندا: ولماذا لم تحاول إصلاح الأمور؟
أدهم: في البداية، كنت أشعر أن خوفي على حريتي وطموحي أكبر من خوف الوحدة. في تلك اللحظة التي وافقتها على الانفصال كنت أفضل أن أكون حراً بائساً على أن أكون سعيداً في قفصها. فأنا لم أكن يوماً ذلك الشخص المسكون بالحنين إلى الماضي، إلى الذكريات، كل نهاية كنت أعتبرها بداية جديدة، أما الآن فكل ما أرغب فيه هو العودة لنقطة وجودها، لكل لحظة كانت تدفعني فيها الحياة إلى الاستسلام وكانت «أنا هنا بجانبك» «غير مهم طالما نحن معاً» تكفيني

وتغنيني عن كل شيء. الآن كل شيء يدفعني إلى الحافة، تقلقني الهزات الصغيرة، تصيبني الكلمات كما لو أنها خناجر مسمومة، أتعثر طوال الوقت كمن نسى المشي فجأة، حزني الآن أنه من الصعب أن أطلب منها العودة، وليس بيدي قرار اللحاق بها.

بليندا: هل حاولت أن تشرح لها؟

أدهم: نعم ولكن رغم كل المحاولات، لم تستطع أن تفهم وتغفر.

بليندا: يا عزيزي، كيف تطلب منها أن تغفر ما لا تفهمه، إننا نغفر فقط ما نستطيع فهمه.

وما سرها وسط كل من عرفت من النساء؟

أدهم: أنها كانت صادقة في كل شيء تفعله من أجلي، ذلك الصدق الأشبه بصلاة الخائف الذي ضل به الطريق. لقد ظننت دوماً أنني أحبها بلا أسباب واضحة أو منطقية، لكن بمرور الأيام أدركت أنها تُذكرني بي قبل أن يفسدني العالم، قبل أن تحتلني رغبات الحياة المادية.

بليندا: هل يمكنك أن تصفها؟

أدهم: أحياناً طفلة تبحث عن الأمان، وأحياناً مراهقة تتخذ الطيش والجنون درباً في الحياة، وأحياناً امرأة قوية يمكن أن تواجه العالم وحدها من أجلي، لكنها دوماً ما كانت أماً تحاول

أن تصنع لنا حياة آمنة.

بليندا: شيء لطيف ونادر أن تجد شخصاً يتصالح مع عقدك النفسية، يشاطرك الهموم والهواجس، شخص يشعرك أنك طبيعي حين يجتهد العالم في وشم كل تصرفاتك بالغرابة والجنون.

أدهم: من المهم يا سيدتي أن نكون مهمين لشخص ما في هذا العالم، أن يكون الشخص بطلاً في قصة واحدة على الأقل، أن يكون قابعاً في رأس وصدر أحدهم، وجودنا غالباً لا يقتصر على إدراكنا لأنفسنا، نحن بحاجة إلى شهود، وجودنا بحاجة إلى شهود. وعينا الخاص غالباً ما يسبب إحراجاً لنا في تلك المسألة، نحن بحاجة لشاهد واحد على الأقل أننا لسنا أشباحاً، أشباحاً كئيبة ومملة وخائفة.

هكذا كانت مريم، وستظل دوماً بالنسبة لي.

بليندا: يا إلهيّ! كيف تحمل لها كل هذا الحب دون أن ..

قاطعها أدهم: أرجوكِ، يكفي الحديث عنها.

*****

المسافة ستأخذ حوالي ثلاثين دقيقة للوصول إلى مستشفى صني بروك حيث ترقد والدة تامي، مساعدته في المنظمة. دخل إلى محطة المترو ثم ذهب مباشرة إلى الرصيف. شاشة التلفاز المعلقة تُظهر أن القطار التالي سيصل بعد ثلاث دقائق، وقف صامتاً

متأملا وجوه البشر على الرصيف المقابل.

في تلك اللحظة تلك أتي صوت من خلفه وقال: هل تري ذلك الصبي ذو المعطف الرمادي على الرصيف المقابل؟

- عذراً!

- اِنظر إلى ذلك الصبي ذي المعطف الرمادي هناك على الرصيف المقابل.

أمعن أدهم النظر إلى الصبي الذي أشار إليه الصوت. شاب في العشرينات من عمره ذو ملامح أسبانية، ولحية خفيفة تُغطي أسفل وجهه وتتدلي خصلات من شعره الطويل والمتسخ على عينيه. كان من الواضح أن الفتي يبدو عليه الاضطراب والقلق على عكس باقي المنتظرين على رصيف المحطة والمنشغلين إما بالقراءة أو بتصفح هواتفهم المحمولة. ربما يكون تحت تأثير المخدرات، فتدخين الماريجوانا منتشر بين الشباب في هذا السن هنا في كندا.

- اسمه جافير كاساس .. أوضح له الصوت.

اِستدار أدهم لمصدر الصوت. كانت امرأة في أواخر الخمسينات، متوسطة القامة، ملفوفة القوام، ترتدي بدلة رمادية ومعطف

أسود من الصوف. حين التقت عيناهما شعر بشيء من الضيق، وتسارعت أنفاسه بشكل غريب، وتشوشت أفكاره للحظة.

أدهم: ماذا تريدين مني؟ ولماذا تُريدين أن أنظر لهذا الصبي؟

- لأنه سيُقدم على الانتحار في الدقائق القادمة.

أجابته بمنتهي الهدوء.

أدهم: هل تعرفينه؟

المرأة: ليس شخصياً ولكنني أعرف حكايته.

أدهم: كيف عرفت أنه سيُقدم على فعل ذلك؟

المرأة: هذا ليس بالشيء المهم الآن، لنقل أنني أعرف.

أدهم: ولكن فيم يخصني هذا؟

المرأة: كل ما يمس أقراننا من البشر يخصنا .. أجابته وكأن الأمر بديهي.

أدهم: أنت مجنونة.. انصرفي من فضلك.

وبينما يقول تلك الكلمات، لم يستطع منع نفسه من النظر إلى الشاب وتصاعد في داخله قلق عميق.

- لن يحدث شيء، لا يمكن لأي شيء كهذا أن يحدث.

مرت أقل من دقيقة بين تنبأ المرأة واللحظة التي أتي فيها القطار، ليقفز الفتي أمامه، وخلال بضع ثوان كان الشاب تحت عجلات القطار.

ظل أدهم ساكناً ومصدوماً أمام ما حدث للتو، وللحظة بدا وكأن الزمن قد توقف.
انطلقت صيحات الهلع، وطغت الفوضي والهياج على كل الواقفين في المحطة. تدافع الجميع مذعورين، وركضوا بعيداً عن الرصيف.

- ابتعدوا، أرجوكم، إلى الخارج من فضلكم، سيتم تدبير وسيلة أخري تقلكم إلى المحطة التالية .. قالها حارس الأمن وهو يُمسك بجهازه المحمول طالباً المساعدة:
- لدينا حالة انتحار.

على بعد أقل من متر لم يكن بوسع أدهم أن يفعل شيء سوي النظر إلى جثة جافير التي تحولت إلى أشلاء تحت عجلات القطار. كان على يقين أنه لن يستطيع التخلص من هذا المشهد، وأنه سوف يراوده مراراً وتكراراً على مر لياليه، وفي لحظات وحدته المطلقة.
تخلص أدهم من الحشود بمشقة بالغة وراح يحاول اللحاق بتلك المرأة، لكنها كانت قد اختفت.

وصل أدهم إلى المستشفي وهو شارد الذهن، يُفكر في التجربة التي مر بها للتو، وسيل من الأفكار المتضاربة تغزو عقله.

وفي محاولة لاستجماع أنفاسه المتلاهثة، جلس في قاعة انتظار المستشفي بجوار الحائط الزجاجي المطل على موقف السيارات.
حاول أن يُفكر فيما حدث بموضوعية وبشكل عقلاني. كان عليه أن يقر بأسباب أخري غير الجنون أو الهلاوس.
في البداية شعر بالفزع من مشهد الفتي المنتحر، ثم سرعان ما تحول الفزع إلى فضول حول تلك المرأة. بدأ بحساب التفسيرات المحتملة وترتيبها.
حاول أن يستجمع أفكاره، نعم ما حدث يمكن أن يكون مجرد صدفة.

- لكن ماذا عن تلك المرأة؟ هل هي مشعوذة؟

لكن نظراتها لم تكن تحمل أي دلالات للجنون أو العدوانية.

انتفض أدهم واقفاً فجأة، يركض خارجاً من باب المستشفي في اتجاه موقف السيارات.

- يا إلهي! .. إنها تلك المرأة التي من محطة الأنفاق.

حين وصل إلى المكان الذي ظن أنه رأها تقف عنده، كانت سيارة دفع رباعي تجتاز البوابة الخارجية للمستشفي.
وقف أدهم متجمداً في مكانه من الصدمة.

- هل تلاحقني تلك المرأة المجنونة؟ هل يمكن أن أكون مخطئاً؟

ربما، ولكن كانت هيأتها مطابقة تماماً لتلك المرأة.

*****

في الأيام التالية، تحولت تلك المرأة لكائن يحمل صفات الشبح بالنسبة له. لم يكن لديه أي إشارة أو دليل حول حقيقة شخصيتها، لكنها بدت بطريقة ما تُلاحقه. كلما تقدم بنا السن، اعتبرنا الأشباح حقيقة لأنها تمنح للعالم معني. في الغالب يبدو لنا أن فهم الكون والعلاقات الإنسانية من دونها وهم.

اتصل ببعض الأصدقاء، وسألهم أن كان أحدهم قد صادف امرأة بتلك المواصفات الجسدية في أي من تجمعات العرب والمصريين هنا.

- كلا، على الإطلاق .. لم يكن أحد قد فعل.

عند العاشرة مساء ليل الأربعاء، استيقظ أدهم من نومه على وقع رنين جرس المنزل الذي لا يتوقف، نزل أدهم مسرعاً على درجات السلم ليفتح الباب. وجد شرطيين عند الباب.

- مساء الخير، نأسف على الإزعاج سيدي، ولكن وقع حادث تصادم منذ قليل وللأسف فر الجاني، ونحن نقوم بِاستجواب كل السكان المحيطين بموقع الحادث في حالة لو أمكنهم إمدادنا بمعلومة، قد تفيد في التوصل إلى شخصية الجاني. ربما لاحظت شيئاً أثناء عودتك.

فجأة ومضت في ذهنه فكرة وكأنها وحي:

- ماذا لو أعطي مواصفات سيارة تلك المرأة للشرطة؟

- نعم، يُمكن أن أُخبرهم أنني شاهدتها تقود سيارتها مسرعة وبشكل طائش قاطعة إشارة المرور أثناء دخولي إلى المنزل، وأنه نظراً لسرعتها لم أستطع اِلتقاط أرقام السيارة.

نعم! .. فالتحايل على تلك المرأة المجنونة لمعرفة حقيقتها، سيكون بمثابة وسيلة لتحقيق شكل من أشكال التوازن في علاقتنا.

الفصل الثالث
«بداية»

في الأيام الأولى، أبقت مريم علاقتها بأدهم سرية فقد كان يجتاحها في كثير من الأحيان إحساس بأن الناس سيحسدونها على سعادتها.

إحساس غامض وغير ملموس، لكنها دوماً كانت تشعر به. من خلال الأسئلة والابتسامات المصطنعة التي تقول الكثير من الكلام. لم يكن باستطاعة أحد أن يتصور مدي خوفها أن تهرب منها تلك السعادة. كانت تستعيد ذلك الخوف في كل مرة تقول «أنا سعيدة» كنوع من التطير، وتتذكر كل تلك اللحظات التي أظهرت لها الحياة فيها جانبها السيئ.

لم تكن تُريد أن يشكّل لديها الأهل والأصدقاء ما يُمكن وصفه بالحلقة الأولي من الضغط الاجتماعي على علاقة ربطت بين فتاة وشاب. ضغط كان سيُطالبها بموعد الزواج ثم ضغط لإنجاب الطفل الأول. هكذا هو الأمر دوماً في مجتمعاتنا الشرقية، فنحن نعيش تحت سيطرة رغبات الآخرين.

لم يرغب أدهم و مريم أن يُصبحا مشهداً مُكرراً وروتينياً من المسلسل الاجتماعي الذي أدمنه الجميع. في الوقت الحالي كانا مسرورين لفكرة وجودهما معاً ضمن الشكل الأكثر كمالاً للراحة العاطفية.

فمنذ الصدفة الأولي التي جمعت شملهما مرة أخري، عاشا ضمن هامش من الحرية. عاشقين، مُستفيدين من أي وقت ولو لعدة ساعات يقتنصاها سوياً في تلك العطلات التي جمعتهما. كان بإمكان الذين يشهدوا عشقهما أن يروهما على الشاطئ في دبي، في أحد مقاهي باريس المنزوية، يُبحران سوياً في مركب صغير عند التقاء المحيط الأطلنطي والهندي.

تلك الذكريات التي صنعاها أوجدت لديهما نوعاً من المشاعر الرومانسية الحقيقية. كانا يستمتعان بالأمسيات التي يستعيدان فيها طريقة لقائهما الأول، يتذكران تفاصيل لقائهما الأول بشغف، شاكرين القدر الذي جمعهما صدفة مرة آخري.

كانا في الواقع يعشقان أسطورة حبهما، سيرددانها كما الأطفال الذين نردد على مسامعهم نفس القصص دون كلل. وكما كانت علاقتهما، كان اِحتفال زواجهما بسيطاً وناعماً، بعيداً عن المألوف فقد قررا أن يكون نهارياً، يضم أفراد العائلتين وأصدقائهما المقربين فقط.

لا أدري لم يعتقد الناس أن الاحتفال بالزواج هو قمة هرم الاحتفالات، يجب علينا أن نبتسم ونرقص، ثم في وقت متأخر من الليل يذهب المدعوون للنوم بعد تناول العشاء.

بدت مريم في قمة جمالها، فهي تهتم بهيئتها ووزنها منذ عدة أسابيع. وقف أدهم يتأملها بتأثر شديد غير مصدق أنها أصبحت زوجته، وقد ترسخت في ذاكرته تلك اللحظة وكل ما يجول في خاطره أن تلك الصورة هي نفسها التي ستكون أمام عينيه لحظة مفارقته للحياة.
كان في قمة سعادته، ومُرتدياً بذلة بيضاء في محاولة لكسر كل القواعد المجتمعية فيما يتعلق بالزواج، ليختلط البياض بالبياض. ومن فرط سعادته، ورغم إدراكه لصوته السيئ، نهض فجأة وأخذ الميكروفون ليُغني أغنية «مال القمر» فقد كان مغرماً بأغاني محمد فوزي.

كان العروسان وحيدين، وسط هذا الحشد من الأهل والأصدقاء. أمسك أدهم مريم من خصرها، وقادها للرقص وسط تصفيق الحضور. كان شعرها قد بدأ يتراخى، ولفت ذراعها حول عنقه كما لو أنها بحاجة إلى دعم. طوقها هو بذراعيه واستراحت يده على ظهرها. جميلة وهادئة كما عهدها دوماً.

نظر أدهم إلى عينيها قائلاً:
- أنا لست واثقاً من أنني سأتمكن من إسعادك.
تفحصت ملامح وجهه، ثم قالت:
- وجودك بجواري كاف لإسعادي، وسنعمل جاهدين سوياً لإنجاح تلك العلاقة وبناء العائلة التي تمناها كلاً منا.

أضاءت له مريم في تلك اللحظة ملامح حلمه القديم الذي كان يستشرفه بتأملاته، فيري كياناً إنسانياً من المستقبل سيحقق له الحلم الأجمل في إيجاد توأم الروح والنفس.
ذلك الحلم الذي دأب على انتظاره، كلما ولد مساء جديد من رحم تلك الأيام المملة.

ذهبا في شهر العسل والتقطا الكثير من الصور ومن ثم قفلا عائدين. الآن يتوجب عليهما اجتياز المراحل الحقيقية للحياة.

كانا يُدركان أنهما حتى وإن كانا عاشقين فيجب عليهما لاحقاً الاحتفاظ قدر الإمكان بحياتهما الاجتماعية، مشاركة الأصدقاء في مناسباتهم الخاصة، زيارات فجائية للأهل، سيحاولان ألا ينغلقا على بعضهما، فيقعا في فخ الملل. هكذا ستمضي السنوات.
في البداية بدا كل شيء سهلاً وبسيطاً فيما كان الأزواج من حولهما يبذلون الكثير من الجهد في محاولات ضائعه لذلك.

لكن مريم لم تستطع أن تفهم قول أدهم «لإنجاح أي علاقة، يجب على طرفيها بذل الكثير من الجهد لإنجاحها».
كانت الأمور بالنسبة لها إما أن تكون بسيطة أو لا تكون، أما بذل الجهد في سبيل إنجاحها فهذا من قبيل التفلسف غير المجدي.

- صباح الخير يا صغيرتي!
كانت مريم تجلس على السرير، ترتدي أحد قمصان أدهم وتتصفح هاتفها المحمول حين خرج من الحمام، على أطراف أصابعه محاولاً عدم إصدار أي ضوضاء ظناً منه أنها لازالت نائمة. رمت هاتفها على السرير ومطت ذراعيها فوق رأسها وقالت بصوت مبحوح يدل على ما فاتهما ليلة أمس من ساعات النوم.

- ألا يوجد أي فرصة لقضاء تلك العطلة سوياً؟
إنها المرة الأولى منذ فترة طويلة التي تتواجد فيها خلال عطلة نهاية الأسبوع.
أدهم: للأسف يتوجب علي التواجد في القاهرة لحضور بعض الاجتماعات الهامة. لكن ما رأيك بعشاء لطيف في مكان ما لدي عودتك؟ في كل الأحوال، اختاري أنت المطعم.

*****

كان من عادات أدهم أن يُخصص يومياً ساعة للقراءة، يجلس مسترخياً فوق كرسيه الهزاز للقراءة، يتأرجح بين صفحات الكتب والأحلام. لحظة يسرقه الخيال نحو الحارة القديمة في روايات محفوظ ولحظة يجد نفسه على شواطئ أمريكا اللاتينية في روايات ماركيز.

مساء اليوم التالي، بعد أن أنهي عمله، جهز كوبه الحراري من الشاي الأخضر بالنعناع والذي يُحب أن يشربه على مهل وجلس ليقرأ رواية «باب الخروج».
قدمت من الغرفة المجاورة وجلست بجواره على الأريكة، ورمقته بنظرة فهم منها أنها تُريد أن تسأله: ماذا تفعل؟
أشار لها بغلاف الرواية، دون أن ينطق بكلمة، فقد بدا له أنها لم تطرح السؤال إلا من باب الفضول.
لم يكن أدهم يعلم حينها، أنها ربما ستكون المرة الأخيرة التي سيتبادلان فيها ذلك الحديث الصامت.

وضعت عدة قبل رقيقة على وجهه، وهمست في أذنه. بينما اكتفي هو بالابتسام والتربيت على ظهرها، دون أن يهتم فعلياً بالحديث إليها أو مبادلتها الاهتمام.

غفي أدهم على كرسيه قليلاً، وحين استيقظ وجد صعوبة في تقدير المدة التي قضاها في النوم.
أخذ رشفتين من كوب الشاي الذي كان لم يزل محتفظاً بحرارته، كان هذا الكوب هو محدد الوقت بالنسبة له. لا شيء تغير إذاً.

في تلك اللحظة، انقبض صدره فجأة، إذ اختلط بخار الشاي المنبعث من فوهة الكوب مع صوت ارتطام شديد بالخارج.
وعلى غير عادته في تجاهل ما يحدث خارج باب منزله خصوصاً أثناء نهاية الأسبوع، قرر أدهم الخروج لاستكشاف ما حدث، فربما يمكنه تقديمه المساعدة.

لم يكد يفتح باب حديقة منزله الأمامية، حتى صرخ حارس العقار:
- لقد صدمتها سيارة يا دكتور ..
فهرع أدهم يركض إلى الشارع.
- أرجوكم أفسحوا الطريق. كان جسدها مُلقي على الأرض ومخضب بالدماء.

استجمع أدهم قوته ورفعها من على الأرض بمساعدة الجيران ووضعها في السيارة وهرع بها إلى المستشفي القريب. لم يعرف ماذا يقول أو يفعل.
بقي للحظة واقفاً في مدخل المستشفي، دون أن يستطيع حتى طلب المساعدة.
- لا تقلق سنعتني بها من هنا .. صاحت إحدى الممرضات.

سأل أدهم الطبيب الذي أتي لفحصها:
- ما هي فرصتها للنجاة؟
- ضئيلة جداً.
- ماذا تعني؟ هل تعني أنها معدومة؟ الأفضل أن نتصارح فأنا طبيب ومتفهم جيداً لطبيعة تلك الحوادث.
- لا أستطيع قول ذلك. فرصة نجاتها ضئيلة، لكننا لا نستطيع الآن الجزم بأي شيء.
- هل لديها نزيف؟ كسور في أماكن مختلفة؟
- لازلنا في انتظار نتائج الفحص والأشعة.

أُصيب أدهم بالخرس ونظر في عيني الطبيب الذي بقي هو الأخر جامداً دون حراك. من المفترض كطبيب أنه مر بالكثير من المشاهد المأساوية التي فقد فيها البشر أحبائهم في تلك المستشفي، لكنه شعر أن هذا المشهد يفوق كل شيء دون أن يعرف تفسيراً لذلك. راح الطبيب يتأمل وجه أدهم الممتلئ بالألم والرجاء، غير القادر على البكاء.

تقدم أكثر نحو الشباك الزجاجي الذي ترقد خلفه، نظر إليها وكل ما يجول في خاطره، هو كيف ستكون أيامه القادمة وكيف سيكون شكل المنزل من دونها؟!

منذ عدة ساعات كانت تجلس إلى جواره وهو يقرأ، وها هو الآن يجلس هو وهي في مستشفي يفصلهما عدة حوائط.
ومع عودة الواقع البشع لتركيب أجزاءه. تمني أدهم حينها أن يعود بالزمن قليلاً إلى الوراء، خطوة واحدة إلى الخلف ليظل مستيقظاً ولا ينام.
شرح له الطبيب أنها مازالت على قيد الحياة، وربما تستعيد وعيها. لكن أدهم كان لديه يقين أن كل شيء قد انتهي.

- أُريد البقاء بجوارها والاعتناء بها.
نصحه الطبيب قائلاً: هذا لن يفيد، من الأفضل أن تعود إلى البيت وترتاح قليلاً ثم تأتي لزيارتها في الصباح وسنبقيك على إطلاع بتطور حالتها.
- لا أريد أن أرتاح. أريد البقاء هنا بجوارها، يجب أن أبقي. ماذا لو استيقظت ولم أكن بجوارها؟

خيم صمت ثقيل في الغرفة، فلا أحد كان واثقاً من استيقاظها لكنهم حاولوا التظاهر بشيء من الطمأنينة.
- سنُعلمك فور استيقاظها، لكن من الأفضل الآن أن تذهب إلى المنزل وتنال قسطاً من الراحة.
اضطر أدهم أخيراً أن يستجيب لتلك النصيحة.

حاول أن يأكل بعد عودته إلى المنزل، لكنه لم يستطع، وارتمَ فوق السرير في غرفته.

- ما الذي يمكن أن يكون قد أرادت قولها به حين جلست إلى جواره على الأريكة ؟ لماذا قررت الخروج فجأة؟ لماذا لم تنتظر أن يصطحبها؟

في اليوم التالي، فارقت الحياة.

وقع أدهم تحت تأثير الصدمة وإحساس الذنب وتأنيب الضمير. لم يتوقف لحظة عن التفكير في اللحظات الأخيرة قبل خروجها من المنزل.

شيء غامض فعلاً وغير مفهوم أن تنهار تلك السعادة فجأة. تنتهي بمشهد هزلي لها، وهي تهمس له ببضع كلمات غير مفهومة، والتي لن يستطع استيضاحها أبداً، ربما لم تقل شيئاً أصلاً، واكتفت بالقبل التي طبعتها على وجهه.

أصر أدهم على حصولها على مراسم دفن رسمية رغم ارتفاع تكلفة ذلك، وتواجد بعض الأصدقاء في مراسم الدفن. ربما ستُسعد بوجود كل هؤلاء البشر الذين أتوا لتوديعها. جال بخاطره وهو يهيل عليها التراب، أنهم نفس المدعوون الذين تواجدوا في عيد ميلادها الأخير. نعم كل هؤلاء كانوا هناك.

ها هم بعد عدة شهور يلتقون من جديد في اِحتفال مماثل، البعض منهم يرتدي نفس الملابس.

كيف يمكن لتلك الملابس أن تكون مناسبه للحزن والفرح؟

- لا .. يجب أن أوقف تلك الأفكار والوساوس، فالتفكير في تلك الأمور نوعاً من العبث. كيف بإمكان كائن أي كان، انتقل إلى تحت التراب أن يهتم لوجود البشر؟ إنه على وشك أن يبدأ حياته الأخري، فكيف بإمكانه أن يكون سعيداً؟

بعد مراسم الدفن، رغب أدهم في البقاء وحيداً. رفض دعوة أحد الأصدقاء في المكوث معه، كما رفض أن يأتي أحد للمكوث معه في المنزل. كل ما أراده في تلك اللحظة أن يختبأ، يختفي عن الجميع، أن يذهب بعيداً كي لا يري نظرة الشفقة والاستغراب في أعين المحيطين به.

حين وصلوا للبيت قال:

- لن أعرض عليكم البقاء، فأنا متعب جداً وأريد النوم.

- أتعدنا أن تتصل لأي سبب وفي أي وقت وأن ترد على اتصالاتنا ؟

- أجل .. كل ما أرجوه، ألا يُخبرها أحدكم حتى عودتها.

أُريد أن أُهئ لها الأمر.
- بالتأكيد، لك هذا .. عانقوه وشكرهم ورحلوا.

لا أدري لِمَ نميل إلى عدم تصديق هؤلاء الذين يُعبرون عن رغبتهم في البقاء وحيدين، لماذا نعتبر هذا نوعاً من الاكتئاب، وعرضاً نفسياً يجب علاجه؟!
الوضع غير محتمل فعلاً، كل مكان في البيت يذكره بها، كل نفس يتنفسه يحمل رائحتها، لعبها، ذكرياتهما سوياً خلال السنوات الماضية.
تقدم نحو غرفة المعيشة، كان كل شيء ثابتاً في مكانه. كوب الشاي مازال في مكانه، الكتاب الذي كان يقرأه. وقع نظره فجأة على علامة الترقيم التي وضعها داخل الكتاب، والتي قسمته إلى جزأين، الأول عندما كانت موجودة، وعند الصفحة الخامسة والثمانين كانت قد فارقت الحياة.
ما العمل الآن؟ هل سيستطيع استكمال القراءة في رواية قُطعت بموت أحد أكثر المخلوقات التي أحبها في حياته ؟!

في تلك اللحظة من فقدانك شيء مهم، ستشعر كيف بإمكان الحياة في صدرك، أن تبقى نائمة، بينما يستيقظ الكل، ولا تستيقظ أنت.

مريم

قبل أى شئ يجب أن تعلمى أن معلق، شمعتى تحارب رياح الهزيمة، هزيمة الحياة لنا حين إنتصرت على ما كان بيننا
لا أدرى حقاً كم مر وأنا تحت تأثير الوحدة والتكرار والنمطية واللامعنى واللاطعم والفراغ الكبير الذى أحدثه رحيلك فى قلب رجل لم يحب سواك .. قاوى جداً ومتعايش جداً، منهزم جداً عاطفياً وناجح جداً عملياً، مُذنب جداً واعلم أنى ربما لم أكن أستحق امرأة مثلك، لكنى لازلت متمسكاً بتلك الحياة التى أعيشها ككابوس وأستيقظ كل يوم خائفاً منها أكثر على أمل أن تأتى بك يوماً
كل ما أفكر فيه الآن أن أُخبئ رأسى بين ذراعيك، أن يحتوينى قلبك مرة أخرى لأولد من جديد، بلا أخطاء أو ذاكرة فى عالم خال من كل تلك الأشياء المنغصة والتى أدركت وجودها برحيلك، عالم تفهمنى فيه الأشياء وتُعيرنى إنتباهها
أنا لست متيقناً من قدومك ولا أملك ما يُمكن تقديمه لك كى أطالب بك كجثة قادرة على إحياء ما مات بداخلى أو على الأقل لإيقاف ذلك التصحر الذى بدء يكسو روحى . هذا شعورى يا مريم، لم أعد أستطيع أن أخفيه أو أنكره أو حتى أن البسه رداءً من العقل والمنطقية. أنا أظهره لك عارياً. كل ما أملكه أنى أحببتك وسأظل أحبك إلى ما بعد إنتهاء العالم.

الفصل الرابع
«هروب»

بعد انتقاله للعيش في كندا، ساعدته إحدى المنظمات المختصة بمساعدة المهاجرين الجدد في إيجاد فرصة عمل في نفس المجال الذي كان يعمل به قبل انتقاله من مصر. لم يفهم الكثيرون لم اتخذ مساراً وظيفياً مختلفاً عما هو سائد أو متوقع. في مصر على الأرجح لا يُتاح لأغلب خريجي كلية الطب إلا العمل في القطاع الصحي المعتاد أو ينحرف عن المسار ليلتحق بمجال مبيعات الأدوية.

استطاع أدهم الالتحاق بالعمل في منظمة الأمم المتحدة وحصل على ماجستير إدارة الأعمال من إحدى الجامعات

البريطانية. نعم، لقد نجح طبقاً لمعايير أقرانه والمحيطين به. كان ذلك هو الوضع لمن ينظر إليه من الخارج.
كان من المثير العمل في منظمة دولية، وفي وظيفة تتطلب رؤية الكثير من البشر كل يوم، في الوقت الذي أصبح كل ما تُريده بمرور الوقت أن تهرب من الجميع.

كان محبوباً من الجميع، بداية من حارس البناية إلى جميع العاملين معه، باستثناء مديرته المباشرة التي كانت تشعر ببعض القلق من طموحه. ورغم تحفظه الشديد في علاقاته، إلا أنه كان مبتسماً على الدوام، وكثيراً ما يُفاجئ جميع من في المكتب ببعض الهدايا البسيطة، ويضعها على مكاتبهم قبل حضورهم.

منذ اليوم الأول للعمل في المنظمة، قرر أدهم أن ينثر ذكرياته في كل زاوية من زوايا المكتب الكبير، غلفه ببعض الصور الزيتية التي رسمتها مريم، هدايا تذكارية من مختلف الدول التي زارها، الكثير من السفن الصغيرة يدوية الصنع، وبعض الكتب في مجالات مختلفة.
بمرور الوقت أصبح مكتب المنظمة بمثابة الشرنقة لأدهم. يحب التجول في الممرات، والإصغاء إلى زملائه وأحيانا إضافة كلمة أو جملة على الأحاديث الجانبية الجارية. لم يكن يتوقع أي

شيء منهم، باستثناء مساعدته تامي ولذلك كان يتعايش معهم في سلام. تعلق جداً بالمكان الذي صار يشبهه، أصبح مهووساً بالعمل، يبدأ يومه مبكراً جداً، ولا ينتهي غالباً إلا حين يدفعه جسده للراحة أو حلول موعد اصطحاب كلبه للتريض قليلاً. انهمك أدهم في العمل وبحياته الجديدة في تورنتو، إلى أن حدثت تلك الزيارة غير المتوقعة.

في ذلك اليوم، قضي فترة الصباح في إجراء بعض المكالمات الهاتفية مع أعضاء الفريق المسؤول عنهم والمنتشرون في عدة دول أفريقيه. في الظهيرة لم يكن يشعر برغبة في الذهاب لتناول وجبة الغذاء، أو شرب قهوته كالمعتاد. فقرر أن يتمدد قليلاً على الأريكة الموجودة في مكتبه، فمنذ عدة أيام وهو يشعر بألم في الجهة اليمني من الصدر، وها هو يتواصل الآن.

- يجب أن تكف عن التفكير فيها وفي كل ما تركته وراءك هناك.

قاطعه رنين الهاتف، وموظف الاستقبال في بهو المبني يُخبره أن هناك أحد الأطباء يود رؤيته لأمر هام.

طلب منه أدهم أن يسأله الحضور بعد انقضاء استراحة الغذاء، لكن الشخص الغريب أصر، وأخبره أن لقائهما لن يستغرق أكثر من عشر دقائق.

شعر أدهم بالتوتر والارتباك حين دخل الضيف إلى مكتبه، إنها نفس المرأة المخبولة التي صادفها على رصيف قطار الأنفاق.

- ماذا تفعل هنا؟ ماذا تُريد مني؟!

ولكن رغم توتره الشديد إلا أنه حاول أن يحافظ على رباطة جأشه.

سألته المرأة: هل أنت بخير؟

- أجل، بالتأكيد.. مجرد قليل من الإرهاق بسبب قلة النوم.

لم يبدُ عليها الاقتناع، وقالت: أنا طبيبة، دعني أفحصك.

- شكراً .. أنا بخير.

- حقاً؟ لا أعتقد هذا، على الأقل، لديك بضعة كيلوجرامات زائدة .. قالتها بابتسامة مصطنعة.

تجاهل أدهم ذلك التعليق قائلاً:

- إذاً كيف أستطيع أن أساعدك دكتورة؟

- لا أُريد شيئاً يا أدهم .. تسمح لي أن أناديك أدهم دون ألقاب، أليس كذلك؟

أدهم: لقد أخبرني موظف الأمن أنك وددتِ لقائي لأمر هام. هل تعملين في أحد البرامج التي نُشرف عليها؟

قاطعته قائلة:

- لا .. فعلى حد علمي أنت من أبلغت الشرطة عني.

هل حقاً رأيتني أمام منزلك، أفر هاربة من موقع الحادث؟

حاول أدهم الإنكار:

- لا لم يحدث، من المؤكد أن هناك لبس ما.

سيطرت لحظة صمت في الغرفة. لم يكن أدهم شخصاً سريع الانفعال، جعلت منه خبرته في مجال إدارة المشروعات والبشر مستمعاً جيداً، ومن الصعب إخراجه عن هدوئه أثناء النقاش. ورغم هذا الهدوء المرسوم على وجهه، إلا أنه كان يشعر أن هناك شيء مُريب منذ اللقاء الذي جمع بينهما والذي سبق انتحار أحد الشباب أمام قطار الأنفاق.

أدهم: أترغبين في شرب شيء ما؟

- لو أمكن، فكوب من عصير الليمون.

أدهم: لك هذا، رفع سماعة التليفون وطلب من تامي مساعدته أن تحضر لها ما طلبت.

أثناء مهاتفته لتامي، قامت الطبيبة من مقعدها وذهبت لتفقد رفوف مكتبته. وعند عودتها إلى مقعدها، نظرت إلى مجسم معدني لأحد القوارب. أمسكت القارب وقالت:

- يشعر المرء وسط البحر بنسبية الأشياء. تبدو عاشقاً للبحر والصيد، من أين جاءك هذا الحب؟

رد أدهم بنبرة تأمل:

- إنها خلاصة قصتي مع البحر، غضبي منه ومصالحته معي.

- كيف ذلك؟

- لقد سبق أن غرقت فيه، ولكنه كان شهماً معي.

- حقاً؟ ومتى حدث ذلك؟

صمت أدهم قليلاً ثم بدأ يستجمع ذكرياته، وكأنه يستدعيها من مكان بعيد:

- كان عمري عشر سنوات، حين حاولت إنقاذ صديقتي من الغرق، حاولت الخروج بعدها من الماء، لكنني لم أفلح. فما كان مني إلا أن اِستسلمت للقدر لأجد نفسي بعد عدة أيام في المستشفي وأنا بين الحياة والموت.

الطبيبة: تبدو تجربة قاسية، أُحي فيك تلك الإرادة يا بطل، وهذا التحدي. ولكن متى قررت التصالح مع البحر؟

أدهم: لزوجتي الفضل الكبير في ذلك، هي التي أقنعتني بعد زواجنا بالعودة لممارسة السباحة وتعلم الملاحة كذلك. قالت بأن في هذا مصالحة مع الموج وأخذاً بثأر تلك الحادثة. «تعلم كل ما في مقدوره أن يوسع مساحة الحرية لديك» هذا أول الدروس التي تعلمتها منها.

الطبيبة: تقصد زوجتك السابقة، أنت محظوظ إذاً.
صُعق أدهم حين سمع منها ذلك.
- أعلم أنكما منفصلان .. قالتها وهي تتأرجح على كرسيها الدوار.
في هذه اللحظة دخلت تامي بعصير الليمون والقهوة.
وضعت الطبيبة القارب على المكتب، وبدأت في شرب عصير الليمون بهدوء، وكأنها تستلذ بكل رشفه منه.

الطبيبة: هل جُرحت؟
مشيرة إلى خدش على يد أدهم اليسري.
أدهم: إنه أمر بسيط، خدش من بعض فروع الأشجار أثناء ممارستي لرياضة الجري.

وضعت الكوب على المكتب قائلة:
- لابد أنك تعلم أن في تلك اللحظة التي تتحدث فيها، تتجدد مئات الخلايا، حينما تموت خلية، تنقسم أخري لتحل محلها.
- أعلم كل هذا.
أخذت الطبيبة في الاسترسال قائلة:
- بالتوازي مع ذلك، تبدأ الخلايا العصبية في الدماغ كل يوم في التلف مع بلوغنا سن العشرين.

رد أدهم: أعتقد أن هذا قدر كل الكائنات على الأرض.
- نعم إنه سر التوازن الدائم بين الموت والحياة.

- تلك المرأة مجنونة لا محالة، لماذا تُخبرني بكل ذلك؟!

استكملت حديثها:
- الموت في كل مكان، لقد اعتاد البشر الحديث عن الموت وكأنه شيئاً مخجلاً، نتعامل معه وكأنه عقاباً وليس شيئاً حتمياً. أظن أن مشكلة الإنسان أنه لا يفكر في الموت كما ينبغي، لأنه لو فكر في الموت لأحب الحياة أكثر.

شرد أدهم قليلاً وكأنه يتدبر ما قالته:
- أعتقد أن مشكلة البشر مع الموت، أنه شيء غير متوقع.
- أعتقد أنك تعلم أن هنا في كندا، توجد بعض الشركات متخصصة في تلك الرحلة الأخيرة. حيث يمكن لمن يُرغب، أن يختار طقوس جنازته، ونوعية الصندوق الذي يُريد أن يُدفن فيه ويؤدي ثمن ذلك مسبقاً، وهو مرتاح البال لأن هناك من سيقوم بإعداد كل شيء كما خطط له. أن نتوقع أو أن تستعد لما هو قادم، لا يعني استعجالك له.

لم تكن المرأة الجالسة أمامه مُحتالة، فقد تأكد بنفسه حين هاتفته الشرطة، بعد توصلهم لمالك السيارة التي أدلي بأوصافها. إنها تحمل الدكتوراه في الجراحة ورئيسة وحدة العناية التلطيفية في مستشفي صني بروك.

كان السؤال الذي يشغل باله منذ التقاها في المرة الأولي:

- لماذا يشعر أن وجهها مألوفاً؟!

أدهم: إذاً أنت هنا للحديث عن الفكرة الفلسفية للموت والحياة.

الطبيبة: بل كنا نتحدث الحياة، وعن الزمن الذي يتسرب من بين أيدينا.

أدهم: للمرة الأخيرة، بماذا يمكنني أن أساعدك يا دكتورة؟

الطبيبة: أعتقد أنني أنا من يمكنه أن يساعدك يا أدهم.

أدهم: في هذه اللحظة، لا أري شيئاً قد تفيدني به يا دكتورة سوي أن تُخبريني لماذا لم تفعلي شيئاً رغم علمك مسبقاً أن فتي المحطة سيُقدم على الانتحار؟

الطبيبة: سيحين الوقت للإجابة على ذلك السؤال.. سيحين لا تقلق.

أدهم: لا أفهمك دكتورة، ماذا تقصدين؟

الطبيبة: إلى ضرورة أن يستعد المرء جيداً، فمن يدري ما الذي يمكن أن يحدث في الغد.

أدهم: عُدنا مرة أخري لهذا النقاش الفلسفي، أو أنني يجب أن أعتبر هذا نوعاً من التهديد؟

الطبيبة: لا، لا ليس تهديداً يا أدهم ولكنها رسالة.

أدهم: رسالة؟ كيف؟ وممن؟

الطبيبة: سيأتي الوقت المناسب للإجابة على كل تلك الأسئلة.

أدهم: ربما علي أن أخبرك بذلك، لولا فضولي لمعرفة كيف تنبئتي بموت ذلك الفتي على محطة القطار، ما كنت أضعت كل هذا الوقت في الحديث معك.

ابتسمت وقالت:

- في الحقيقة أنا لم أتنبأ بشيء.

أدهم: إذاً من أخبرك أنه سيلقي بنفسه أمام قطار الأنفاق؟

الطبيبة: لقد كان مكتوباً على وجهه.

لم يستطع أدهم تمالك نفسه أكثر من هذا، وقرر في تلك اللحظة أن يطردها. تلك المرأة مخبولة وهي هنا لتتلاعب بي. نهض وفتح باب المكتب بعنف قائلاً:

- لدي مواعيد، أنا آسف.

الطبيبة: أنت لا تُصدق رسالتي، ولهذا سأذهب الآن.

غادرت مقعدها، وتوجهت صوب الباب دون أن تلتفت إلى الوراء.

أدهم: ولكن ماذا تريدين مني حقاً؟

- أعتقد أنك تعرف .. أعتقد أنك تعرف.

قالتها وهي تسير في الممر دون أن تلتفت.

أدهم: لا أعرف شيئاً .. لا أعلم حتى ما هي حقيقتك.

أغلق الباب ورائها بعنف وعاد إلى مكتبه، أغمض عينيه وفرك وجهه بشدة قبل أن يطلب من تامي أن تُحضر له كوباً آخر من القهوة.

أحس أدهم أن دخول تلك الطبيبة في حياته لن يمر دون عواقب وبدأت الكثير من الأفكار تجول في خاطره.

شرب قهوته، لكنه لم يستطع أن يستأنف العمل. فوابل الأفكار التي تدفقت على عقله، جعله يشعر بالحرارة تدب فجأة في جسده مع تزايد الألم الذي يشعر به في صدره منذ عدة أيام.

نهض من مقعده، سحب كمبيوتره المحمول، ووضعه في حقيبته.

ثم وسط دهشة تامي، قرر أن يذهب ويستكمل عمله في المنزل.

شعرت تامي بالقلق، إنها المرة الأولي التي يُغادر فها أدهم المكتب مبكراً منذ اِلتحاقها للعمل معه.

- هل أنت بخير دكتور؟

- نعم تامي .. شكراً لك!

كانت تلك الإجابة المقتضبة إشارة لتامي بالسكوت، وعدم التمادي في أي أسئلة أخري.

خرج أدهم من البناية متجهاً إلى محطة الحافلات، كان يُفضل دوماً التنقل باستخدام وسائل المواصلات العامة، فقد كان مُقتنعاً أن مسار الجسد دوماً ما يرافق مسار الروح.

كان يحتاج إلى عملية انتقال تدريجية، كان الجري بين حركة السير وحركة عجلات الحافلات وحركة عيونه على مشهد المشاة والسيارات والدراجات الهوائية يريحه وينسيه متاعب العمل.

كلما اقترب من منزله أكثر، ازداد انسجامه مع ذاته. لم يكن أدهم في الحقيقة متصالحاً مع ذاته ولكنه استطاع إيجاد صيغة للتعايش بين ما كان يعتقد أنه عليه، وبين ما كان يرغب في أن يكون عليه، وماهو عليه فعلاً في محاولة منه لتجنب الصراع مع ذاته والذي كان يعلم جيداً أنه من الممكن أن يودي به إلى الانتحار أو الجنون.

وصل أدهم إلى منزله في الساعة الرابعة عصراً وأعد لنفسه كوباً

من القهوة. أمسك هاتفه، ومع أن الساعة في القاهرة كانت تقترب من منتصف الليل، وغالباً ما ستكون مريم في طريقها إلى النوم، كان كل ما يفكر فيه أنه يُريد سماع صوتها.

- ألو!

بذل أدهم جهداً جباراً لكي يتظاهر بالمرح، متبعاً نفس طريقته القديمة التي طالما كرهتها مريم في ألا يبدي أبداً ضعفه واحتياجه، لا سيما أمام المرأة الوحيدة التي تعرفه أكثر من نفسه.

- مرحباً مريم! .. منذ متي لم يعد يناديها حبيبتي.
- مساء الخير .. ردت بفتور شديد.
- هل كل شيء على ما يرام؟
- ماذا تُريد يا أدهم؟ ألا تري أن الوقت متأخر جداً للاتصال.
- أردت فقط الاطمئنان عليكِ.
- أنا بخير، ولكني في طريقي إلى النوم.
- حسناً، وماذا عن ..

شعرت مريم بغصة في حلقها، لقد كانت تُدرك أنها تكذب حين ادعت أنها بخير، لكنها ستفقد رونق غضبها، إن أخبرته الحقيقة، فأغلقت سماعة الهاتف.

لم يفكر أدهم يوماً أبداً، أن حديثهما يمكن أن يغدو بين ليلة وضحاها بهذا الجفاء. كيف يُمكن لشخصين كانا مقربين جداً أن يصلا لتلك الدرجة في التعامل كغريبين حقيقين؟

كيف أمكن ذلك؟!

جلس على الأريكة وترك نظراته تشرد في سقف الغرفة.

- أي ساذج كُنت!

بالطبع كان ذلك ممكناً. في تلك اللحظة، بدأ يسترجع كل أسباب الانفصال التي حدثت في محيط علاقاته.

في العمل كانت المنافسة شديدة ولا تعرف الشفقة. وحدهم الذين يُضحون بجزء من حياتهم العائلية ومن أوقات فراغهم كانوا يأملون النجاح، ذلك هو قانون اللعبة، الثمن المطلوب للارتقاء في السلم الوظيفي،وقد قبِل أدهم بذلك دون أن ينتبه أن علاقته بمريم تسلك مساراً مُعاكساً لنجاحه المهني، وفي اللحظة التي أدرك فداحة ما حدث كان الأوان قد فات على العودة إلى الوراء ومحاولة إصلاح تلك العلاقة، ووقع الانفصال حتى ولو لم تطلب مريم الطلاق الرسمي..

لم ينتبه أدهم أن كل مشكلة صغيرة بينهما، كانت تتضخم حتى تصبح إشارة جديدة على أنهما يتجهان إلى ذلك المصير المحتوم. الكثير من المشاكل التافهة والصغيرة مثل المرات التي

ينام فيها قبلها، نومه بجواربه لأن قدميه باردتان دوماً، تركه لبقايا أظافره في الحمام وعدم تذكره أن يلقيها في سلة القمامة.

كيف توقفا عن تبادل القبل إلا قليلاً، تلك القبل التي كانت مشحونة من قبل وتراجعت حتى أصبحت مجرد نقرات أليفة على الخد. كم أصبح يمل من قصصها ويضيق ذرعاً بسماعها. انتقلت حياتهما من الألوان الزاهية إلى الرمادي الرتيب الباهت. لم يكن غبياً لدرجة أن يعتقد أن الوهج سيظل متقداً في زواجهما إلى الأبد. لكنه ظن دوماً أن ثمة ومضة ستبقي بمرور الأيام بينهما.

سحب أدهم خاتم الزواج من إصبعه وقرأ في داخله:
I knew from the moment I met you «لقد أدركت من اللحظة التي تقابلنا فيها».
الآن تبدو تلك العبارة مجرد سذاجة من عشاق مبتدئين، فالحب ليس شيئاً مطلقاً يُقاوم الزمن والمحن.
اعتقد أدهم دوماً أن علاقته بمريم تتمتع بشيء استثنائي، ببعد سحري وروحي غامض ترسخ منذ الطفولة. لقد تعارفا دون العاشرة من عمرهما. ومنذ البداية نُسج بينهما نوع من خيط غير مرئي، ربط بين مصيريهما. ثم شاء القدر أن يجعل منهما

زوجين طبعيين رغم مصاعب الحياة.
وها هو الآن منذ قرار الانفصال، وهو يعيش في عزلة فرضها على نفسه. العزلة الداخلية أقوي وأقسي من ذاك الذي يحشر المرء نفسه في غرفته ويغلق عليه الباب، ها هو يُخالط العالم كل يوم دون أن يخوض حواراً حقيقيا أو جاداً مع أحد.

تصفح بعض الصور القديمة، والتي تجمعه بمريم وتحمل الكثير من لحظات السعادة التي عاشاها سوياً.
آخر صورة جمعت بينهما كانت على الشاطئ في مدينة دهب، جدلت مريم شعرها وربطته بمشبك من الصدف اشتراه لها أدهم في اليوم السابق من إحدى البائعات السيناويات.
- لماذا تبدو مريم بهذا الشحوب من خلف تلك النظارة الشمسية؟ كيف لم ألاحظ ذلك من قبل؟

للحظة تذكر أدهم الأماكن الدقيقة للشامات المتناثرة على جسدها، ثم سرعان ما أرغم نفسه على طرد كل تلك الذكريات.
أدار حاسبه المحمول، ليتصفح بريده الإلكتروني، ثم أرسل بعض الرسائل إلى مساعدته وانتهي به الحال نائماً على الأريكة دون أن يخلع حذائه أو أن يُطفئ الأنوار.

أما مريم، فبعد زواجهما قررت ترك عملها كمضيفة للطيران، لأنه يتطلب الكثير من السفر، والانتقال للعمل في مكتب الشركة بالقاهرة. كما كرست جزء من وقتها لإحدى الجمعيات الأهلية التي تهتم بتعليم الأطفال الرسم.

كانت مريم الابنة الصغري لعائلة ميسورة الحال وذات مكانة اجتماعية. تدرج والدها في العمل بوزارة الخارجية إلى أن شغل منصب سفير مصر في عدة دول، قبل أن يتقاعد ويتفرغ للكتابة والتحليل السياسي في عدد من الصحف المصرية والعربية. لم تكن مريم في حاجة إلى النجاح الوظيفي لنيل مكانة اجتماعية حظيت بها منذ طفولتها.

لم يكن المال ولا النجاح الوظيفي يُمثلا حافزاً لها على الإطلاق. في الحقيقة أن شغفها بالعمل كمضيفة للطيران يكمن في رغبتها المستمرة للهروب ولكن بعد أن وجدت أدهم، فلا حاجة لها الآن.

الأمر فعلاً في غاية البساطة حين يشعر المرء بالرضا، حينها لا يفتقر فعلاً لأي شيء.

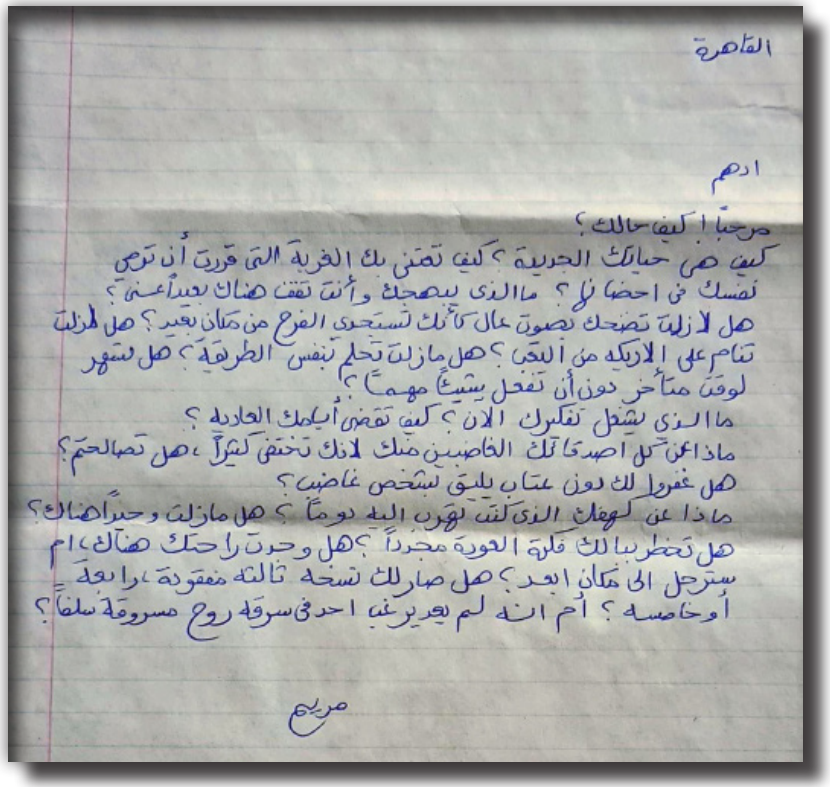

القاهرة

ادهم

مرحبا! كيف حالك؟
كيف هي حياتك الجديدة؟ كيف تعتني بك الغربة التي قررت أن ترمي نفسك في احضانها؟ ما الذي يبهجك وأنت تقف هناك بعيداً عني؟
هل لا زلت تضحك بصوت عال كأنك تستجدي الفرح من مكان بعيد؟ هل لا زلت تنام على الاريكة من التعب؟ هل مازلت تحلم بنفس الطريقة؟ هل تسهر لوقت متأخر دون أن تفعل شيئاً مهماً؟
ما الذي يشغل تفكيرك الان؟ كيف تقضي أيامك العاديه؟
ماذا عن كل اصدقائك الغاضبين منك لانك تختفي كثيراً، هل تصالحتم؟
هل غفروا لك دون عتاب يليق بشخص غاضب؟
ماذا عن المكان الذي كنت تهرب اليه دوماً؟ هل مازلت وحيداً هناك؟
هل تخطر ببالك فكرة العودة مجدداً؟ هل وجدت راحتك هناك، أم سترحل الى مكان ابعد؟ هل صار لك نسخة ثالثة مفقودة، رابعة أو خامسة؟ أم انه لم يعد يرغب احد في سرقة روح مسروقة سلفاً؟

مريم

الفصل الخامس
«اللقاء الأول»

شاطئ قرية مراقيا - خريف ١٩٩٢

لم يكن هذا عام الزلزال في مصر وحدها، وإنما في حياة أدهم أيضاً والتي لم تتعد العشر سنوات. فقد اِنفصل والداه في هدوء، بعد الكثير من المشاكل المتراكمة على مدار الأعوام السابقة، بعد الاتفاق على أن يمكث هو مع والدته، وتتولي رعايته مع السماح لوالده بزيارته متي شاء.
ورغم أن أمه حاولت أن تشرح له كثيراً ضرورة ما حدث، إلا أنه لم يكن مُتقبلاً لذلك الانفصال، وأن يصبح بين عشية وضحاها ابناً لأبوين مطلقين.

وفي محاولة للقفز على ما حدث، اصطحبته والدته لقضاء بعض الأيام في قرية مراقيا، حيث كان والدها يمتلك شاليه هناك.
مساء الأمس، وصل من القاهرة. وحين خرج في الصباح إلى الشاطئ لممارسة السباحة، والاستمتاع بذلك الطقس الجيد على الرغم من كوننا في أواخر أكتوبر، رأى مريم للمرة الأولي، فتاة ممشوقة القد ترتدي ثوباً أبيض من الكتان يعلو ركبتيها قليلاً.

في الأيام التالية، لمحته مريم عدة مرات يجلس وحيداً أو بصحبة والدته على الشاطئ. و في ظهيرة إحدى الأيام صادفته يلهو بطائرته الورقية، يدوية الصنع والتي كانت تحلق عالياً جداً في السماء. وبدا من اِنغماس أدهم في توجيه الطائرة والابتسامة المرتسمة على وجهه، كأنه هو الذي يحلق في السماء وليست الطائرة.

أحضرت مريم طائرتها الورقية، والتي اشتراها لها والدها في اليوم السابق من إحدى محلات لعب الأطفال. ركضت مريم بسرعة في كل الاتجاهات، وحاولت كثيراً لكن الطائرة لم تقلع وكانت في كل مرة تسقط على الرمال.

ورغم أن أدهم كان يتظاهر بعدم النظر إليها، إلا أنها أدركت بحسها الأنثوي الطفولي، أنه يختلس النظر إليها مبتسماً.
لم تستسلم مريم، وحاولت مرة أخري لكن في تلك المحاولة سقطت الطائرة في الماء، سحبتها مريم إلى الشاطئ، ولكن للأسف امتلأت تلك المرة بالرمال، وأصبح من الصعب عليها أن تعاود تكرار المحاولة.
جلست مريم على الشاطئ، وهي تشعر بالهزيمة أمام ذلك الصبي البدين الذي تحلق طائرته عالياً في السماء.

قاطع كل تلك الأفكار، وإحساس الخيبة الطفولي، صوت أتي من خلفها:
- هل تريدين تجربة طائرتي؟
نظرت إليه الفتاة بغضب، وقالت:
- لا .. لقد كنت تسخر مني منذ قليل.

أدار أدهم ظهره، وسار عدة خطوات، لكنه عاد فجأة ووضع مقود الطائرة في يديها، وبدأ في الشرح متقمصاً دور خبير الطائرات الورقية، في أنه ينبغي إدارة الظهر للرياح. ثم ساعدها في إفلات الخيط تدريجياً، وهكذا ارتفعت الطائرة الورقية سريعاً جداً في السماء.

تلألأت عيني مريم، وأطلقت الكثير من صيحات الفرح والابتهاج لأنها نجحت أخيراً في جعل الطائرة تُحلق عالياً.
كان ذلك المزاج الطفولي الرائق معديا جداً، وسرعان ما امتزجت ضحكاتهما مع هدير أمواج المتوسط.
قاطع ضحكاتهما صوت والدها يدعوها لتناول الغذاء.
- اسمي مريم.
- أدهم.

*****

مساحة شاسعة من اللون الأزرق الممتد بين السماء والأرض، تحيط بها في ترحاب وتدعوها للسباحة نحو الداخل.
لم تنتظر مريم ظهور «أدهم» وتوغلت نحو الداخل، وهي تستشعر ملمس المياه البارد على بشرتها.
ضربت الماء بذراعيها وساقيها في سرعة، ودون أن تُدرك، جذبها سحر المياه سريعاً نحو الجزء العميق من المتوسط.

وعندما بدأت تدرك ما حولها، كانت قد ابتعدت كثيراً. لم يكن أدهم قد خرج بعد إلى الشاطئ، فقررت أن تسبح عائدة إلي الشاطئ حتى لا يذهب للبحث عنها. لكن ألم مفاجئ هاجم عضلات ذراعها اليمني، لم يُهاجمها تقلص عضلي كهذا

من قبل. لم تعرف ما يجدر بها فعله. شُل عقلها عن التفكير. وبينما بدأت بالمياه تغزو فمها في قوة وسرعة، اِستولى عليها الذعر، إحساس بغيض بالخوف غزا جسدها كله حتى الأطراف. شعرت أنها وحيدة، ضعيفة للغاية، وهشة!

ارتفع بداخلها صوتاً هامساً أنها النهاية، فلا سبيل للمقاومة وأنه يجب عليها الاستسلام.
ندمت على أنها لن تر أدهم ثانية، لن يلعبا سوياً بعد الآن، و لن توقظها قبلة أمها ثانية في الصباح. لن تر ابتسامتها، ولن تتذوق حلوي الكريم كراميل التي تصنعها لها مرة أخري. شعرت بالمياه الباردة، وكأنها أدركت خوفها، فعاودت الهجوم لتوخز بشرتها وتؤلمها. المياه المالحة شتتت تفكيرها أكثر، وعندما نظرت للسماء تخيلت أن كل شيء يلمع من حولها، وصوت أمواج البحر يثير الخدر في جسدها.

بطريقة يائسة، حاولت أن تلفظ ماء البحر المتوسط الذي ملأ فمها. مشلولة من الرعب وصعوبة التنفس، بدأت ترفع ذراعيها على أملٍ أن يلاحظ أحد أنها تغرق، ولكن لم يكن أحد متواجداً في ذلك التوقيت على الشاطئ.

استسلمت للوحش الأزرق الذي هجم على جسدها الضئيل من كل الاتجاهات، وشعرت كأن هناك أيادي تمتد من الأعماق لتمسك بساقيها وتشدها نحو الأسفل. حظت عيناها، وهي تتأمل ظل أدهم وهو يقف بعيداً على الشاطئ ملوحاً لها، لم تجد في نفسها القوة للصراخ لتناديه، أو حتى القدرة على رفع يدها لتشير له، وإنما كانت بقايا القوة المتواجدة بداخل جسدها، تكفي لجعلها تطفو. تذكرت تلك الحيلة التي علمها إياها والدها من قبل للنجاة لو وجدت نفسها في مياه عميقة، بأن تبدل بساقيها كأنها تركب دراجة، لكن لم تُجدِ تلك النصيحة نفعاً لأكثر من ثواني، فقد آتت موجة من الخلف لتضرب ظهرها بكل قوة، شعرت بجسدها يدور دورة كاملة تحت المياه.

هنا أدرك أدهم أن هناك خطب ما. قفز إلى البحر بكامل ملابسه، وبدأ في التجديف بكلًا ذراعيه بكل قوة مندفعاً داخل المياه، وهو لا يفكر إلا في شيء واحد «لا يمكن أن يترك مريم»، لا يمكن أن يدع القدر يسرق منه صديقته الجديدة بعدما وجدها.

احتاج لبضع ثواني ليصل للمكان الذي تخيل أن جسدها اختفي فيه، ولكن السطح المتموج الذي أحاط به لم يكن مرحباً

على الإطلاق، فشعر بصوت المياه من حوله وكأنها تسخر من محاولته الطفولية هذه، وهو يظن نفسه الفارس المنقذ.

تذكر أن مريم أخبرته مسبقاً أنها سباحة ماهرة، فتعاظم ذعره. هل كانت تبالغ في تقدير قدراتها، أم أنها سباحة ماهرة بالفعل، لكن القدر له رأي آخر؟
دار بعينيه في كل الاتجاهات، عله يعثر على إشارة تدل على مكانها، وهو يجاهد ليتجاهل رئتيه، اللتين بدأ يشعر بمئات الأشواك الحادة توخزهما، تكادان تنفجران ألماً، لكنه قرر ألا يتوقف قبل أن يصل لما اتخذه هدفاً.

لكنها لم تكن هناك. مساحة شاسعة من المياه تحيط به من كل جانب لتشعره بالغربة، لكن لا «مريم» هناك، ولا أحد على الإطلاق. أراد أن يصرخ للاستنجاد بأي شخص يمكن أن يكون متواجداً بالقرب، لكنه شعر أنه لو أضاع لحظة واحدة في الاستنجاد بأحد، فربما يخسرها إلى الأبد.
تلفت في كل الاتجاهات، مغالباً المياه التي تقاطرت من شعره وجفنيه، وعندما لاحظ بقعة من الماء ذات تموجات مختلفة، انطلق نحوها سريعاً دون تفكير.
كانت مريم مستسلمة للمياه التي سحبت جسدها للأسفل دون

مقاومة منها، فغطس تحت السطح الأزرق، وهو يمد يديه نحو الجسد الضئيل، متجاهلاً ذعر أنه كاد يفقدها والذي بدأ يتعاظم داخله. لماذا تأخر؟ لم يكن يجدر به الاستماع إلى والدته، والجلوس لتناول الإفطار قبل أن يخرج للحاق بمريم.

وفي اللحظة الأخيرة، شعرت مريم بشيء يقذفها للأعلى. تشبثت به، واستجمعت قواها، وبدأت في السباحة مرة أخري عائدة نحو الشاطئ.
لقد نجت.

بعد أن اقتربا قليلاً من الشاطئ، فتحت عينيها في إنهاك، هزت رأسها في تعب، بصقت الكثير من المياه من فمها، قبل أن تتمتم في وهن:
- ماذا حدث؟
كان أدهم متعباً للغاية، ولم يكن يمتلك طاقة للرد، فذراعيه يصرخان من الألم، لكنه شعر بها طفلة بين ذراعيه ومسؤوليته حمايتها وطمأنتها.
- حدث أنني نزلت إلى البحر بكامل ملابسي من أجلك.
حاول التظاهر بالمرح ليخفي الإنهاك الذي ينهش عضلاته، ويغطي على أنفاسه اللاهثة. رأى ابتسامة خافتة، تشق طريقها

بين ملامح وجهها الشاحبة وهي تجيبه:
- يُمكنني السباحة الآن، بالتأكيد أنت متعب للغاية.

شعر بها تُخلص جسدها في رفق من ذراعيه، فلم يقاوم كثيراً. فقد تخدلت ذراعيه بالفعل من كم المجهود الذي بذله، لكن هذا لم يمنعه من مراقبة ظهرها للتأكد من كونها قادرة على بلوغ الشاطئ بمفردها. كانت تسبح في بطء مبتعدة، بينما شعر هو بأمواج من المياه تأتي نحوه مقتربة. تهاوت ذراعيه بجانبه، وشعر بطنين يتردد في جنبات رأسه وقواه تتفكك وتتبخر.

تسارعت أنفاسه، تعاظم الذعر بداخله، وشعر بطعم المياه المالح يغزو فمه ولبضع ثوان، شُل عقله عن التفكير، لكنها كانت كافية لتأتي تلك الموجة من خلفه لتسحبه بين أحضانها، دون أن تترك له فرصة للإفلات. ألمته عيناه من المياه المالحة التي تدافعت محاولة غزو جسده من كل الفتحات الممكنة، لتترك مذاقاً كالحاً ومالحاً في فمه، شعر بها تخترق فتحتي أنفه كأنها نيران.
شعر بمياه البحر تُريد الانتقام منه لأنه منعها من الظفر بضحيتها، فقررت أن تأخذه هو. غزا ظلام مدلهم المشهد الدائر أمام عينيه في سرعة قبل أن يبقي وحيداً في مواجهة ذلك الوحش

الأزرق المندفع نحو جسده بكل قوة.

وصلت مريم إلى الشاطئ، نظرت خلفها فلم تجد أدهم. مذعورة جداً والدموع تملأ عينيها، نادته بكل قوتها المتبقية:
- أدهم! .. أدهم!

وكأن المتوسط اختار أن يستبدلهما، واختطفه هو بالأسفل. فكرت سريعاً، يجب أن تفعل شيئاً، مبللة من رأسها حتى أخمص قدميها، مرتعشة خوفاً، مزرقة الشفتين، هرعت لإحضار النجدة.
- اركضي بسرعة يا مريم.

أكتوبر ٢٠٠٧

كان عامها الجامعي الأخير بائساً جداً. ليس من الناحية الدراسية، فقد أنهته بتفوق ولكن من الناحية العاطفية والصحية، لقد أخطأت بخروجها مع أشخاص غير مناسبين ولم تستطع تكوين أي صداقات حقيقية منذ مجيئها إلى لندن للدراسة.

قرأت كتباً كثيرة، واهتمت بالواقع المحيط ولكن ساد عقلها نوع غريب من الفوضي. منذ مجيئها وبمرور الأشهر، اِنطوت على نفسها أكثر، كما بدأت تقلل لاشعورياً من الطعام، وهي حيلة دفاعية يلجأ إليها المكتئب لخلق حالة من التوازن بين فوضي وكثرة الأفكار في رأسها مع فراغ الجسد. ونتيجة للصراع الدائر بين العقل والجسد، انتهي بها الحال إلى أن تستيقظ فجأة في منتصف الليل، تشعر بسخونة في صدرها، سرعان ما امتدت إلى ذراعها الأيسر، ثم شعرت بحرارة شديدة تنتشر في نصف جسمها الأعلى.

حاولت أن تُسيطر على الموقف، وأن تهدأ من نفسها. وقفت عارية في الشرفة بلا فائدة، ولم تُفلح معها محاولات التنفس العميق وببطء.

- ربما سأصاب بنوبة قلبية، ماذا يجب علي أن أفعل الآن؟

قامت بالاتصال بالطوارئ، قبل أن تسقط مغشية عليها من

الضعف، وتدخل المستشفي لعدة أيام.

وصفت لها الطبيبة في تلك الفترة دواءً خفيفاً مضاداً للاكتئاب، ويقلل كذلك من حدة التوتر. أكدت لها الطبيبة أن تطور صناعة الدواء قد حقق نجاحاً كبيراً في هذا المجال، بحيث لم تعد تلك الأدوية تُسبب إدماناً، كما أنها ليس لها أعراض جانبية لو استخدمت على المدي الطويل.
طلبت منها أن تتناول هذا الدواء لمدة ستة أشهر، لأن المادة الفعالة تحتاج لمدة طويلة كي ينتظم عملها، ويظهر تأثيرها.

سألتها مريم:
- متي سأشفى تماماً؟
- لا أحد يستطيع الجزم تحديداً متي، ولكن حالتك النفسية قد تتحسن خلال ستة أشهر .. أجابتها الطبيبة بابتسامة.

بمرور الأيام بدأت حالتها في التحسن، ولكنها في قرارة نفسها كانت تُدرك أنها ليست بمنأي عن انتكاس حالتها مرة أخري.

قريباً ستمضي خمس عشر عاماً على تلك الحادثة، لكن مع ذلك لم تنسي أبداً ذلك الفتي الذي أنقذها من الموت، كان دوماً

حاضراً، في مكان ما في قلبها وعقلها.
لم تكن مريم أبداً من المؤمنين بالصدف، ولكن ما مرت به مع أدهم جعلها تكفر بكفرها بالصدف.
كانت تجد نفسها كثيراً وهي تتنزه في حرم الجامعة، تتمني لو أن وسائل التواصل الاجتماعي الموجودة حالياً، كانت متوافرة في تلك الفترة. لو أنهما كبرا سوياً، وأنهما لازالا على اتصال.
ثم يقطع هذا الشريط السينمائي، نظرات الاستغراب من زملائها الذين تصادفهم ينظرون إلى تلك المجنونة التي تحدث نفسها، رافعة أنفها في الهواء.

هل هكذا تنتهى الحكاية يا مريم؟، إنك تعلمين جيداً كيف كانت طموحاتى بك ومعك كبيرة جداً، كنت أواجه كل سوء العالم بك، بكلمة أحبك فقط، لكنك كنت قليلة شحيحة المغفرة، أين ومتى تعلمتى كل تلك القسوة؟ دعينا نفترق إذاً، ربما لن تبكى ولكنى أعلم أنى سأبكى رحيلك كثيراً. البكاء يأتى على مقاس الحزن.

صدقينى ما أزال أسمع صدى صوتك كل صباح، وأشعر بدفء يديك. ما أزال أسمع تلك النغمات التى يطلقها البيانو حين تلامسه أناملك. أتعرفين أنت الحلم الأكثر جنوناً، وأنا وأنت معاً كنا نحلم بالغد الآتى رغم خوفنا منه.

أعطيتنى من الحب ما تعجز الأمهات عن إعطائه. دخلت حياتى، فإختفت كل الفصول إلا فصل الربيع، حولت مساحة عمرى إلى جنة على الأرض، وأنغام راقصة، علمتنى ما لم أتعلمه فى حياتى، أنسيتنى حزن طفولتى، ووحدة شبابى، لست نادماً على أى لحظة عشناها سوياً، ولكن لتعلمى أن الحياة بدونك لا قيمة لها.

الفصل السادس
«صدمة»

استيقظ أدهم صباحاً مفزوعاً على رنين الهاتف.
كانت تامي مساعدته، تطمئن على حالته. إنها المرة المرة الأولي التي تتواجد في المكتب قبله.
نظر إلى الساعة.
- اللعنة! .. إنها تقترب من العاشرة صباحاً.
لم يستطع أدهم أن ينام جيداً في تلك الليلة، نهض من السرير يتصبب عرقاً بارداً، وأول ما شعر به هو ذلك الألم المتواصل في ذلك الجانب الأيسر من صدره، واعتقد أن الألم بدأ يزداد حدة.

خرج من سريره، وأحس أن ساقيه خائرتان. وضع ميزان الحرارة في فمه.
- ٣٧,٥ .. الحرارة طبيعية .. إذاً لماذا كل هذا العرق؟!

ونظراً لحالة الإجهاد التي يشعر بها لم يستطع أن يأخذ ماريو للجري كالمعتاد. سيكون نهاراً سيئاً للغاية.
بدأ يستجمع قوته للذهاب إلى العمل فقد كان مضطراً، لوجود اجتماع مهم ذلك اليوم، والعمل لا يعترف بتلك الظروف النفسية التي يمر بها. أخذ قرص من السيبرليكس من درج مكتبه وابتلعه مع جرعة ماء. كان يتناول تلك الأقراص بانتظام منذ أن بدأ يشعر أنه لم يعد على انسجام مع أي شيء في الحياة، ثم قرصين من البنادول وقرصاً من فيتامين سي. كان عليه أن يتوقف عن تناول كل تلك الأدوية، وكان يعرف ذلك جيداً ولكن ليس اليوم، إنه غير مهيئ لذلك بعد.

ورغم تأخره، ظل وقتا طويلاً تحت دش الماء الساخن مُستعيداً حديثه مع تلك الطبيبة ومشهد انتحار ذلك الفتي.
- من تلك المرأة؟ كيف علمت مُسبقاً أن هذا الفتي سيقدم على الانتحار؟ لماذا أتت لزيارتي في المكتب؟
تباً لها!

- كل شيء أصبح مقلقاً وغير مفهوم. هل يتوجب على إخبار أحد ما؟ الشرطة؟ بعد كل شيء كان هناك إنسان ميت، وهذا ليس أمراً سهلاً.

- نعم .. ولكن كان ذلك انتحاراً وليس حادثة قتل. يُمكن لمئات الأشخاص الحاضرين على رصيف القطار أن يشهدوا بذلك. مع ذلك كان لتلك المرأة جزء كبير من المسؤولية في تلك القصة. في كل الأحوال لم يكن من المفترض أن أحتفظ لنفسي بتلك المعلومات.

خرج من الحمام، وجفف جسمه في محاولة لاستجماع نشاطه. ربما من الأفضل أن يتوقف عن التفكير في ذلك الأمر كله. لم يكن لديه وقت لذلك، وسيكون عليه أن يتجنب مقابلة تلك الطبيبة إلى الأبد. وبهذه الطريقة يمكن لكل شيء أن يعود طبيعياً.

وصل أدهم متأخراً إلى مكتبه على غير العادة، ولذلك استطاع أن يقرأ سؤالاً في عيني مساعدته تامي. كانت تامي فتاة كندية من أصول هندية في نهاية العشرينات من عمرها، تتقن عملها جداً كمساعدة إدارية. حظيت بثقة أدهم منذ بداية عملهما سوياً، ولذلك لم يتردد مطلقاً في إسناد الكثير من المسؤوليات إليها، بالإضافة إلى تنظيم بعض أموره الشخصية.

- من فضلك تامي. هل تطبعين لي البريد الإلكتروني المهم فقط، وتطلبين لي كوبين من القهوة الأمريكية؟

أدارت تامي كرسيها الدوار، وألقت عليه نظرة عتاب.

- البريد ينتظرك على مكتبك منذ ساعة، أما القهوة فهل أنت متأكد من الكوبين؟

- نعم .. أُريدها ثقيلة وبلا حليب .. شكراً لك.

دخل إلى مكتبه، وقرر أن يُكرس عشرين دقيقة لتصفح كل الأوراق التي أعدتها تامي، ثم الإطلاع على بريده الإلكتروني. وبينما يُنهي فنجان القهوة الثاني، تلقي رسالة من مكتب المنظمة في جنوب السودان، يطلبون المساعدة في أمر ما. وبدأ يتهيأ للرد على تلك الرسالة ثم نهض فجأة.

- كلا .. من المستحيل التركيز.

لم يكن بوسعه أن يستكمل حياته، وكأن شيئاً لم يحدث. كان عليه أن يجد حلاً لذلك اللغز.

في أقل من ثانيتين، أغلق حاسبه المحمول، والتقط معطفه وخرج من المكتب.

- تامي .. هل يُمكن أن تطلبي لي سيارة أجرة وتلغي كل مواعيدي المجدولة لليوم؟

- ولكن من المفترض أن هناك اجتماع عام لمناقشة ميزانية المشروع للعام الجديد.
- حاولي أن ترتبي موعد آخر من فضلك. أعتقد أن العالم لن ينته، إذا تأخر الاجتماع ليوم واحد.

لحقت به تامي في الممر قائلة:

- تحتاج إلى الراحة يا دكتور. هذه ليست المرة الأولي التي أخبرك فيها هذا.

*****

- إلى مستشفي صني بروك .. طلب من السائق أن يتوجه إليها وهو يغلق باب السيارة.

توقفت السيارة أمام باب المستشفي، ودخل أدهم إلى المبني مهرولاً. أوقفته موظفة الاستقبال قائلة:

- سيدي! الزيارات لا تبدأ إلا في ..
- أريد مقابلة الدكتورة دلال سالم لأمر هام.

قامت موظفة الاستقبال ببعض البحث على شاشة الحاسب الجالسة خلفها، وقالت:

- لقد أنهت البروفيسور دلال للتو عملية أخذ عينة ورم من مريض، وتستعد لإجراء عملية أخري.

- أرجوكِ أخبريها فقط أن الدكتور أدهم هنا، ويُريد رؤيتها لأمر عاجل.
- سأحاول. وطلبت منه الانتظار في قاعة الاستقبال.

حضرت دلال بعد ذلك بربع ساعة. كانت ترتدي بذلة طبية زرقاء، وعلى رأسها غطاء تغطي به شعرها.

أدهم: بالله عليكِ .. هلا شرحتي لي ما..

دلال: أرجوك ليس الآن أنا فعلاً مشغولة.

أدهم: لن أتركك قبل أن أفهم. جعلتني أحضر عملية انتحار بشعة، ثم حضرتي إلى مكتبي دون أن تقولي لي شيئاً سوي «تأمل قصر الحياة» .

دلال: سنتحدث لاحقاً. هناك رجل في غرفة العمليات، ينتظر أن نستأصل له ورماً.

بذل أدهم جهداً كبيراً ليُحافظ على هدوءه. كان يشعر أنه يجب أن يحصل منها على تفسير، حتى لو أدي ذلك لاستخدام العنف معها.

- ولكن يمكنك أن تأتي معي إن أردت، وتسترجع ذكريات مهنتك القديمة .. اقترحت دلال وهي تتحرك في اتجاه غرفة العمليات.

أدهم: ماذا؟!
دلال: تعال وإحضر العملية. إنها مفيدة جداً.

تنهد أدهم، وشعر أن دلال تسيطر عليه بطريقة غريبة، ولكنه لم يستطع منع نفسه من اللحاق بها.
راعي أدهم حرفياً كل قواعد التعقيم. اغتسل بالماء والصابون، وفرك يديه وذراعيه برغوة مضاد البكتريا، قبل أن يضع الكمامة على فمه وأنفه.
- ماذا يوجد في برنامج اليوم؟ .. سألها أدهم متخذاً هيئة متجردة.
- المريض يعاني من سرطان بالأمعاء، لذلك سنقوم بإستئصال جزء من المستقيم عبر شق البطن .. أجابت دلال دافعة الباب بظهرها.

لم يبذل أدهم جهداً في البحث عن سبب منطقي ولحق بالطبيبة إلى غرفة العمليات، حيث كان في إنتظارها ممرضة وطبيبها المساعد.

ما أن دخل إلى الغرفة التي لا نوافذ لها، وذات إضاءة ساطعة، أدرك أدهم أن ما سيراه سيكون مزعجاً. إتخذ مكاناً في ركن

من الغرفة، وإلتزم الصمت، فتلك الروائح الطبية تحمل له الكثير من الذكريات السيئة.

- إنه سرطان سيئ، شرحت دلال لمساعدها .. رجل في الستين من العمر، مدخن شره والتشخيص جاء متأخراً، الغشاء المحيط مصاب أيضا، وهناك دلائل على إنتشار السرطان في أماكن أخري من جسمه.
قدمت إليها الممرضة المشرط، وأعطت دلال إشارة البدء في العمل.
- ممتاز .. سنبدأ الآن.

تابع أدهم تفاصيل ما يحدث على شاشة تلفاز مثبتة عمودياً أعلى رأس المريض.
- قطع عضلات البطن. تحرير الأمعاء من الغشاء البروتوني.

كلا تلك الطبيبة ليست مجنونة. إنها طبيبة بارعة. من النادر جداً أن تجد طبيبة في إختصاص الجراحة بتلك المهارة، تلك المرأة تستيقظ كل يوم لتنقذ حياة البشر.
ولكن ما الذي تريده مني بالضبط؟

في لحظة حاول طبيبها المساعد أن يخوض في حديث عن دوري الهوكي الكندي، ولكن دلال صعقته بنظرة مباشرة في عينيه، ولم يلفظ الرجل من بعدها.

- إدخال أنبوب لسحب السوائل من التجويف البطني.

في تلك اللحظة، شعر أدهم بصغر أهميته، وبدت له كل الاجتماعات، ورحلات العمل، وسعيه لتأمين مستقبله المادي في منتهي التفاهة، مقابل مهنته السامية التي تخلي عنها.

وبينما كانت العملية تُشرف على نهايتها. تسارع إيقاع نبض المريض فجأة.

- إنه تسارع في نبض القلب .. صرخ الطبيب المساعد.
- هذا يحدث .. قالت دلال بهدوء .. يصعب عليه تحمل ضغط القلب.

طلبت دلال من الممرضة أن تحقن المريض بالأتروبين.

شعر أدهم بمرارة تتصاعد في حلقه، وخرج من غرفة العمليات يهرع إلى الحمام ليتقيأ.

تذكر أدهم أنه لم يتناول شيئاً طوال الأربع وعشرين ساعة الماضية.

لحقت به دلال بعد إنتهاء الجراحة.

- هل سيعيش؟ .. سأل أدهم قلقاً، وهو يمسح جبينه.
- لمدة أطول فقط، مما لو لم نحاول فعل شيء. على الأقل يمكنه أن يأكل ويهضم بشكل شبه طبيعي .. لفترة على الأقل.

- جرت العملية بشكل جيد .. شرحت دلال لزوجة المريض.
- بالطبع سيكون هناك بعض المضاعفات بعد الجراحة ولكنني متفائلة جداً.
- شكراً دكتورة .. لقد أنقذتِ حياته.
- بذلنا أقصي ما في وسعنا.
- شكراً لك أيضاً .. قالت زوجة المريض، وهي تشد على يد أدهم. فقد اعتقدت أنه الجراح المساعد.

كان الطبيب السابق يشعر أنه قد شارك في العملية، لدرجة أنه لم يحاول تصحيح اعتقادها الخاطئ.

جلسا أدهم ودلال في مطعم المستشفي، وطلبا قهوة مع بعض الفطائر المحلاة.

أدهم: مازلت أشعر بمرارة في الحلق و ..

دلال: ممتاز .. أنا أستمع إليك.

أدهم: لا .. لا .. ليس هكذا. أنا هنا من أستمع إليك. لماذا أتيتي لمقابلتي؟ وكيف عرفتي أن ذلك الفتي جافير ينوي إلقاء نفسه أمام القطار؟

مدت دلال يدها، وأخذت فنجان القهوة، وأضافت إليه الحليب والسكر، ثم فركت وجهها وقالت:

- لا أدري إن كنت مهيأ لذلك أم لا؟!

أدهم: مهيأ لماذا؟

دلال: لسماع ما سأقوله لك.

أدهم: أوه .. أتوقع كل شيء، ولكن من فضلك هل يمكن أن تكوني واضحة ومباشرة؟

لم يرق لدلال طلبه هذا.

- يجب أن تكون صبوراً، وكف عن النظر إلى الساعة كل دقيقة.

أطلق أدهم تنهيدة وقال: حسناً .. لنأخذ وقتنا. قالها وهو يحل ربطة عنقه ويخلع سترته.

ابتلعت دلال لقمة من الفطيرة، ثم ارتشفت جرعة من القهوة، وقالت:

- أنت تعتبرني مجنونة .. أليس كذلك؟

- أعترف أنني أطرح على نفسي الكثير من الأسئلة. أجاب أدهم دون أن يبتسم.

دلال: هل سمعت من قبل عن ال PCU؟

أدهم: أعلم أنك مسؤولة عن تلك الوحدة في المستشفي هنا.

دلال: نعم إنها -وحدة الرعاية التلطيفية- palliative care unit. تختص بتحسين حياة المرضي، وتقليل معاناتهم، خصوصاً لهؤلاء الذين يقتربون من نهاية الحياة، أو بمعني أصح الذين فقد الطب الأمل في شفائهم.

أدهم: وأنتم تقدمون لهم المساعدة النفسية؟!

دلال: نعم معظم ما نقدمه يرتكز حول ذلك. إنه وضع يصعب تقبله، حين يدرك المريض أنه لم يعد أمامه سوي بضعة أيام للعيش.

كانت الساعة قد بلغت الثانية بعد الظهر، وكان المطعم ممتلئ بالأطباء الذين يتناولون وجبة الغداء. أخرج أدهم سيجارة، ولكن دلال أشارت له أنه ممنوع.

دلال: مهمتنا أن نُصاحبهم إلى الموت، واصلت دلال كلامها. وأن نحاول أن ندلهم على كيفية استخدام القليل من الوقت المتبقي للعيش والرحيل في سلام.
صمتت لبضع ثوان ثم استكملت:
- في سلام مع أنفسهم ومع الآخرين.

أدهم: عظيم! ولكن فيما يعنيني ..
قاطعته دلال بحدة:
- فيم يعنيك هذا؟ السؤال دوماً حول ذاتك الصغيرة. أدهم مصطفي مدير المشروعات بمنظمة الأمم المتحدة، والذي يتحصل على ألاف الدولارات كل شهر، كل حركة له مدفوعة الأجر، ألا يمكنك أن تنسي شخصك الصغير ولو للحظة؟

- هذه المرة طفح الكيل .. ضرب أدهم الطاولة بيده.
توقفت كل الأصوات في صالة المطعم، ورمقه الجميع بنظرة تحمل الكثير من اللوم والعتاب.
دلال: تمالك نفسك يا عزيزي، نحن في مستشفي.
أدهم: اسمعيني جيداً أيتها المخبولة. لم يخاطبني أحد بتلك اللهجة من قبل، ولكنك محظوظة لأنني أريد الكثير من الأجوبة، ومعرفة حقيقة ما يجري.

نهض فجأة من مقعده، ولكي يهدأ نفسه ذهب ليحضر زجاجة صغيرة من المياه المعدنية من طاولة المشروبات. فتح الزجاجة وشرب نصفها، ومرت دقيقة قبل أن يعود ليجلس إلى طاولته.

حدق في عيني دلال، ليفهمها أنه لم يتأثر بما قالته.
- أكملي حديثك .. طلب بلهجة أكثر هدوءاً، لكنها تحمل الكثير من الغضب والقلق.

كان التوتر واضحاً جداً بينهما. ورغم ذلك استأنفت الطبيبة حديثها من حيث توقفت:
- تلك الوحدة مخصصة للمرضي الذين يئس الطب من شفائهم. ولكن هناك أيضاً الكثير من الوفيات من غير الممكن التنبؤ بها مسبقاً.
أدهم: هل تقصدين الحوادث؟
دلال: نعم .. الميتات المفاجأة، الميتات العنيفة والأمراض التي لم يعرف الطب تشخيصها، أو التي تأخرنا كثيراً في تشخيصها.

أدرك أدهم أنهما يصلان إلى لحظة هامة في الحكاية. كان لا يزال يشعر بذلك الألم الذي يجثو على صدره.

- كما سبق أن شرحت لك، استأنفت دلال الحديث. من الأسهل أن يقترب الإنسان من الموت حين يكون قادراً على فهمه والتعامل مع أحداثه.

أدهم: ولكن هذا غير ممكن في حالات الموت غير المتوقعة!

دلال: بالتأكيد .. ولكن أحياناً يمكننا مساعدتهم في تلك الحالات.

أدهم: كيف ذلك؟

دلال: في الواقع هذه إحدى مهام المستبصرين.

أدهم: المستبصرون؟!

دلال: نعم يا صديقي. هناك أناس يُساعدون من يُقبلون على الموت للقيام بتلك القفزة إلى العالم الآخر.

هز أدهم رأسه قائلاً:

- مستبصرون! .. نحن نسبح في بحر من الهذيان والجنون. تُريدين القول أن البعض يعرف مسبقاً من سيموت؟

- ليس تحديداً، أكدت دلال .. موهبتهم في الحقيقة هي التمييز بين المقبلين على الموت والأحياء، بطريقة تسمح لهم بمساعدتهم في ترتيب حياتهم قبل الرحيل.

تنهد أدهم قليلاً وقال:

- أعتقد أن الحظ قد خالفك معي. ربما أكون غير ملتزم

دينياً، ولكنني مؤمن أن الموت من الغيبيات، وأن لكل إنسان ساعة محددة سيرحل فيها.

- أدرك يا أدهم أن الأمر يصعب تصديقه.

هز أدهم كتفه، وأدار رأسه نحو النافذة.

- يا ربي .. ماذا أفعل هنا؟

كانت حبيبات الثلج قد بدأت في التساقط، عابرة السماء الرمادية لتلامس النافذة الزجاجية لمطعم المستشفي.

أدهم: صححي لي إذا لم أفهمك بطريقة صحيحة. أنت تقصدين أنك واحدة من هؤلاء؟

دلال: أجل.

أدهم: ولهذا كنتي تعرفين أمر جافير؟

دلال: بالضبط.

- ما الذي أقحمت نفسي فيه؟ .. همس أدهم.

ما كان عليه أن يدخل في تلك اللعبة. ليس هناك أي منطق في الاستماع إلى تلك الطبيبة، ومع ذلك لم يستطع أن يمنع نفسه من السؤال:

- ولكنك لم تفعلي شيئاً من أجله؟

- ماذا تريد أن تقول؟

أدهم: كيف ومتى هيأته للقيام بقفزته نحو الموت؟ لم يكن الفتى يبدو هادئاً، أو متصالحاً مع الحياة في اللحظة التي قفز فيها أمام القطار.

- لا يمكننا النجاح في كل مرة .. أقرت دلال. كان جافير في غاية الاضطراب ليقوم بفعل شيء ما بنفسه. لسوء الحظ، لا تسير الأمور دوماً كما نتوقع.

أدهم: كان بوسعك منعه من الإقدام على الانتحار. كان عليكِ إخبار الشرطة، أو محاولة إثناءه عن الإقدام على ذلك.

قاطعته دلال:

- ما كان ذلك ليغير من الأمر شيء. ليس لأحد التأثير على ساعة الموت، ولا يمكننا تحديد القرار النهائي.

أدهم: هل تعتقدين حقاً أنني سأصدق كل هذا الهراء؟

دلال: هذه الأمور لا تحتاج إلى تصديق بل إلى إيمان.

أدهم: مرة أخري، أنت تهدرين وقتك فلست مؤمناً بتلك الخرافات. أعتقد حقاً أنك قد فقدت عقلك، وربما من واجبي أن أبلغ عنك الشرطة وإدارة المستشفي.

دلال: في هذه الحالة أنا مجنونة منذ أكثر من عشرين عاماً. ألم أنبئك بخصوص جافير؟

أدهم: هذا ليس دليلاً. هناك كم من الأسباب الأخري التي يمكن بها تفسير توقعك، وإقدامه على الانتحار.

دلال: حقاً! .. ماهي؟

أدهم: المخدرات، الانضمام لإحدى تلك الجماعات الغريبة، توجيه نفسي..

دلال: صدقني، أنا لا أُريد أن أشغل بالك بتلك الأمور الآن. أقول لك فقط ببساطة أن لدي المقدرة على الشعور بقرب موت بعض الأشخاص. أعلم أنهم سيموتون قبل حدوث أولي الدلائل المنذرة، وأجتهد كي أساعدهم وأعدهم لما ينتظرهم.

أدهم: حقاً! .. ومن أين تستمدين تلك المقدرة؟

دلال: هذا أمر معقد يا أدهم، ليس من السهل شرحه.

نهض فجأة، وارتدى سترته ومعطفه قائلاً:

- سمعت ما يكفي اليوم.
- وأنا أيضاً أعتقد ذلك .. أقرت دلال بوجه متسامح.

سلك أدهم طريقه نحو باب المستشفي، ولكن في لحظة اجتيازه للباب الأوتوماتيكي، توقف فجأة واستدار عائداً نحو دلال وهو يرفع إصبعه في وجهها:

- اعذريني لعودتي إلى شخصي الضعيف يا دكتورة، ولكن أنت تحاولين إيصال رسالة أنك هنا من أجلي؟
هل حانت ساعتي؟ هل هذه نهاية الرحلة؟!

بدت دلال مرتبكة وأعطت انطباع أنه يجب التوقف عن الحديث عند تلك النقطة، ولكن أدهم لم يقبل ذلك.
- ليس هذا ما قلته.
ولكن أدهم لم ينتبه لتلك الملاحظة، استشاط غضباً وتكلم بسرعة وحدة:
- هذا إذاً ما تفعلينه؟ .. ما أن يراودك حدسك، تهبطين فجأة على الناس لإخبارهم: انتبهوا هناك أولويات، لم يعد أمامكم سوي عدة أيام، أسرعوا بالقيام بأخر الترتيبات.

حاولت دلال تهدئته، وقالت:
- أنا لا أبوح بشيء للمقبلين على الموت. أنا أدرك ذلك فقط، وأحتفظ به لنفسي. أحاول مساعدتهم قدر المستطاع. هذا ما أفعله.
- حسنا، هل تُصدقين نفسك حقاً؟ .. اِذهبي واِنظري لنفسك في المرآة ..
هذه المرة غادر أدهم القاعة نهائياً.

القاهرة

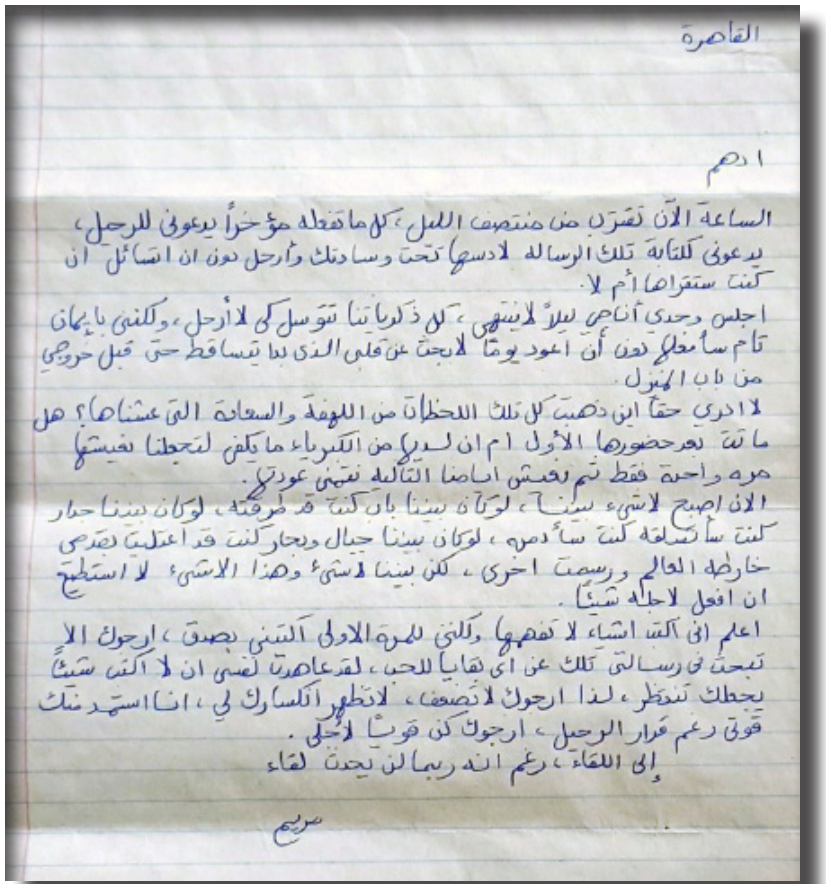

ادهم

الساعة الآن تقترب من منتصف الليل، كل ما فعلته مؤخراً يدعوني للرحيل، يدعوني للكتابة تلك الرسالة لادسها تحت وسادتك وارحل دون ان اتسائل ان كنت ستقراها أم لا.
اجلس وحدي أناجي ليلاً لاينتهي، كل ذكرياتنا تتوسل كي لا أرحل، ولكنني بايمان تام سأمضي دون أن أعود يوماً لابحث عن قلبي الذي بدا يتساقط حتى قبل خروجي من باب المنزل.
لا ادري حقاً اين ذهبت كل تلك اللحظات من اللهفة والسعادة التي عشناها؟ هل ماتت بعد حضورها الأول ام ان لدينا من الكبرياء ما يكفي لنجعلنا نعيشها مرة واحدة فقط ثم نعيش ايامنا التالية نتمنى عودتها.
الان اصبح لاشيء بيننا، لو كان بيننا باب كنت قد طرقته، لو كان بيننا جدار كنت سأتسلقه كنت سأهدمه، لو كان بيننا جبال وبحار كنت قد اعتليت تضاريس خارطة العالم ورسمت اخرى، لكن بيننا لاشيء وهذا اللاشيء لا استطيع ان افعل لاجله شيئاً.
اعلم ان الكثير اشياء لا تفهمها ولكني للمرة الاولى اكتبني بصدق، ارجوك الا تبحث في رسالتي تلك عن اي بقايا للحب، لقد عاهدت نفسي ان لا اكتب شيئاً يجعلك تنتظر، لذا ارجوك لا تضعف، لا تظهر انكسارك لي، انا استمد منك قوتي رغم قرار الرحيل، ارجوك كن قوياً لاجلي.
الى اللقاء، رغم انه ربما لن يحدث لقاء

مريم

الفصل السابع
«اِنهيار»

وقفت مريم تتأمل وجهها في المرآة، وتتفحص الإخفاقات المتراكمة عليها طوال الواحد والثلاثين عاماً المنصرمة. خيبة إثر خيبة، دون أن ينتابها أي أثر للخوف والنكد المعتادين في تلك الحالة، إنما بهدوء يكاد لا يُلحظ، كما لو أن البشرة الباردة التي تشدها بين إصبعيها لتستوضح تلك التجاعيد التي بدأت ترتسم على وجهها وكأنها لشخص أخر، لمريم أخري منشغلة بشغف جمالها. وقفت تنظر وهي تعبر بصعوبة من طور الفتاة اليانعة إلى المرأة الناضجة، امرأة تتعرف عليها بمشقة.

لقد وقفت أمام تلك المرآة لتقتل الوقت. جعلتها تلك الفكرة

تبتسم، وتكتشف أن الانتظار هو الذي يقتلها على نار هادئة، وبرفق مهاجماً تلك الروح التي تعلم جيداً أنها كانت محبوبة من الجميع.

الساعة الآن الخامسة .. ولابد أن أدهم لن يأتي قبل السابعة فطائرته ستهبط في السادسة والنصف. أمامها متسع كبير من الوقت، وقت لتستلقي على سريرها بعينين مغمضتين، ولا تشغل بالها بشيء، وقت للاسترخاء والراحة.

ولكن لماذا تُجهد عقلها كثيراً؟ وبماذا يجب أن تفكر حتى تُخفي عن أدهم ما يجول في خاطرها منذ عدة أيام؟

دخلت الحمام، وانحنت لتلمس الماء في البانيو. أعادت لها تلك الحركة، فجأة ما حدث قبل عامين حين كانت بصحبة أدهم يقضيان عطلتهما السنوية سوياً. ساورها إحساس حينها أن كل ذلك لا يمكن أن يدوم. تذكرت كيف كانا على مركب شراعي، والشراع يخفق في الريح كقلب متوجس. فجأة أحست بالسعادة تغمرها، وأنها راضية عن كل ما في حياتها، وكل الناس، مدركة بومضة خاطفة أن كل شيء على ما يرام. وكي تخفي وجهها، انحنت على حافة المركب، محاولة غمس أصابعها في المياه الهاربة. مال المركب الصغير على جنبه، فرمقها أدهم بواحدة من نظراته السحرية، التي ينفذ بها إلى

سريرتها، وعلى الفور كانت السخرية قد حلت في أعماقها محل السعادة.
من المؤكد أنها شعرت بالسعادة فيما بعد، مع أو بواسطة أدهم، لكنها لم تكن أبداً بتلك الطريقة الفريدة والمثالية.

لقد أوشك أدهم على المجيء، سوف تشرح له ضرورة أن يحاولا قضاء المزيد من الوقت سوياً، ستحاول أن تشرح له أنها ضاقت ذرعاً بتلك الوحدة.
وسيرد هو كعادته:
- أجل بالتأكيد، يجب أن نحاول.
- لا .. لن يكون بوسعها الشرح لأدهم أنها متعبة، وضاقت ذرعاً بطبيعة عمله التي تستدعي الكثير من رحلات السفر.
نعم .. سفره الذي لا يُمثل بالنسبة لها شيء سوي الوحدة.
لن يكون بوسعها أن تقول له أنها تشعر أحياناً كأنها واحدة من أولئك النساء المُتملِكات اللواتي يكرهن، لأنها تفكر بتلك الطريقة الاعتيادية للنساء.

وفيما هو يفتح الباب، جرت مريم باتجاهه، عانقته وكل ما سيطر على تفكيرها في تلك اللحظة، أن هذا هو قدرها، أنها تحبه مهما فعل.

- ما أجمل ما ترتدين .. هل اِفتقدتني؟
- أجل.
ماذا سيكون رد فعله لو أنها قالت «لا، أنت مخطئ»؟
لكنها لم تقل ذلك مطلقاً، ولم يكن ليفوته أن يسألها هذا السؤال دوماً، وأن يعتذر عن سفرياته الكثيرة.

أدهم: اِقتربي يا مريم، أين ترغبين أن نتناول العشاء؟
مريم: أنت متعب من السفر. دعنا نتناول العشاء في المنزل.
جلست بجواره وأمسك يدها ضاغطاً عليها، ومحاولاً الإجابة على السؤال الذي دوماً ما لاح في عينيها دون أن تنطق به، وقال:
- تعلمين أنني أعوم في بحر من تعقيدات العمل، والسعي لتأمين حياة أفضل لنا ولأولادنا القادمين. وددت فعلاً لو أننا نمتلك رفاهية أن نترك كل شيء خلفنا، ونذهب للعيش بعيداً على الشاطئ، في ذلك الكوخ الخشبي.

- كنت ستشتاق لليالك الطائشة، وكل النساء اللاتي ستتركهن وراؤك.
ابتسم للعبارة الأخيرة، تمطي ثم ترك نفسه يسقط إلى الوراء فوق الأريكة.

لم تلتفت نحوه، وأخذت تنظر إلى يده التي تركها فوق يدها، إنها يد ضخمة، ولكنها تعرف كل ما فيها، إنها تحفظها عن ظهر قلب.

أدهم: هيا، عليكِ الاستعداد بينما أنهي أنا حلاقة ذقني.
مريم: ماذا لو تركتني أفعلها لك هذه المرة؟
أدهم: الآن تبدين مثل أمي.
مريم: حسناً، أنت تعلم جيداً أنني أحب تلك الرأس الحليقة. وذقنك هذه، ألا يصيبك هذا الشعر بالحكة؟
أدهم: وهل أملك حرية الرفض؟
ابتسمت قائلة: لا مفر .. سأفعلها في كل الأحوال.
أدهم: لا تجازفي.
مريم: أرجوك لا تُثير أعصابي، إنها المرة الأولى، وأنا لا أُجيد استخدام الشفرات.

سحبته مريم من يده إلى الحمام. أحضرت شفرات الحلاقة والرغوة، وأجلسته على كرسي، وطلبت منه أن يُميل رأسه قليلاً إلى الخلف، ثم وضعت منشفة مبللة بالبخار على ذقنه ورأسه.

أدهم: ما هذا؟ هل حولتِ المنزل إلى صالون حلاقة في غيابي؟ من أين لك بكل تلك الاحترافية؟
مريم: لا أدري، هذا ما أراهم يفعلونه.
ابتسم أدهم لكنه بدا متعباً جداً. أرادت مريم أن تُفقده تلك النظرة المتيقظة والمتعبة. بدأت تدندن بأي شيء، لتطيل تلك اللحظة الذي بدا فيها أدهم مستسلماً لها في هدوء.

ثنت أكمامها وبدأت تضع رغوة الحلاقة على ذقنه ورأسه، ثم مررت الشفرة ببطء.
- هل هذه هي اللحظة المناسبة لأقول أني افتقدتك كثيراً!
أغمض عينيه، واستند إلى الوراء. تركت أصابعها تتحرك بخفة على بشرته. حاولت قدر الإمكان أن تكون حركاتها رشيقة، وبدأت تكشط بلطف بشرته بالشفرة. لم يكسر هذا الصمت سوي صوت رذاذ الماء حين كانت تغسل الشفرة أسفل صنبور الماء المتدفق.

تفحصت وجهه، التجاعيد التي امتدت نحو زاويتي فمه، بدت متعمقة قبل الأوان نسبة إلى عمره. رأت الظلال البنفسجية الفاتحة اللون، التي تحكي عن شدة التعب وقلة النوم.

انبعثت عذوبة دافئة من جلده، رائحة رغوة الحلاقة، وشيء كان مميزاً لأدهم نفسه. عملت ببطء وبحذر، فرحة بحقيقة أنه بدا في سلام جزئي.
قطع أدهم هذا الصمت مداعباً:
- لا تقولي لي أنك قد حلقت حواجبي.
- واحداً فقط .. لا تقلق.

*****

انطلقا بالسيارة صامتين. أحست مريم بالملل فمدت يدها إلى الراديو وأدارته.
مريم: كم مرة قمت بتلك الحركة؟
أدهم: أي حركة؟
مريم: تشغيل الراديو، وأنا معك في السيارة؟
أدهم: لا أستطيع أن أتذكر.
رمقها بنظرة تحمل الكثير من التساؤل. فرغم السنوات التي مرت، ويقينه من حبها له، فقد ظل حساساً على نحو مدهش لطباعها، ومترقباً دوماً لردود أفعالها، كما في المرات الأولى.

كظمت عبارتها «ألا تتذكر؟»، وقررت تجاهل حالتها العاطفية في هذا المساء.

- ألا يبدو لك جهلي بذلك أمراً مبتذلاً؟ .. قالها أدهم.
- لا أنا من يساورني إحساس أنني مبتذلة بعض الشيء أحياناً.
مد يده نحوها، فتناولتها بكلتا يديها. كان يقود السيارة بسرعة، والقاهرة تتلألأ تحت مطر شتوي. شرع يضحك وهو يقول:
- أتساءل لماذا أقود السيارة بسرعة كبيرة؟ .. أخشي أنه محاولة لاستباق الزمن.
لم تجب مريم. إذ بات يستبد بها خوف متزايد من دور المرأة الواثقة، الذي تركت نفسها تنزلق فيه، لفرط تفهمها وفرط حنانه. إنه حياتها، لكنه ينسي ذلك أحياناً، وهي تساعده على نسيانه ذلك بحياء جدير بالاحترام.

وصلا إلى المطعم، وجلسا على طاولة صغيرة نائية عن حلبة الرقص، وتأملا الوجوه الوافدة بصمت. كانت يده فوق يدها، كانت تشعر بطمأنينة غامرة، وألفة تامة معه في تلك اللحظة.
رقصا، ضمها إليه بشدة، عابراً بها حلبة الرقص بانسجام شديد وكانت في غاية السرور.
صارا يخطوان على إيقاع الموسيقي، كانت مريم تلتف بخفة حين يبعدها عن صدره، وهو لايزال ممسكاً بيدها، ثم تعود مرة أخري بأنفاس أكثر إثارة. تلاصق جسديهما أكثر.

في لحظة كانت تستند فيها بظهرها إلى صدره، واضعة يدها خلف رأسه، وتتحسس رأسه الحليقة، كانت يداه تُمسكان بخصرها برقة لا مثيل لها.
أنهيا العشاء وقفلا عائدين بالسيارة. أمام المنزل ترجل أدهم، واحتضنها وقال:
- يجب أن أذهب حبيبتي لرؤية بعض الأصدقاء.
عانقها برفق ومضي. لوحت بيدها و قالت:
- اِعتني بنفسك جيداً، ولا تتأخر فالجو بارد جداً.

بات أدهم حتى أثناء الفترات التي يقضيها في القاهرة يدعها تذهب للنوم وحيدة في أغلب الأحيان، كانت الشقة في غيابه تبدو موحشة وباردة.
جلست على طرف السرير تداعب كلبتها الصغيرة وترتب أغراضها بدقة مفرطة استعداداً لسفرها لقضاء العطلة الشتوية بصحبة عائلتها في محاولة لقتل الوقت والدموع تملأ عينيها. إنها وحيدة هذه الليلة أيضاً، حتى وهو متواجد بالقاهرة، يتركها لتقضي ليلها وحيدة.

بدت لها حياتها المقبلة كسلسلة من ليالي الوحدة الموحشة.
في السرير، مدت ذراعها غريزياً، كأنما يوجد جسد دافئ تلمسه.

أخذت نفساً عميقاً برفق، كأنما تحرص على نوم أحدهم، رجل أو طفل لا يهم، المهم هو شخص يحتاج لها ولدفئها في نومه ويقظته. بيد أنه لا أحد يحتاج إليها في الحقيقة.
ربما أدهم و لكن ليس بالشكل الذي تُريده، ولا بتلك العاطفة التي كانت بينهما، أخذت تجتر وحدتها بمرارة في صمت.

في الصباح اصطحبها أدهم لبيت والدها وحين عودته، ترك سيارته أمام المنزل وسار على قدميه لفترة طويلة من الزمن.
كان يتنفس بعمق ويوسع خطوته شيئاً فشيئاً.
كان يشعر بشيء غريب في ذلك الصباح. فيما يودع مريم أُحس بحزنها ولم يدر ماذا يقول. كانت تلتمس منه أمراً لم تُصرح به لكنه يعرفه جيداً. لم يكن باستطاعته أن يذهب معها في تلك الإجازة نظراً لارتباطه بالكثير من مواعيد العمل. قد يكون هذا هو السبب الذي أقنع به نفسه حينها.

رغب أدهم في المشي والتجوال في الشارع وحيداً. رغب في سماع وقع خطواته فوق الطريق وتأمل القاهرة صباحاً والتي يعرفها حق المعرفة.

عادت مريم إلى القاهرة بعد عدة أيام، وذهب أدهم لاصطحبها من بيت والدها. في الطريق بدا أدهم متوجساً وقلقاً من ردة فعلها حين تعلم بما حدث.

أدهم: هل استمتعتِ بإجازتك؟

مريم: نعم لقد كانت لطيفة .. كنت أتمني لو كنت معنا، ولكني أعلم بأنك مشغول.

لم يُبدِ أدهم أي اهتمام بما قالت، وقال:

- حدث شيء ما أثناء غيابك ولكننا يمكن أن نتجاوزه سوياً.

مريم: ماذا حدث؟ هل خنتني في تلك الأيام؟

تجاوز أدهم السؤال وقال:

- لا .. أنت موقنة أنني لا يمكنني فعل ذلك، أنا لم ولن أحب سواك .. للأسف فقد رحلت ماريا في اليوم الرابع من سفرك.

ساد الصمت بينهما ثم نطقت بنبرة يملأها الحزن:

- لن أستطيع العودة إلى البيت، سأمكث في بيت والدي لعدة أيام.

*****

لم يرغب أدهم ومريم في إنجاب طفل فور زواجهما، تركا الأمر كمشروع مستقبلي لحين استقرار حياتهما العائلية، وكانت

ماريا هي البديل في الوقت الحالي.

هذا المستقبل لم يعد موجوداً الآن، ربما لو كانا حظيا بذلك الطفل، كانت حياتهما ستسير بشكل مختلف.

هل تلك العادات التي قررا تجاهلها، كانت الأصح من تلك الأفكار الرومانسية عن ضرورة أن يستمتعا بحياتهما ويحققا الاستقرار أولاً؟!

حاولت مريم خلال الأيام التالية لواقعة رحيل ماريا، أن تتجاوز ما حدث لكن التفكير كان يدفعها إلى الجنون.

لا تستطيع أن تنام أو تأكل، حتى العمل، درع الحماية الأخير لها، لم تستطع التركيز أو الانشغال به.

كان كل ما يجول في خاطرها، هو أن ما حدث إشارة سماوية وأن موت ماريا هو آخر ما كان يربطها بأدهم. فهي لم تكن مجرد حيوان أليف وإنما في منزلة الطفل الذي لم يحظيا به.

- مريم .. ماذا بك؟ تبدين شاحبة؟ أنا أسف لخسارتك ولكن الموت مصير جميع الكائنات مهما اختلفت الأسباب.

أرادت أن تصرخ، لكنها حافظت على ابتسامتها المصطنعة، ماذا يُمكن أن تفعل غير ذلك؟

لم تجرؤ على البوح بما يجول في خاطرها عن ضرورة الانفصال،

أو أن تطلب النصيحة. كانت تشعر أن كل المحيطين بها مجرد سفن عابرة في الليل. فالعائلة لن تفهم، وصديقاتها مجرد معارف مكتسبة من العمل جعلت منهن الظروف صديقات.

أمضت ليلتها وحيدة في غرفتها القديمة، تفكر وتنظر إلى المستقبل المظلم، ضائعة بين حبها له، وإحساسها بضرورة الانفصال.
في الصباح عيناها كانتا مجوفتين، ووجهها شاحب جداً. الكثير من الضوضاء في الشارع. جارتهم في الشقة المجاورة تصرخ على أبنائها، وضعت مريم يديها على أذنيها. الحاجة للنوم والضغط العصبي الذي تشعر به في تلك اللحظة جعلها على حافة التفكير في الخروج للبلكون، وإلقاء نفسها في محاولة للتحرر من كل ما تشعر به. لكن حتى رفاهية الانتحار حُرمت منها. كان إيمانها دوماً يمنعها من الإقدام على تلك الخطوة.

في تلك الأيام التي التقي فيها أدهم بمريم، كان يعمل لصالح برنامج المعونة الإنمائي بالأمم المتحدة كمنسق لمشروع علاج مرض نقص المناعة المكتسب في بعض الدول الأفريقية، وخمس دقائق في الحديث عن شغفه بعمله، والتحديات التي يواجهه كل يوم كانت كافية لكسب إعجاب المرأة التي تجلس أمامه، فماذا عن المرأة التي أنقذها من الموت في طفولتها؟!.

في لقائهما الأول في مطار روما، كان من الصعب على مريم التنبؤ بطبيعة عمل أدهم، رغم مهنتها التي تفرض عليها كل يوم التعامل مع أطياف مختلفة من البشر، مما أكسبها مهارة رسم صورة «بروفايل للشخص» من مظهره وطريقة كلامه وتصرفاته.

كانت التناقضات التي يحملها أدهم معه أينما ذهب، تمثل سحراً خاصاً. في مطار روما بدا له متهوراً، وبثياب رثة، وغير مهتم بمظهره. ولكن في مطار أبوظبي، كان يرتدي بذلة رسمية وربطة عنق تبدو أنها كلفته أموال كثيرة. تصرفاته متهورة، لكنها مفعمة بالحيوية، طافحة بالأفكار والطاقة، هناك غالباً نوع من الدكتاتورية الملموسة للأمور المجردة التي تخالف توقعاتنا.

لم تمنعه طبيعة عمله من ممارسة هواياته، كان مغرماً بلعبة البازل أكثر من أي شيء آخر. لم يكن أي شيء باستطاعته أن يهدئ من توتره، غير قضاء بعض الساعات من أيام العطلات في تجميع آلاف القطع.
كانت مريم تستمع دوماً برؤية زوجها جالساً القرفصاء في غرفة المعيشة، وخلال المشهد الصامت كان ينهض فجأة، ويصيح «هيا، تعالي سنخرج».

هناك شيء آخر تجدر الإشارة إليه وهو أنه بعيداً عن عمله، لم يكن مولعاً بالترتيبات المسبقة، كان عاشقاً للفواصل، للانتقال المفاجئ من الصمت إلى الجنون.
كان الوقت معه يبدو وكأنه يمر بسرعة جنونية. كان بإمكانه القفز فوق الأيام، خلق أسابيع مكوكية. بالكاد كانت صدفة لقائهما، وها هما يحتفلان بمرور عامهما الثاني. انقضي عامان دون أية مشاكل تذكر، رغم سفرياته المتعددة، إلا أنه كان دوماً يجتهد لملئ الفراغ الذي يتركه ورائه. كان الجميع ينظر إليهما بإعجاب شديد، كأبطال رواية رومانسية.

في إحدى لقاءاتهما العابرة في دبي، أحضر أدهم لعبة البازل معه.

مريم: يا إلهي .. هل ستقوم بتجميعها هنا؟
أدهم: نعم .. وأريد مساعدتك.
مريم: هل سنهدر لقائنا في تركيب البازل؟
أدهم: نعم أرجوكِ.

كانت النظرة المستعطفة لها في عين أدهم تأثير السحر، مما جعلها تقبل رغم شعورها بالإحراج من الجالسين وعمال المطعم.

بدا هذا البازل مختلفاً عن هؤلاء الذين اعتادت رؤيتهم في محلات لعب الأطفال، لوحة ذات خلفية بيضاء تلتصق فوقهم مكعبات حمراء، مكعبات تبدو وكأنها سوف تكشف عن حروف في النهاية. إنها رسالة على شكل بازل.
انغمست مريم معه في تركيب البازل.

ها هو المشهد ينكشف تدريجياً ويظهر مغزاه. لم يبق غير بعض المكعبات القليلة، حتى يكون استطاعتها قراءة الرسالة. رسالة مبنية بشكل هندسي دقيق بواسطة مكعبات لعبة أطفال، نعم الآن استطاعتها قراءتها بوضوح:
- «would you marry me»- هل تقبلين الزواج بي؟

قطع عليها التفكير في تلك الذكريات، رنين لجرس الباب. كان الجميع قد غادر المنزل، فترددت كثيراً في القيام لفتح الباب. لكن إصرار الطارق، جعلها تستجمع قواها، وذهبت لتفتح وشعرت بصدمة عندما نظرت إلى أدهم.
كان شاحباً مثلها، والسواد يملأ أسفل عينيه.

- مريم .. كان صوته متردداً وقلقاً.
أغلقت الباب في وجهه.

- لا حديث بيننا.
- يجب أن نتحدث.

ليس هناك ما يقال، حتى لو أنه جاء ليعتذر عما حدث لماريا، فليس هناك طريق للعودة. كانت تصرخ من داخلها:
- المشكلة ليست في وفاة ماريا يا أدهم. المشكلة فيما تفعل، لم أعد أستطيع أن أقبل بك بنصف عقل، أو نصف تواجد. اكتفيت من طموحك الذي لا ينتهي، ولن أقبل أن تكون اليوم هنا وغداً هُناك.

فالحقيقة أن أعظم ما يهين المرأة، هو أن يتنازل عنها رجل مقابل شيء آخر، حتى ولو كانت تعلم يقيناً أنه يفعل ذلك من أجلها، كيف تفسر لقلبها وعقلها تلك الهزيمة؟!

دفع أدهم الباب.
- مريم .. قالها مع اِبتسامة توسل.

احتضنها بالقوة، فانهمرت الدموع من عينيها. وضعت رأسها على كتفه، وحاولت إيقاف الدموع.
مرر يده على رأسها قائلاً:
- أرجوكِ .. لا، لا تبكي هكذا. أنا أسف لكل شئ، لا تبكي.

حبست دموعها، ومسحت الدموع بيدها ودفعته بعيداً قائلة:
- لا فائدة من ذلك.
- ما حدث يمكن تجاوزه؟ أنا أحبك فعلاً، وموقن أنك أيضاً تحبينني. كيف لهذا الحدث أن يفرق بيننا؟!
- «صدقني كنت أود لو أستطيع إخبارك بأني أخوضُ صراعًا بيني وبين نفسي، مع ألف همٍ وألف حزنٍ ومئةِ ضعفٍ، لأقف أمامك بهذا الثبات رافضة حبكً.»

ابتلعتً مريم تلك الكلمات.

شعر أدهم أنه يجب أن يتركها لتهدأ قليلاً، فلا فائدة من المحاولة الآن، أو ربما كان يريد لهذا الانفصال أن يحدث. فربما وجب على بعض الأحلام، أن تبقي أحلاماً على أن تغدو كابوساً في أرض الواقع.

ذهبت مريم لتتوضأ، ارتدت ثياب الصلاة متجهة للقبلة. لأول مرة، تشعر أن الصلاة أكثر هيبة مما كانت تتوقع. رفعت يديها مكبرة، تلت الفاتحة بتمعن، سبع آيات، تلتهن حرفاً بحرف.
قرأت لإيلاف قريش، فقد كان والدها يقرأها لها حين تُخبره أن تشعر بالخوف. خائفة هي من دنياها بعده، من كل شيء دونه.

ركعة تبعتها سجدة، هي سرٌّ بينها و بين الله. رددت دعاء واحد كثيراً:

- ربي اجمعني به مرة أخري، حين نكون مهيأين لذلك ولا تجعلني أنهي حياتي بعيداً عنه.

بكت كثيراً حتى أنهت صلاتها، ألقت سلاماً عن اليمين وعن اليسار، رافعة يديها لله، مسهبة بالدموع ومرددة نفس الدعاء.

إننى أتسائل الآن عما كان بيننا، فى أى تصنيف للعلاقات يجب أن نضعه؟ فى خانة الحب، الصداقة، المعرفة، أم فى خانة الغرباء الذين التقوا صدفة ثم قرروا أن يقضوا الوقت الذى يسمح به القدر أو المكان، ثم يرحلون دون نية اللقاء مرة أخرى

ربما لن نلتقى مرة أخرى، أدرك عنادك جيداً وأدرك معه أن الأرض ليست دائرية وحنونة لهذا الحد، لكننى سأظل أحبك، أحببتك قبل أن نلتقى، هل تصدقين ذلك؟ لقد إفترت ملامح وجهك مسبقاً، رتبت علاقتنا، حتى ياقة قميصى بشفاهك المطبوعة عليها، أفرغت قلبى وذاكرتى لتفاصيل جديدة وسعيدة، كنت أعلم فى اللحظة التى رأيتك فيه بذلك الفستان الأسود وشعرك المجدول وخلخالك الفضى أنى سأقع فى حبك

أعتذر لك إن بدا لك شئ عكس أنى أحبك، الحياة يا مريم متعبة وتضطرنا أحياناً لإظهار غير الذى فينا دون أن نشعر

آسف على كل تلك التصرفات الغبية، على كل كلمتى العفوية التى أذتك، على كل الجروح التى وضعتها فى صدرك دون قصد منى، على كل تلك الأيام التى لم أعرفك فيها

آسف لأنى ضللت طريقى إليك بعدما وجدتك

آسف لأننى أضعت الأمان الذى وجدته حين أمسكت يدك

وأرجو أن تسامحنى لأننى لم أكن يوماً أهلاً لك

الفصل الثامن
«قلق»

كانت الساعة الرابعة عصراً، حين جلس أدهم في مكتب ميشيل ماركون، مديرته في المنظمة، محاولاً إقناعها بأن تمنحه أجازة لمدة أسبوع. كانت العلاقة التي تربطه بها معقدة جداً. في البداية كان يحظي بدعم كبير منها، ثم بمرور الأيام انتهى الأمر بتلك الأخيرة منزعجة من طموح الشاب، الذي كان كثيراً ما يتعدى كل نتائج وتوقعات المشاريع المسؤول عنها. أدرك أدهم من جهته سريعاً، أن ميشيل ليست من النوع الذي يخلط بين العمل والصداقة. وبالتالي كان يعلم علم اليقين أنه لو واجه مشكلة شخصية ذات يوم فإنها ستكون آخر شخص، يمكن أن يدق بابه.

تنهد أدهم، ولم يفلح في إخفاء القلق البادي على وجهه. كان حديثه مع دلال، وانتحار جافير قد هزاه جداً، ناهيك عن الألم الذي يعتصر صدره.

الحق يقال .. في تلك اللحظة، لم يعد موقناً ما هي حقيقة شعوره تجاه ما قالته دلال عن المستبصرين. ولكن أمراً واحداً بات مؤكداً، كان بحاجة إلى راحة، وأن يري طبيباً للتأكد من ذلك الألم المنتشر في صدره.

- لا مشكلة في ذلك .. قالت ميشيل، وهي ترفع عينيها نحو أدهم.

الشيء الوحيد الذي يُمكن أن أتحفظ عليه هو أن طلبك للإجازة لم يكن مجدولاً. وأنت تعلم جيداً أنه من ضمن لوائح المنظمة أن يكون طلب الإجازة قبلها بمدة كافية، لتمرير مسؤولياتك خلال فترة الإجازة لأحد زملاء العمل.

أدهم: سأحتفظ بهاتفي المحمول، وبريدي الإلكتروني سيكون متاح على مدار الساعة، لنبقي على اتصال دائم في حالة حدوث أي مشكلة.

ميشيل: حسناً .. إن كان هذا ما تريده. وعلى العموم أنت تعلم جيداً أنك لم تكن بحاجة لموافقتي على ذلك.

احتاج أدهم إلى سلسلة من المكالمات الهاتفية مع أصدقائه في الوسط الطبي، لكي يحصل على موعد سريع لفحص سريري شامل في صباح اليوم التالي.

لقد ترك حبه الأوحد يهرب منه، وها هو القدر يُعاقبه بالموت وحيداً، ومبكراً جداً. لا بد أنه أراد أن يشيخ قبل أن يموت، أن يشيب شعره رغم أنه اعتاد أن يكون حليق الرأس تماماً، أن يتكرمش جلده وترق عظامه.

سيحين قريباً الوقت للحساب. الآن لو أتيح له أن يصف نفسه، أن يصف الرجل الذي سيفقده العالم قريباً، لقال ما يلي:

- عمره خمسٍ وثلاثون عاماً، ووزنه خمس وتسعون كيلوجرام.

يفضل دوماً الملابس البسيطة، يكره الملابس الرسمية لأنه دوماً ما يكون مجبراً عليها بحكم وظيفته. يتلقى دروساً في اليوجا والتأمل في مركز مجتمعي بوسط المدينة. البنفسج هو زهوره المفضلة. يهوي مشاهدة أفلام الأبيض والأسود، لدرجة أنه كثيراً ما يضبط التلفاز على وضعية إزالة الألوان. ليس له مطرب أو فنان مفضل. يشرب منقوع الكركديه دوماً.

بشكل عام، يهوي الأشياء القديمة، الملابس، الأفلام،

الكتب، الهدايا التذكارية، ولوحات مريم. الأشياء القديمة تحمل المقاومة في جوهرها، كان يكتسب منها خبرة الحياة. الأشياء الجديدة بلا طعم ولا روح، إنها لا تحتوي على أي شيء من عزلتنا أو ذكرياتنا.

صباح يوم الفحص، استيقظ أدهم مبكراً جداً قبل أن يدق المنبه، كان يشعر بالقلق الشديد من النتائج، التي يمكن أن يسفر عنها ذلك الفحص الشامل. لم يكن يطيق المستشفيات في الحقيقة. كان يري أنه أمر ذو دلالة، أن الأماكن التي من المفترض أن تمنع الموت، تفتقر إلى الجمال والحياة.

ليخفف من حالة التوتر، وضع قرصاً مضاد للقلق تحت لسانه ليذوب. لم يبارحه الخوف، ولكن خفتت حدته.

خرج إلى المدينة التي كان الظلام لا يزال مخيماً عليها. فتش في علبة القفازات، فوجد أسطوانة قديمة لأغاني الشيخ إمام، أحد المغنين المفضلين لمريم. دس الأسطوانة في مسجل السيارة وبدأت أغنية «مصر ياما، يا بهيه».

كانت مريم مهووسة بكل المغنين المعارضين للأنظمة الحاكمة، ومعارضة لكل شيء: معارضة للكهنوت الديني والإيمان النقلي، لبؤس الأحياء الفقيرة المنتشرة في ربوع مصر، معارضة لختان الإناث، معارضة لعمل الأطفال.

حتى في اللحظة التي شعرت فيها بوجود بعض الصعاب التي تواجه علاقتهما، عارضت استمرار تلك العلاقة. كانت المرة الأولي التي لا يدعم أدهم فيها معارضتها، ورفض الطلاق الرسمي، وقررا أن يكتفيا بالانفصال.
كان يوقن دوماً أن فراقهما مؤقت، لم يجل بخاطره أنه يمكن أن يستأنف حياته مع امرأة أخري، فلا أحد بوسعه سد الفراغ الذي يمكن أن تتركه مريم.

وصل أدهم إلى المستشفي.
لم تكن الرائحة التي تتميز بها عادة المستشفيات منتشرة في المكان، وانما رائحة قهوة وورود. كان هناك على الجدران، صور بالأبيض والأسود لحيوانات في غابات أفريقيا.
قال أدهم:
- لدي فحص سريري شامل، أعلم أني حضرت مبكراً ولكن ربما ..
قاطعته الممرضة الجالسة خلف مكتب الاستقبال:
- ليس هناك مشكلة، يُمكنك الانتظار في الغرفة المقابلة.
بعد عدة دقائق، ظهرت الطبيبة. كانت امرأة شقراء طويلة القامة، عيناها صافيتان وشفتاها مصبوغتان بلون وردي. أوحي كل شيء في وجهها بالعطف والحنان. غمازتاها،

أنفها وتحدب جبينها العريض. كان كل جانب من كينونتها يوحي بالطيبة. تحدثت عن الفحص كروتين بسيط. وبفضل حضورها، يفقد أي شيء خطورته، فحتى لو أخبرته في نهاية الفحص أنه سيموت، فإن الحدث سيفتقد شحنته المأساوية.

أدخلته الطبيبة إلى حجرة باردة ومعتمة، غارقة في ضوء شاحب. على السرير كان هناك ورقة توضح مراحل الفحص الطبي التي سيخضع لها.
تخيل جسده راقداً على هذا السرير، والكثير من الأنابيب تدخل وتخرج من فمه وأنفه وأوردته، وموضوعاً على جهاز التنفس الاصطناعي والجهاز الكهربائي لرسم القلب. ومريم قرب هذا السرير ومزهرية ممتلئة بأزهار البنفسج موضوعة على الطاولة بجانبه.

اتبع الإرشادات المكتوبة: تجرد من ملابسه، ارتدى القميص الأخضر، غسل يده بغسول مطهر. قبل أن تأتي إحدى الممرضات لأخذ عينات الدم.
بدأت الحفلة بفحص جسدي شامل أجرته له تلك الطبيبة.
بعد أن تفحصته، بدأت في طرح مجموعة من الأسئلة المتعلقة بتاريخه المرضي والعائلي.

- كلا، ليس لدي مشاكل صحية سابقة باستثناء جراحة في الظهر، وجراحة أخري للناسور.
كلا، لا يوجد تاريخ وراثي لمرضي القلب أو داء السكري.
أجدادي؟ كانت ميتتهم طبيعية
لا، لا أشرب الكحول، أدخن الشيشة فقط يومياً.
نعم .. أتناول أحياناً سيبراليكس كغالبية البشر الذين لهم حياة متقلبة.
أرسلوه إلى غرفة أخصائي في حالات الإرهاق العام، حيث أجري مجموعة من الاختبارات المعقدة لقياس مدي قلقه على المستوي العملي والاجتماعي.

- نعم .. لقد عانيت من مجموعة من العلاقات الفاشلة، ومن منا لم يفعل!
كلا .. لم أُفصل من عملي.
نعم .. عانيت من رحيل أشخاص مقربين.
نعم .. لدي رهن عقاري كمعظم الكنديين.
نعم .. تغيرت أحوالي المادية، ولكن نحو الأفضل.
تغير في عادات نومي؟ .. جال بخاطره أنه لم يكن من حق الطبيب سؤال كهذا، ربما لأنه يعلم في قرارة نفسه أن تلك هي المشكلة ..أنا لا أذهب للنوم، أنا أستسلم له من التعب.

في نهاية هذا التقييم، أغدقت عليه الطبيبة بمجموعة من النصائح عديمة الجدوي لأنه يعلمها مسبقاً، والتي من المفترض أن تساعده في السيطرة على ما تم توصيفه طبياً «حالة من القلق النفسي» أدت إلى بعض الأعراض النفس جسمانية، والمتمثلة في ألم الصدر والتعرق.

انتقل لغرفة أخصائي الصدر والقلب ولحسن الحظ أنه كان مصرياً، ويبدو أن طبيبة أدهم الخاصة قد حادثته، بدا ودوداً وعطوفاً.
شرح له أدهم وجع صدره المستمر منذ عدة أيام. أصغي الطبيب باهتمام شديد، وطرح مجموعة من الأسئلة الإضافية حول ظروف الوجع، ومدي تمركزه وشدته.
قاس ضغط الدم، ثم أجري اختبار رسم القلب بالمجهود، ثم فحص للقلب بالموجات فوق الصوتية. من المفترض الآن أن يظهر شيء، لو كان هناك مشكلة حقيقية.
تكرر الفحص بأشكال مختلفة مع أخصائي الأنف والأذن، ثم الباطنة، وأخصائي الأمراض البولية والتناسلية.
- سوف نجري الآن فحصاً بالموجات الصوتية على الكبد والبنكرياس والطحال، لن يُعرضك هذا لأي خطر أو ضرر.
كان هناك حاجز زجاجي يفصل بين جهاز الأشعة وحواسب

التحاليل. شرحت الطبيبة طريقة عمل الجهاز.
لم يسمع أدهم في الحقيقة شيئاً مما قالت. رافقه ممرض ليساعده في الاستقرار على سرير الفحص، ثم حقنة بسائل الصبغة. وفي أثناء ذلك روت له الطبيبة من خلف الحاجز، قصة اختراع الجهاز لكي تجعله يتحرر من التوتر ويسترخي.
كانت الطبيبة في الحقيقة تنتمي إلى نوع من الأطباء في طريقه إلى الزوال: ذلك النوع الإنساني والمثقف.

بعد أن انتهي الفحص، اصطحبه الممرض إلى الغرفة المجاورة، حيث عرضت الطبيبة الصور الإشعاعية التي تم التقاطها.
- كل شيء يبدو طبيعياً يا سيد أدهم، سيتم إرسال كافة النتائج بالتفصيل إلى طبيبتك الخاصة.
- لكن، ماذا عن بقية الفحوصات؟ .. سألها أدهم باهتمام.
قالت بابتسامة:
- يمكن أن تتلقي النتائج بعد عشرة أيام.
- ماذا؟ كيف؟ لماذا عشرة أيام؟ .. أنا مريض والألم مستمر منذ عدة أيام، كما أنني على دراية بما يمكن أن تستغرقه نتائج كل تلك الفحوصات.
- اهدأ يا سيد أدهم .. كنت أمازحك فقط. يمكنك أن تحصل على تقييم أولي خلال أقل من ساعة، ثم سنرسل

التقارير كاملة إلى مكتب طبيبتك الخاصة. على كل حال، يمكنك الانتظار في غرفة الاستقبال، وسأطلب من الممرضة أن تحضر لك بعض الطعام.

ارتدى أدهم ملابسه، واصطحبته الطبيبة للخارج:
- يمكنك أن ترتاح قليلاً وسأعود خلال ساعة.
ارتمي أدهم على أريكة في جانب الغرفة، وكان أول ما راوده هو ابتسامة مريم. كان يراها دوماً قبساً من نور. اجتماعية وممتلئة بالحيوية والنشاط. يستغرقها عدة دقائق لمعرفة جوهر حياة عامل المقهى، بداية من القرية التي ولد فيها وصولاً لاسم أولاده. كانت بطبيعتها شخصية إيجابية تثق بالآخرين.

أما هو فكان على النقيض، الانطباع الأول عنه دوماً إما الغرور أو الكبر. في الحقيقة لم تكن تلك حقيقة يجب التسليم بها، فلم يكن أدهم في حقيقته يزدري البشر، وإنما يستغرقه الكثير من الوقت ليثق بهم.

ورغم الطبائع المتناقضة، إلا أن زواجهما استمر لأن كلاهما كان يجيد القيام بالتسويات.
بالطبع، كان أدهم يقضي الكثير من الوقت في العمل والتنقل

بين الدول الأفريقية حيث يعمل على مشروع علاج الإيدز، ولكن مريم كانت تتقبل ذلك في البداية وتتفهم حاجته لتحقيق طموحه الوظيفي.
في المقابل، لم يكن أدهم ينتقد أبداً الالتزامات النضالية لزوجته، حتى وإن كان في قرارة نفسه يعتبرها ساذجة جداً، ومن المثالية الزائدة.
كان أدهم موقناً، أن ما جمع بينهما أي كان توصيفه سيكون محمي إلى الأبد -خدعة الأبدية- ومع ذلك انتهى. كان لطبيعة عمل أدهم دور كبير في ذلك، كانت المشكلة الرئيسية في حياتهما الزوجية هي ضيق الوقت، وكان يدرك ذلك جيداً في أعماقه.

في بداية زواجهما قررا أن يتشاركا رعاية كلب صغير، كنوع من الاستعداد لتحمل المسؤولية قبل الحصول على طفلهما الأول. وبالفعل حصلا على أنثى في عمر الخمسين يوماً من فصيلة Cavalier King Charles Spaniel –فارس الملك شارل. والتي تتميز شخصيتها باللطف والهدوء مع سهولة تدريبها. أطلقا عليها اسم ماريا.
تذكر أدهم ذلك الصباح بينما كانا يتناولا طعام الإفطار، حين قالت مريم:

- الشقة في الدور الأرضي قد فرغت من قاطنيها، ومالكها يعرضها للإيجار، ماذا لو انتقلنا إليها؟ إن بها حديقة صغيرة.
- يمكننا الحصول عليها، لو لن تكن أغلي كثيراً من الإيجار الشهري الذي ندفعه حالياً.

بالطبع لم تكن الشقة ذات الحديقة الصغيرة هي كل ما تريد مريم، لكنها بخُبث الأطفال وضعت الخطوة الأولي التي ستهيأهما للحصول على كلب.
تناقشا كثيراً حول الأمر، وفي النهاية اتفقا على اقتناء كلب من الأحجام الصغيرة.

في الليلة التي سبقت ذهابهما لشرائه، لم يغمض لها جفن من كثرة حماسها للفكرة. في السابعة صباحاً من يوم الجمعة أيقظته بعد أن أعدت الإفطار، وارتديا ملابسهما وانطلقا للمرور على متاجر الكلاب التي بدأت في الانتشار مؤخراً في القاهرة.
أخذت تردد وهي تنظر بين قضبان الأقفاص:

- كيف لنا أن نعرف من سيكون كلبنا؟

كانت تقف أمام كل قفص في سكون، مستغرقة في التفكير. وفي أثناء ذلك كانت الكلاب تتراجع للوراء وتنبح، وتقفز في محاولة لنزع السلاسل.
ونظراً إلى الاهتمام والحيرة المرسومين على وجهها، كان

مسئولي المتاجر يحاولون عرض بعض الكلاب التي تصلح لصحبة النساء، في محاولة لتشجيعها على اتخاذ القرار، ولكن مريم كانت تكتفي بالهمهمة، وتستكمل المسير دون الاستماع إليهم أو إبداء أي ردة فعل.

إلى أن قابلا ماريا في إحدى مزارع الكلاب التي رشحها أحد الأصدقاء، وبدلاً من أن تهرع بعيداً مع كل الكلاب الأخري، مكثت في مكانها من دون حتى أن ترفع رأسها.
قالت مريم وهي تشير إليها بإصبعها:
- هذا .. أريد هذا.

إلى أن حدث في مساء اليوم التالي لسفر مريم برفقة عائلتها، تلك الحادثة لماريا. وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير في علاقتهما. نعم كان يوجد بعض المشاكل بينهما قبل تلك الحادثة، ولكن وفاة ماريا أحدثت شرخاً في علاقتهم، نظراً لاِرتباط مريم الشديد بها.

قبل سفرها عانقته سريعاً، بعد أن قالت «لقد أعددت لها كل شيء، لا تنسي أن تأخذها للمشي لبعض الوقت يومياً، ولا تنسي أن تغلق باب الحديقة الأمامي».

وجد أدهم نفسه فجأة وحيداً بصحبة ماريا. كانت كلبة هادئة لكنها تحب الاهتمام الشديد الذي اعتادته من مريم.

بعد وفاة ماريا، اخترعت مريم لنفسها وهماً من الشعور بالذنب لأنها لم تأخذها معها، وإلقاء اللوم على أدهم لأنه لم يستطع الاهتمام بها لعدة أيام، وبدأت كل المشاكل المتراكمة بينهما في الصعود إلى السطح، إلى أن اتخذت مريم قرار الانفصال.

لماذا تفجرت حياتهما الزوجية بعد تلك الحادثة؟
كان غير قادر على الإجابة بوضوح عن ذلك السؤال الذي لم يكف عن طرحه على نفسه يوماً بعد يوم. غير قادر على تفسير الحاجة الملحة للانفصال، والتي استبدت بمريم وجعلته يوافق على ما تُريد.

بعد حوالي الساعة أتت الطبيبة حاملة معها التقرير الطبي، تصفحه أدهم سريعاً، ورفع رأسه نحوها.
- ماذا بعد؟
- ليس هناك أي شيء مقلق، كل فحوصاتك تبدو طبيعية.

حينما يخشي المرء شيئاً سيئاً، يكون الإعلان عن خبر سار

ببساطة وهدوء مخيباً للآمال. لابد وأن أدهم أراد أن تكون هناك صيحات وحلويات وعناق، أن يحتفل معه موظفو المستشفي بالحدث بما يليق بأهميته.

- أنت .. أنت متأكدة؟ ولكن صدري ..

قاطعته الطبيبة:

- أعلم أنك تركت العمل في المجال الطبي، ولكن على الأقل تتفهم تلك الأرقام، الضغط طبيعي ونسبة الكوليسترول، والدهون الثلاثية غير مقلقة.

أدهم: ماذا عن الألم؟

الطبيبة: ليس بالأمر الخطير، غالباً سيرجح أخصائي القلب في أسوء الأحوال، ذبحة صدرية كامنة بسبب الإرهاق الشديد.

أدهم: أليس هناك خطر للجلطة القلبية؟

الطبيبة: هذا مستبعد جداً. مع ذلك يمكن أن توصي لك طبيبتك بمجموعة من الأدوية من باب الحماية.

شعر أدهم حينها أنه قد تخفف من حمولة وزنها ثلاثة أطنان كانت تجثو على صدره، وفي نفس الوقت شعر بالخجل لأنه لم يكن أكثر شجاعة.

بعد زوال الخطر، شد كتفيه واستعاد هيئة الرجل الواثق من نفسه. لم تكن سعادته في النجاة من الموت، وإنما من هاجس

الموت الذي يلاحقه منذ ظهور دلال في حياته.

في طريق العودة، قرر مكافأة نفسه بوجبة عالية الدهون والسعرات الحرارية بالإضافة إلى لتر من شويبس اليوسفي، مشروبه الغازي المفضل. وعند عودته للبيت، وجد بعض بقايا البسبوسة التي تركها لمدة تزيد عن أسبوع، الآن يمكن أن يأكلها.

ذهب للاستحمام، وارتدى بيجامته المفضلة، والتي يشعر فيها بالراحة. جلس على كرسيه الهزاز، وأدار جهازه الموسيقي مقرراً الاستماع إلى إحدى الروائع المسرحية لفيروز.

الآن يشعر بالراحة، يجب أن يعترف أنه شعر بالخوف خلال الأيام الماضية. لكنه الآن لا يشعر بأي ألم. إذاً هو مجرد إرهاق. الضريبة التي يجب علينا دفعها للحياة المادية التي نعيشها، وهذا كل شيء.

الفصل التاسع
«زوجتي»

شعر أدهم بارتياح شديد بعد الكشف الطبي المتكامل الذي أجراه، كان ينبغي الاعتراف أنه شعر بخوف شديد من أن يكون على مشارف ذبحة صدرية، ولكنه الآن لم يعد يشعر بأي ألم. هو ذلك إذاً، مجرد إرهاق عام. الضريبة التي يدفعها البشر في سبيل تأمين حياتهم المادية والتفوق الوظيفي.

- يجب إطلاع دلال على ذلك لإثبات عدم صحة هواجسها.

اِستقل سيارته، وقصد مستشفي صني بروك الذي زاره بالأمس.

- الدكتورة موجودة بوحدة الرعاية .. دلته موظفة الاستقبال.

اِتجه أدهم إلى وحدة الرعاية، وهو مبني صغير من الغرانيت القرمزي، يضم حوالي خمسين سريراً للمرضي المصابين، وفي المرحلة النهائية من أمراض ميؤوس من شفائها، ومحاط بالكثير من الأشجار.

لم يكن بناء طبي بالمعني المعروف، فلم تكن هناك معدات طبية، ولا تلك الحركة السريعة التي تسود باقي أجزاء ذلك المستشفي الشهير.

سلك أدهم ممر طويل يقود إلى قاعة عامة واسعة ذات ستائر أرجوانية اللون، وكانت هناك شموع صغيرة موضوعة في كل مكان من القاعة، وفي الخلفية تبث موسيقي هادئة. كان المناخ العام في ذلك المبني مريح جداً ويدفع للاِطمئنان.

توقف أدهم متأملاً فتاة في العشرينات، جالسة على كرسي متحرك، جسدها نحيل جداً، ورأسها مائلاً إلى الخلف في وضعية ثابتة، وكانت إحدى الممرضات تعطيها ملاعق صغيرة من الحساء، وهي تشرح لها البرنامج الذي يعرض على التلفاز.

شعر فجأة بأن يداً انقضت على كتفه.

- أدهم! .. قالت دلال، دون أن تبدي أي ملامح للاستغراب من تلك الزيارة.

- إذاً لقد جئت لتزورنا في وحدة الموتى، كما يلقبونها هنا.

أدهم: هذا أمر مؤثر يا دكتورة. إنها المرة الأولى التي أتواجد فيها في مكان كهذا. هل المرضى يعلمون أنهم ..؟

دلال: سيموتون؟! .. بالطبع نعم. هنا لا نكذب عليهم، يجب أن يكون الصدق عنوان ساعاتهم الأخيرة. هيا يجب أن أقوم بجولة مرور على المرضى، يمكنك اصطحابي إن شئت.

بدأت دلال جولتها المسائية، وأدهم يسير خلفها. كانت بشوشة ومطمئنة، وفي كل مرة تتوقف لتتبادل الحديث مع أحد المرضى. لم يكون الحديث يدور عن المرض، وإنما أحاديث عامة. تسأل البعض عن أخبار العائلة والأصدقاء بالنسبة للذين يستقبلون الزيارات. مع الآخرين، كانت مستعدة أن تُعلق على الأحوال الجوية، نتائج الهوكي أو الأحداث الدولية.

كان جميع المرضى ينهون حديثهم معها بابتسامة .

كانت الجولة في بدايتها مقلقة جداً، ولكن مناخ المبنى بدا أقل كآبة مما اِعتقده، كأن جميع من في المبنى استطاعوا تجاهل الموت مؤقتاً، مع علمهم يقيناً أنه آت لا محالة بعد قليل.

قدمت له دلال بعض المتطوعين، الذين يخصصون جزءاً من وقتهم يومياً في مساعدة المرضى. لم يستطع الامتناع في تلك اللحظة عن التفكير في مريم. إنه يعرفها جيداً، كانت ستكون سعيدة بالمساعدة هنا، لقد كانت تمتلك مقدرة سحرية على التقرب وبث الأمل في نفوس الناس.

ربما تمنى هو أيضاً أن يمتلك تلك الموهبة، لكنه لم يحسن أبداً فعل ذلك.

أثناء جولته، شاهد رجلاً عجوزاً يرفض تناول الطعام، اقترب أدهم منه وجلس بجواره، وأخذ الطعام من الممرضة ووضعه بينهما.

- يمكنني المحاولة معه.

نظر لعينيه. كان البياض فيهما لا يري من شدة الاحمرار، لحيته بيضاء وناعمة، وشعره كثيف. لا تكاد تري من وجهه سوي مساحة صغيرة. أصابه التحديق فيهما بشيء من السكينة.

ابتسم أدهم قائلاً: لماذا ترفض الطعام سيدي؟

التفت إليه العجوز بعينيه الذابلتين قائلاً:

- أحاول ألا أبقى بين الحياة والموت. ولأني لا أستطيع العودة للحياة بسبب المرض، أريدُ أن أصل بسرعة للموت.

أدهم: هل تؤمن بشيء؟
العجوز: بزوجتي.
أدهم: زوجتك؟!
العجوز: أجل.
أدهم: لماذا؟
العجوز: الإيمان عندي هو الصدق، وزوجتي الوحيدة في هذا العالم التي كانت صادقة جداً، فقد قطعت وعداً حين تزوجتُها، أنها لن تتركني أبداً.

أدهم: وأين هي الآن؟
العجوز: ماتت منذُ عدة شهور.
أدهم: بما أنها ماتت فقد تركتك، فكيف تكون صادقة؟!
العجوز: حين اتخذت قراراً بأن تبقى معي ولا تتركني، فقد صدقت. صادقة لدرجة أنها اتخذت من الموت عذراً، لا يجعلها كاذبة. إن أقسى شعور من الممكن أن تشعر به هو أن تكون معلقاً بين الحياة والموت، بين السؤال والإجابة، بين الصدق والكذب.

أدهم: هل تريدُ أن تلتقي بها مرة أخري؟
العجوز: ليس مهماً، لستُ من المؤمنين بوجود حياة أخرى،

كل ما في الأمر، هو أنني أريدُ أن أجرب ما جربته هي، لأؤكد على صدقها. أنها في مكان لا يمكنها من أن تفي بوعدها لي.

دخلت دلال إلى الغرفة في تلك اللحظة ولاحظت اضطراب أدهم.
- هل تريد الخروج؟
تجاهل أدهم سؤالها، وظلت نظراته مشدودة إلى ذلك الوجه الهادئ على نحو مدهش، لشخص يدرك جيداً أنه يحتضر.
- لماذا يبدو هذا الرجل وكأنه غير خائف؟ وكيف له بهذا الإيمان الفريد بزوجته؟ .. سأل دلال بصوت منخفض.
رفعت دلال نظارتها الطبية، وفركت وجهها، وهي تحاول أن تجد إجابة مناسبة لسؤال كهذا.

- بيل هو أحد أقدم النزلاء. إنه هنا منذ حوالي تسعة أشهر، حين أعلمناه بحقيقة مرضه، تقبلها برضا تام. أنا شخصياً لا أدري من أين أتي بكل تلك السكينة، ليتقبل شيء كهذا، وها هو يستخدم الوقت المتبقي لتوديع الآخرين.
- كيف يمكن للمرء أن يتقبل الموت بتلك السكينة؟!
أبدي أدهم دهشته.

دلال: هناك مقولة تقول «ستكف عن الخوف، إذا توقفت عن الأمل» وهذا ما ينطبق هنا، يقل الخوف من الموت حين يتخلى المرء عن مشاريعه المستقبلية.
أدهم: كيف يمكن للمرء ألا يعود ينتظر شيئاً من الحياة؟

- لنقل أن بيل لم يعد ينتظر إلا شيئاً واحداً، وهو لقاء زوجته مرة أخري .. قالتها دلال بلهجة قدرية.
ولكن هذا لا يحدث دوماً، لا يذهب كل المحتضرين إلى الموت بتلك السكينة مثله، الكثير منهم يموتون غاضبين، ومتمردين تماماً على القدر.
أدهم: هؤلاء، أنا أستطيع تفهم موقفهم جداً.
تغيرت ملامح دلال فجأة.
- أرجوك توقف عن هذا الحديث. هؤلاء الناس بحاجة إلى الحب اللامشروط والحنان لا الشفقة. لا تنس أن غالبية المرضي هنا يدركون حقيقة أنهم مقدمون على الموت، وأن اليوم ربما يكون آخر يوم لهم.

- هل يجب أن أعتبر نفسي في عدادهم؟ .. سأل أدهم بلهجة ساخرة.
- من قال ذلك؟ .. ردت دلال بلهجة مقتضبة.

أدهم: أليس هذا أمراً محبطاً لطبيبة مثلك؟
دلال: تقصد عدم القدرة على شفاء هؤلاء المرضي؟
- هز أدهم رأسه بالإيجاب.
- كلا، أجابت دلال .. على العكس، هذا أمر محفز جداً لأنه صعب. عدم قدرتنا على شفائهم، لا يعني أن نتوقف عن الاهتمام بهم. يمكن لطرق الطب الكثيرة علاج الكثير من الأمراض، ولكن لا يمكنها علاج الروح. الأمر مع هؤلاء المرضي مختلف. نرافقهم في آخر لحظات حياتهم. قد يبدو الأمر تافهاً ولكنه شيء عظيم. والحق يقال، الأمر أسهل كثيراً أن تفتح جسد شخص على طاولة العمليات من أن تسير معه نحو الموت.

أدهم: كيف؟
دلال: إنه السهل الممتنع، يمكنك أن تقرأ لمريض، أن تساعده في تمشيط شعره، أن تساعده في ترتيب الغرفة، أن تصطحبه في نزهة. لكن أتدري غالباً، لا تفعل شيئاً. تبقي بجواره تشاركه ألمه وخوفه. أنت ببساطة مستعد معه، ومنصت له دوماً.
أدهم: مازلت لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن للمرء أن يمضي إلى الموت بتلك السكينة؟
- إنكار الموت ليس حلاً! يجد الناس أنفسهم يائسين من

الموت حين يواجهونه، والثقافة الجمعية جعلت من الموت أمراً محظوراً.
صمتت دلال، قبل أن تُضيف:
- مع ذلك، الموت أمر جيد.
تلفظت بتلك الكلمات، وكأنها تحاول أن تقنع نفسها.

كان أدهم ودلال قد وصلا إلى بهو وحدة الرعاية، وبدأ أدهم في تزرير معطفه استعداداً للرحيل، وقبل أن يغادر التفت لدلال قائلاً:
- لكن ماذا عن فتي المحطة؟ كيف أدركتي أنه مقبل على الانتحار؟ هل مررتِ أمامه وفجأة، تجلت لك رؤيا؟
لم تجب دلال.
تابع أدهم حديثه:
- كيف يحدث ذلك على أرض الواقع؟ هل أخذ رأسه يهتز وسط الحشود على أنغام موسيقي جنائزية؟
- أنت لازلت غير مصدق.
ارتسمت عليها ملامح الإحباط وهي تقول ذلك.
- هناك أحياناً نوع ما من هالة من الضوء يراها المستبصر وحده. ولكن ليس هذا هو الأمر الأهم.

أدهم: ما هو الأمر الأهم إذاً؟
دلال: هو ما يشعر به المستبصر في قرارة نفسه. فجأة يُدرك. يكون مقتنعاً بأن هذا الشخص لم يعد لديه سوي بضعة أيام ليعيشها.
أدهم: ليكن الأمر واضحاً، أنا غير مصدق لكل ذلك الهراء على الإطلاق.
دلال: عفواً!
أدهم: كل ما قلتيه، كل نظرياتك الفلسفية عن الحياة والموت والمستبصرين، لا أصدق كلمة واحدة منها.
لم تبدِ دلال انزعاجها مما قاله، وقالت: أنا أتفهم موقفك.

أدهم: وأنا أسف لأنني جئت لإخبارك أنني في صحة جيدة. يجب أن أُقر أني اِنخدعت بحديثنا السابق، لست مشرفاً على الموت طبقاً لنظرياتك.
دلال: يسعدني أن أعرف ذلك.
أدهم: هل تسخرين مني؟
دلال: لا، ولكن أعتقد أنك يجب أن تزور داني مارك.
أدهم: ومن يكون داني هذا؟
دلال: ستجد عنوانه في تلك الورقة، أرجوك فعلاً أن تقوم بزيارته. اعتبره معروفاً تقدمه لي وسأكون مدينة لك.

لم يستطع أدهم منع نفسه من فضول زيارة داني، وفي الساعة العاشرة ليلاً وصل أمام البناية التي يسكن بها داني في منطقة فيكتوريا بارك. لم يسبق له حرفياً أن تواجد في تلك المنطقة من قبل. هبت رياح باردة بين العمارات القديمة المنتصبة كالأشباح حول حديقة الملكة فيكتوريا.

بعدها بحوالي الخمس وأربعين دقيقة، وجد نفسه يقف أمام البناية التي يقطن بها داني، يرتجف منتظراً مجئ الشرطة، كما طلبوا منه عندما قام بالاتصال بالطوارئ على رقم ٩١١.
رأى أضواء سيارات الإسعاف آتية من بعيد، وسرعان ما لحقت بها سيارتي المطافئ والشرطة.

اندفع قافزاً من سيارة الشرطة الضابط اي جي، ورفيقه في نوبة الخدمة ماكس، كان حليق الرأس وذا ملامح حادة ويبدو من هيأته أنه من أصول أفروهندية.
أرشدهم أدهم إلى شقة داني، وعاد إلى الخارج، في انتظار إعادة سرد القصة.

أخبر أدهم الضابط اي جي بما حدث مع داني، ذلك الرجل البالغ من العمر ثمانية وخمسين عاماً، الذي قابله داخل البناية.

كان داني قد تحدث معه بالأساس عن الضغوط التي يتعرض لها بعد أن هجرته ابنته الوحيدة، لتتزوج من أحد مروجي المخدرات. وعن عمله الذي فُصل منه، لأنه تم القبض عليه وهو يقود سيارة الشركة في حالة سكر. وعن أقساط الرهن العقاري الذي يتشاركه مع زوجته. وعن رفض هيئة الصحة لطلبه في الانضمام إلى برنامج الأدوية المزمنة الشهري.

أعاد أدهم سرد الحوار الذي جري مع داني للضابط. لم يتذكر الكلمات إلا على نحو مشوش، وراح يقفز بين ما ظن أنه قاله، وبين ما أدرك أنه لابد قد قاله.

إذاً، كان داني يمسك بمسدسه حين دلف أدهم إلى داخل الشقة التي كان بابها مفتوحاً، وقد كانت دهشته لرؤية داني يجلس ممسكاً بذلك المسدس أكبر من دهشة داني شخصياً لظهوره المفاجئ في شقته القديمة.

لقد ظن داني أن الشرطة أرسلته ليتحدث معه، ولم يستطع أدهم أن يُخبره أن تلك الطبيبة في الحقيقة هي من أرسلته. أراده أدهم أن يظن أن هناك جمعاً من البشر يقف على باب الشقة، بينما يقف هو أمامه وداني يمسك بهذا السلاح الأسود

في يده، ملوحاً به في كل اتجاه وهو يتحدث. وأدهم يجاهد نفسه ألا يهرب أو أن ينبطح أرضاً، وبينما كان الذعر والفزع يتصاعدان داخله، حاول أن يهدأ من روعه وأن يقنعه بوضع ذلك المسدس جانباً.

تحدثا عن ابنته، وأنه يمكن محاولة إصلاح الأمور. فعل أدهم كل ما في وسعه ليظهر له بصيصاً من النور وسط ظلامه، واستطاع أن ينجح في جعله يضع مسدسه على طاولة المطبخ حتى يستطيع طلب الشرطة من أجل المساعدة، وهذا ما فعله داني.

لكن في اللحظة التي أغلق فيها أدهم هاتفه المحمول، حدث شيء ما. كانت كلماته، برغم براءتها -تلك الكلمات التي يُدرك الآن أنه ما كان يجب أن ينطق بها في تلك اللحظة- قد ضغطت زراً ما بداخل داني.

نظر داني إليه، وأدرك أدهم في تلك اللحظة أنه لم يكن يراه. كان وجهه قد تغير فجأة. ودقت في صدره كل أجراس الخطر، لكن قبل أن تتاح له فرصة قول أو فعل أي شيء، كان داني قد التقط المسدس مرة أخري، ورفعه إلى رأسه، وانطلقت الرصاصة.

كان السؤال الأول للضابط :

- أرجوك أن تفسر لي سبب تواجدك في تلك الشقة.

صمت أدهم فقد كان يعلم جيداً، أنه لم يكن من المفترض أن يتواجد هناك، وأن وجوده كان تعدياً على ممتلكات الغير. لكن ذلك لم يكن ما يقلقه في الحقيقة. لقد كانت دلال، ومعرفتها بإقدام السيد داني على الانتحار في تلك الساعة هو ما يشغل باله. نظر إليه الضابط مجدداً:

- هل يمكنك إخباري عن سبب تواجدك في تلك الساعة في شقة السيد داني؟

ظل أدهم صامتاً، وهو يحاول إيجاد كذبة مناسبة، ثم قال:

- إنه مجرد صديق، كنت في زيارة عادية للاطمئنان عليه.

أعطاه الضابط بطاقته، وطلب منه عدم مغادرة المدينة حتى تسمح له الشرطة بذلك، وانطلق أدهم عائداً إلى منزله.

مع إشراقة صباح اليوم التالي، أمسك أدهم ببطاقة الضابط.

- كنت أتصل لأسأل عن بعض التفاصيل بخصوص داني. أردت أن أعرف ترتيبات الجنازة..

حاول أدهم أن يخفي قلقه، كان داني قد خلف ثقباً هائلاً في حياته، وأسئلة لا تنتهي في رأسه.

لم يكن له أن يستريح، قبل أن يعرف كل ما حدث، وكل ما قيل بعد ذلك اليوم.
أراد الاتصال بأسرة داني، لكي يتمكن من إخبارهم جميعاً بالأشياء الجميلة التي قد قالها عنهم. كيف كان يحبهم كثيراً، وكيف أن إقدامه على الانتحار ليس له علاقة بهم. أراد أن ينظر في عيونهم، وأن يخبرهم أنه قد فعل كل ما في وسعه.
- من أجل تخفيف آلامهم، أم تخفيف إحساسه بالذنب؟
ربما رغب في الإثنين معاً.

الضابط: ليست هناك تفاصيل عن الجنازة يا سيد أدهم، ولن تكون هناك جنازة. لا أعلم من أين حصلت على تلك المعلومات.
أدهم: ماذا تقصد؟ ماذا يعني أنه لن تكون هناك جنازة؟
الضابط: السيد داني لم يمت، لم يمت بعد. وعلى أية حال، هو في المستشفى، سوف أعرف أين تحديداً. وسوف أتصل بهم لأخبرهم أنه يمكنك زيارته. لكنه في غيبوبة الآن، ولن يستطع الحديث.

تجمد أدهم على الطرف الثاني للخط، وانعقد لسانه.
- هل هناك شيء آخر يمكنني مساعدتك به؟

- رأيته وهو يطلق النار على نفسه. رفع المسدس إلى رأسه وضغط الزناد. رأيت رأسه تتطاير في كل مكان.
كيف نجا؟!
أي نوع من المعجزات أفسدت على دلال تنبئها بموته؟ إنني أراجع المشهد مراراً وتكراراً في رأسي.

كان أدهم قد قرأ كتباً عن الانتحار، وعن كيفية التعامل مع المقدمين على الانتحار. والكتب تقول: أنك إذا استطعت أن تتحدث إلى شخص مقدم على الانتحار، وتقنعه أن يفكر بعقلانية. إذا فكر حقاً في عواقب الانتحار، فيمكن، ربما، أن يتراجع عن قراره. إن ما يبحث عنه هو تصحيح سريع وجذري لإنهاء آلامه العاطفية، لا لإنهاء حياته. وهكذا فإن استطعت أن تساعده على رؤية حل آخر لتخفيف آلامه، فربما يمكنك مساعدته حينها.
قال أدهم في نفسه:
- أظنني أبليت حسناً، باعتبار أنني لا أملك أي خبرة سابقة. أظنني استطعت النفاذ إلى أعماقه. أظنه استجاب لي حقاً. للحظة، على أية حال. أقصد أنه وضع المسدس جانباً، وسمح لي أن أجري اتصالاً بالشرطة. لا أعرف ما الذي حدث فأعاده مرة أخرى لتأملاته الداخلية.

- إذاً لقد انخدعت تماماً يا دكتورة.

صاح أدهم في التليفون. كان منفعلاً جداً، بحيث شعر أن السماعة ترتجف في يده.

دلال: بخصوص ماذا؟

أدهم: لم يمت داني.

دلال: ماذا؟

أدهم: نعم .. لقد أطلق الرصاص على نفسه، لكنه نجا.

دلال: اسمع يا صديقي، أنا لا أفهم شيئاً مما تقوله.

تنهد أدهم عميقاً ليتمكن من السيطرة على انفعاله:

- إن داني في المستشفي .. شرح بطريقة أكثر هدوءاً .. لقد استطاع المسعفون الوصول إليه قبل أن يلفظ أنفاسه.

- جيد .. قالت الطبيبة بصوت مندهش.

أخذ أدهم يرتعد غضباً:

- إذاً، لم تتنبئي بوفاته، أليس كذلك؟ ألم تري هالة الموت فوق رأسه؟

- كلا .. قالت دلال مستسلمة لكلامه .. لا، لم أتنبأ بشيء

أدهم: اسمعي، أعتقد حقاً أن الوقت قد حان للتخلي عن كل نظرياتك الضبابية حول هراء المستبصرين. لقد كان الموت قريباً منه لكنه لم يأخذه.

دلال: أنت متوتر يا صديق. نجاته لا تُبرهن على أي شيء.

أدهم: على أي حال، لقد نجا. هذا كل ما أعرفه.

دلال: آمل أن تكون على صواب يا أدهم، آمل ذلك من كل قلبي.

في صباح اليوم التالي، استيقظ أدهم على رنين الهاتف. كان ضابط الشرطة اي جي.

- صباح الخير سيد أدهم، آسف على إزعاجك في هذا التوقيت من صباح الأحد، ولكنني أردت إخبارك أن السيد داني للأسف قد فارق الحياة، متأثراً بالجرح الذي خلفته طلقة الرصاص.

أغلق أدهم الهاتف، ونهض من السرير، وأخذ يتجول في أرجاء المنزل دون هدف.

- مات جافير، وها هو داني قد فارق الحياة. إذا فدلال فعلاً تمتلك تلك المقدرة على الشعور بقرب الموت، وهذا يعني أن رحلتي قد قاربت على الانتهاء.

لم يعد يشك الآن في ذلك. هي الآن تحضر من أجله. إنها حقيقة من الصعب الإقرار بها، ولكنه مرغم على قبولها.

كيف سيتصرف الآن وهو على موعد مع الموت؟ كيف سيواجه تلك الصدمة؟
كان يعيش في عالم تسوده المنافسة، عالم يترك مكاناً ضيقاً للحالمين. ولكثرة ما لعب دور الرجل الطموح، كاد ينسي أنه فاني، وأن هناك أشياء أخري غير الوظيفة والمادة تستحق السعي وراءها.
لقد سبق وتعرض للاقتراب من الموت، لكنه يبدو أنه لم يع الدرس جيداً. شعر أدهم بإحباط شديد. كلا، هو ليس قوياً كما يدعي، لا أحد كذلك في الحقيقة. كلها مجرد أقنعة نخفي وراءها هشاشتنا.

لو سألته: هل حقاً تؤمن بوجود حياة أخري وجنة ونار؟
سيجيبك على الفور: بكل تأكيد، فأنا مسلم.
لكنه في أعماقه كان يعلم أنه مجرد ترديد لما تربي عليه، لم يسمح لنفسه كثيراً بالتعمق في فكرة الإيمان، وحقيقة معتقده الديني الذي يتبعه.

نظر من حوله، لم تكن هناك ملامح تفاخرية في منزله وإنما تفنن في البساطة والحداثة. كان معظم ما فيه أبيض أو أرجواني، ألوان مريم المفضلة.

أحب هذا المكان. لقد رتب واختار كل قطعة فيه بنفسه بعد انتقاله إلى منزله الخاص. كان يشعر فيه بالأمان. محمياً بكل تلك الصور التي تجمعه بمريم، وبدت متحدية للأيام وشاهدة على أيام سعادتهما معاً.

ارتجف خوفاً، وشعر بنفحة قوية من الغضب تجتاحه.
- لماذا أنا؟! ولماذا بتلك الطريقة؟!
لم يكن يريد أن يموت سريعاً هكذا. مازال لديه العديد من الأمور التي ينبغي القيام بها، مازال لديه امرأة يحاول استعادتها.
- فعلت الكثير من الأشياء في حياتي، ولكني لم أفعل شيئاً استعداداً لتلك اللحظة.

- إذا كان هؤلاء المستبصرون موجودين حقاً، ألا ينبغي أيضاً أن يكون هناك نسق، أو ترابط منطقي للموت؟
بالطبع لا، لقد ماتت أمي دون سابقة إنذار نتيجة خطأ طبي وهناك الكثير من الأطفال الأبرياء يموتون كل لحظة. الموت لا يراعي تلك المشاعر النبيلة. يكتفي البشر بتجرع مرارة الفقد، محاولين إقناع أنفسهم أن الله يستدعي من يحبهم.

أخفض أدهم رأسه وفكر في أمه، وكيف أنها لم تنعم قط بتلك اللحظة التي تمنتها كثيراً، في أن تراه يوم زفافه بجوار المرأة التي اختارها. لم تعلم أن تلك الفتاة التي اِلتقاها ابنها منذ عشرين عاماً مصادفة، وأنقذها من الموت، قد غدت زوجته.

بالنسبة لأمه، لم تكن الحياة سهلة أبداً. في العشرينات من عمرها، التقت بوالد أدهم. كان يعمل مدرساً للتاريخ الفرعوني في جامعة القاهرة، وكانت هي في بداية دراستها للماجستير في العلوم السياسية بعد التحاقها للعمل بوزارة الخارجية.

كان والده متحدثاً بارعاً وذا اِبتسامة فاتنة. بعد بضعة أشهر من زواجهما وجدت نفسها حاملاً. وبعد عدة سنوات حدث الطلاق نظراً لتراكم المشاكل بينهما. بعد الطلاق، تدبرت سلمي أمور أدهم بمفردها. عملت باجتهاد، وتحملت الكثير من أجل ابنها الوحيد. ولأن زواجها من البداية كان ضد رغبة أسرتها، كانت تشعر بالخجل من طلب المساعدة منهم، ولذلك لم يكن لديها أحد تعتمد عليه.

حاولت دوماً توفير معيشة كريمة ومناسبة لأدهم، حتى ولو كان ذلك على حسابها. ورغم التعب الذي كانت تتحمله، لم يرها قط تأخذ ما يكفي للاعتناء بنفسها، أو لتستمتع ببعض المتع الصغيرة بعيداً عنه. لم تكن تخرج كثيراً مع أصدقائها، وكانت

دوماً ما تصفف شعرها في المنزل في محاولة لتوفير الأموال من أجله.

كان همها الوحيد هو تربيته بشكل صحيح، ورغم افتقارها للكثير من الوقت، بذلت أقصي ما في وسعها ليتابع مسيرته الدراسية ولتساعده بأفضل ما يمكن.

لم تكن تمتلك الكثير من المال، ولكنها امتلكت الحب. حب غير مشروط ودائم.

كانت تردد له دوماً أنها تشعر الآن بالرضا والاطمئنان، لأنها رزقت بصبي وليست بفتاة:

- سوف تتدبر أمورك بطريقة أسهل في ذلك العالم الذي لا يزال الرجال مسيطرون عليه.

كانت تردد ذلك على مسامعه دوماً.

خلال السنوات العشر الأولي من عمره، كانت أمه الشمس التي تنير حياته. الساحرة التي تداعب جبينه كل مساء، وتتلو عليه بعض آيات القرآن لتحفظه ولتطرد الكوابيس.

كانت قبل مغادرتها صباحاً إلى العمل، تترك له بعض الكلمات اللطيفة مع مصروفه اليومي بجوار كوب اللبن وإفطاره.

في بداية العشرينات وذات صباح، هاتفته إحدى زملائها في

العمل لتخبره بأن أمه قد تعرضت لكسر في الرجل، وأنها في طريقها إلى المستشفي.
وحين وصل إلى المستشفي، كانت أمه قد رحلت. لم تستأذن الموت، لم تفاوضه، لم يمنحهما الموت فرصة لتلويحة الوداع الأخيرة. انهزمت أمه أمام كل متاعب الحياة وانسحبت مجبرة بكل هدوء.

- أخرسني موتك المفاجئ يا أمي. لقد ذهبت إليه خفيفاً، كما لو أننا في مساء شتوي، تناولت معطفك من خلف الباب، فتحت مظلتك وذهبت، تاركة كل مصابيحنا مضاءة. قهوتك على الطاولة لم تبرد بعد، كما لو أنك ستعودين بعد قليل. غادرتي إلى الأبد وتركتني هكذا وحدي.

- ماذا سأفعل الآن؟!
لم تكن طبيعة أدهم تدعوه إلى انتظار حدوث الأمور.
أمام وضع استثنائي كهذا، كان عليه أن يتشبث بشيء ما، ولكن كان عليه أن يفعل ذلك بسرعة. الآن وقد تسارع عداد حياته العكسي.

اقترب من رف كانت عليه تلك الدمية، التي تركتها له مريم في المستشفي حين كان طفلاً، في محاولة منها لطمأنته وأن تظل دوماً إلى جواره. وضع يده عليها، وفكر من جديد في لحظة الغرق، وكيف عاد لأن طيفاً لوجه المرأة التي سيقابلها بعد عشرين عاماً، قد تراءي له.

عبر غرفة المعيشة، أمسك بالسلم الخشبي، وصعد وهو يكاد يجري إلى تلك الغرفة التي يحتفظ فيها بكل مقتنياته من سفرياته المتعددة. كان يمكن رؤية مجموعة من المشغولات اليدوية من أمريكا الجنوبية، تذكارات من أوربا، ملابس فلكلورية أفريقية.

للمرة الأولي يأخذه الحنين إليها. سحب أحد الصناديق التي أحضرها معه من القاهرة، وأخذ يقلب في مجموعة مقتنيات بين الكتب القديمة. الأعداد الأولي من مجلة علاء الدين، وبعض شرائط الكاسيت التي كانت شائعة الاستخدام في ذلك التوقيت.
كان هناك شريط أكثر قدماً، عجباً كيف لا يمكن أن أتذكره.
كان ألبوم أغاني فيلم «أيس كريم في جليم» لعمرو دياب.
فتح أدهم العلبة التي تحتوي الشريط، ووجد إهداءً ملصوقاً

فيها من الداخل:

إلى أدهم.

لقد كنت شجاعاً جداً، يا بطل.

لا تخش شيئاً واعتن بنفسك جيداً.

«بطل» .. لم يتذكر أن أحداً قد ناداه بذلك الوصف من قبل.
كان الإهداء مزيلاً بتوقيع بهت بفعل الزمن.

ذهب أدهم إلى كمبيوتره المحمول، وأخذ في البحث عن ذلك الألبوم. غريزياً اختار أغنية «أيس كريم في جليم».
دوت أولي نغمات الأغنية وطفح كل شيء دفعة واحدة على السطح. كان ذلك في فصل الخريف من عام ١٩٩٢، في غرفة المستشفي الأميري بالإسكندرية.

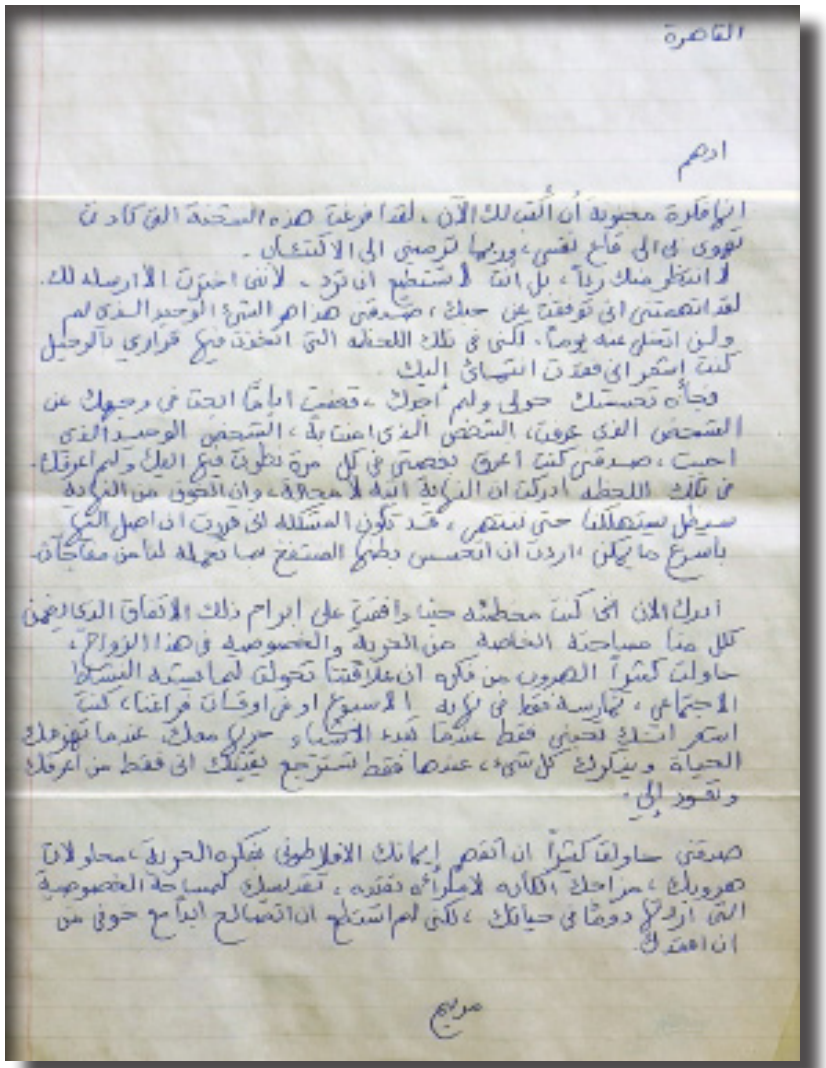

القاهرة

أدهم

أنا مضطرة مجبورة أن أقول لك الآن، لقد فرغت هذه المسحة التي كادت تؤدي بي إلى فالج نفسي، وربما ترمي بي إلى الاكتئاب.
لا أنتظر منك رداً، بل إنك لا تستطيع أن ترد، لأنني اخترت ألا أرسلها لك.
لقد اتهمتني أني توقفت عن حبك، صدقني هذا هو الشيء الوحيد الذي لم ولن أتوقف عنه يوماً. لكني في تلك اللحظة التي اتخذت فيها قراري بالرحيل كنت أستمر في فقدان اشتياقي إليك
فجأة تحسست حولي ولم أجدك، قضيت أياماً أبحث عن وجهك عن الشخص الذي عرفت، الشخص الذي آمنت به، الشخص الوحيد الذي أحببت، صدقني كنت أحترق بحصتي في كل مرة نطقت فيها الكلمة ولم أعرفك. في تلك اللحظة أدركت أن الرابطة بيننا لا محالة، وأن الخوف من الرابطة سيظل يستهلكنا حتى ننتهي، قد تكون المشكلة أني قررت أن أصل إلى الشيء بأسرع ما يمكن، أردت أن أتحسس بطريقة أسرع ما تحمله لنا من مفاجآت.

أدرك الآن أني كنت مخطئة حينما وافقت على إبرام ذلك الاتفاق الذي يضمن لكل منا مساحته الخاصة من الحرية والخصوصية في هذا الزواج، حاولت كثيراً الهروب من فكرة أن علاقتنا تحولت لما يشبه النشاط الاجتماعي، نمارسه فقط في نهاية الأسبوع أو في أوقات فراغنا، كنت أشعر أنك تحبني فقط عندما تريد الأشياء، وحين معك عندما تهزمك الحياة وتتركك كل شيء، عندها فقط تسترجع يقينك أني فقط من أحبك وتعود إلي.

صدقني حاولت كثيراً أن أتقمص إيمانك الأفلاطوني بفكرة الحرية، حاولت أن أهرب منك، من أحلامك، أكاد لا أعرف ذاتي. تفاصيل لمساحة الخصوصية التي أردتها دوماً في حياتك، لكني لم أستطع أن أتصالح أبداً مع خوفي من أن أفقدك.

مريم

الفصل العاشر
«رسالة»

أحياناً، عندما نمر بتجربة كاشفة لتفاهة وحقيقة الحياة، نجد أنفسنا راغبين في التوقف عن التظاهر، وفي الهروب من كل ما هو غير حقيقي، سواء كان شيئاً بسيطاً كالمجاملات الاجتماعية السخيفة، أو كان شيئ أكثر تعقيداً كالزواج.

فالإنسان حين يضبط نفسه متلبساً، وهو يحسد الناس على إنهاء زيجاتهم، فعليه في تلك اللحظة أن يتيقن أن ثمة مشكلة حقيقية في زواجه. هذا هو ما وجدت مريم نفسها فيه على مدار الأشهر القليلة الماضية، على نحو غير متوقع من علاقتها بأدهم.

نعم كانت علاقتها بأدهم تحمل الكثير من السعادة، وإحساس عام بالأمل. ومع أن الإيجابية في العلاقات يمكن أن تكون البذرة التي تطرح علاقة قوية، فإن التفكير الرغبوي - wishful thinking وحده لا يُشكل أساساً جيداً للزواج.
لكن حادثة رحيل ماريا، دفعتها إلى مراجعة علاقتها به، وإلى ضرورة أن تكف عن التظاهر أن علاقتهما على ما يُرام. جعلتها تريد أن تكون حقيقية، وأن تجعل كل ما في علاقتها بأدهم حقيقي وصادق، فربما يمكنهما تصحيح مسار تلك العلاقة قبل فوات الأوان.

حاولت مريم جاهدة أن تطمئن الجميع، وكل من رغبوا في المجئ لرؤيتها وتفقد أحوالها، وهذا ما كان يجبرها على العودة إلى الكلام، لكنها لم تكن تعرف بماذا يُمكن أن تُخبرهم.
كانت تتمني كثيراً أن تعود إلى نقطة الصفر، إلى ما قبل الصدفة التي جمعتها مرة أخري بأدهم بعد كل تلك السنوات.

بعد مرور شهر على الانفصال، قررت العودة إلى العمل، أغرقت نفسها في العمل بطريقة وجدها البعض مفرطة. وبدا الزمن، وكأنه يعاود دورانه. عاد كل شيء كما في السابق، روتين الاجتماعات، والوحدة في العطلات.

لا أحد يستمع لهؤلاء الذي يعبرون عن رغبتهم في البقاء بمفردهم، ولا أحد يصدقهم، فالرغبة في العزلة بالنسبة إليهم، هي بالتأكيد نوع من المشاكل النفسية.
منذ اليوم الأول لعودتها للعمل واجهت أمراً قاسياً: مفكرتها الشهرية الموضوعة على مكتبها، والتي جدولت فيها زيارات أدهم خارج مصر للست شهور القادمة. في عدد قليل من الأيام سيتغيب عنها، أما اليوم سيغيب إلى الأبد. أمسكت المفكرة وأخذت تقلب صفحاتها، وراحت الأيام تمر أمام ناظريها.
طوال الشهر الماضي كان كل يوم يمر وكأنه حمل ثقيل، بينما هنا في بضع ثوان، وهي تقلب الأيام، كان استطاعتها أن تلاحظ بشكل ملموس الطريق الذي قطعته. وفي تلك الصفحات كان أدهم لايزال موجوداً في حياتها. ها هو تاريخ الزيارة القادمة، ولكنه لن يعود منها.

حين عادت إلى شقتها، وقفت أمام مرآة خزانة الملابس تتفحص ملامحها جيداً. عيونها العسلية غرقت تحت جفونها. فمها لازال في مكانه، ولكنه شاحب لدرجة يجب أن تصبغه في كل مرة بأحمر الشفاه. أذناها الصغيرة، بدت بيضاء ومصابة بالأنيميا، يجب أن تحاول دوماً إخفائها تحت شعرها. ولكن شعرها أين ذهب، إنه أسوء ما في الأمر، ما أن تلمسه حتى

يبدأ في الصراخ والتساقط، أين ذهب شعرها البني الذي كان الجميع يحسدونها عليه؟!
قطع تلك الأفكار المتدفقة، وقوع عيناها على صندوق الرسائل الذي تحتفظ فيه برسائله القديمة، فقد كانا مفتونين بالرسائل الورقية، وبقدرتها على نقل المشاعر.

اعتادت مريم حمل آخر رسالة له في حقيبتها أينما ذهبت، وعند وصول الرسالة التالية، تستبدلها بها، وتضع الرسالة القديمة في صندوق بخزانتها مع كافة الرسائل السابقة. وكانت تحب إخراج الرسالة الجديدة من حقيبتها وقراءتها من حين لآخر، وهي جالسة في العمل، أو أثناء انتظارها في عيادة طبيب الأسنان. الآن لن تخرج الرسالة من حقيبتها مطلقًا، بل ستكره منظرها وهي مطبّقة وحوافها مثنية، تذكّرها بالأسابيع والشهور التي ستمر دون أن تأتيها رسالة ورقية جديدة من أدهم.
- يجب أن أخرج تلك الرسالة، الرسالة الأخيرة، وأن أضعها مع باقي الرسائل وأُقصي ذلك الصندوق بعيدًا عن ناظري.

حين فتحت الصندوق، وجدت إحدى الرسائل التي امتنعت عن إرسالها إلى أدهم، سحبتها وبدأت في قراءتها:

« أدرك الآن أنني عشت حياتي معك في محاولة لإثبات أنني أستحق ذلك الحب، وما رأيته أنت هزيمة ورأيته أنا انتصاراً لكلينا على الحياة حين قررنا أن نستكمل حياتنا سوياً.
لم أعلم كيف أثبت حبي لك، لطالما آمنت أن الحب شيء إلهي لا يحتاج إلى معجزة لإثبات وجوده. ورغم ما حدث، وتقصيرك في حق ما بيننا، أقسم أن قلبي لم يمل لرجل سواك. في تلك اللحظة التي قررت فيها أن أرحل، أدركت أنني أحبك بشكل عجيب وغريب.
أود لو أستطيع إخبارك الآن أني أحببتُك أكثر من نفسي، حتى أني كنت أشعر أنك أنا في جسد أخر. وأن في تلك الحظة التي قررت فيها الرحيل، كنت أعلم أنني سأفقد نفسي، ولن أستطع العثور عليها مرة أخرى.
أود لو تعلم أني حين كنت أقول لك أحبك، فأنا لا أحبك بالمعنى الاعتيادي الذي نعرفه، أو يعرفه معظم الناس، أنا عندما أقول أحبك، أعني بأنك الحياة التي أعيشها والهواء الذي أتنفسه، أعني بأنك العمر الذي أبلغه والسنين السابقة التي عشتها، أعني بأنك الحديث الجميل الذي حدث لي.
أنا لا أحبك بما يعرفه الآخرون عن الحب، أنا لا أحبك مثلهم، أنا أحبك بمشاعري الغريبة، باهتمامي الغريب الذي لم أُبده يوماً، بخوفي الباطن الذي يجعلني أضُم اسمك بدعوتي

قبل اسمي، ويحدث كثيراً أن أنفق الصدقة بمقدار شخصين، وأتحصن واقرأ أذكاري مرتين لأجل أنّ تحميك في غفلتي عنك. هذا معنى كلمة أحبك عندما أقولها لك.

أود الآن لو أستطيع الاعتذار لك عن كل تلك المرات التي لم أكن فيها الحبيبة والصديقة التي أردتني أن أكونها. عن كل المرات التي نسيت فيها تواريخك. عن كل مرة قسوت وتحاملتُ عليك في موقفٍ ما، لأنني كنتُ آملُ منك شيئاً أفضل من ذلك. عن كلٍ مرةٍ مددت فيها يدك، ولم أُمسكها جيداً. وعن كل مرةٍ رأيتُ عينيك فيها تتحدثُ بين الناس، ولم أخُذهما لمكان آخر بأحاديثي التي تُطمئن قلبك. أنا أسفة فالدُنيا جعلت مني اليوم شخصًا آخر، وأنا لا أقوى على فعل شئ سوي الهروب.

فلهذا الرجل الذي يتوارى الحزن خلف ضحكاته، لسخريته من كل شيء، ومحاولاته الفاشلة لإثبات لامبالاته، لأنه يهتم كثيراً. ولأني أعلم أن كل شيء يؤلمه بشكل مضاعف. أقول: أنا آسفة لأنني لم أستطع أن أنسيك ألمك، أسفة لأنني أذكرك بتعبك، وآسفة لأنك علقت علي آمال كثيرة تهاوت أمامك حين ودعتك.»

كانت تعتقد أن في كل مرة ستفتح خزانتها، دون أن تري صندوق الرسائل، ستشعر بنوع من السعادة نابع من عدم الانتظار، إذ ظل ذلك الصندوق الصغير محور علاقتها بأدهم.
والآن فإن مجرد رؤيته كشيء عادي ومهمل مرة أخرى، رؤيته كشيء لا يَعِد بشيء، أو يخفي شيئًا ذا أهمية كبير، أشبه بالشعور باختفاء ألم مبرح.
رحلتها مع أدهم تبدو الآن في منتهي الضبابية، ضاعت تفاصيلها من ذاكرتها وسط ضباب التعاسة والاكتئاب المسيطرين عليها منذ انفصالهما.

اليوم هو يومها الأول في شقتها الجديدة، التي انتقلت للعيش فيها بمفردها بعد الكثير من النقاشات والمفاوضات مع عائلتها.
الحب ليس شيئًا لا مناص منه،فالإختيار جزء منه. كل ما هنالك أنه من الصعب معرفة متى يقع الاختيار، ولا متى يصبح لا رجعة فيه، حتى إن بدا حبًا طائشًا. فما من إشارات تحذيرية تسبق ذلك.

«أحبك، أحبك الآن».
تجاهلته، وهي تنظر لنفسها في مرآة المطعم، وشعرت بالإحراج الشديد.
فكرت: يعلم الله لمَ يتصنع الرومانسية، وهل يجب أن تأخذ كلامه على محمل الجد، وفكرت في أنه في لحظة ما سينظر إليها ويرى أنه قد قالها للمرأة الخطأ. لامرأة فقدت كل مقومات الحب، وباتت لا تصلح لتلك الصفات. فقد طرحت من ذهنها منذ وقت طويل علاقات الحب والقصص العصيبة، التي يمكن أن تتقاطع مع سير حياتها العملية.

ثم فهمت أنه كان يعني حقاً ما قاله، وبدا لها أكثر من أي وقت سابق أنه متهور وغير متزن بالتأكيد.
فسألته: أنت متأكد من أنك لا تقصد شخصًا آخر؟
فأجابها: لم تتدهور حالتي العقلية إلى هذا الحد، إنهم يقولون أن بين العقل والجنون شعرة، وأنا أقول أن بينهما خفقة قلب، وهذا حدث حين رأيتك في المطار.

ارتعشا معًا في نفس اللحظة، واستطاعا السيطرة على أنفسهما بالكاد. إذ كان يغمرهما هما الاثنين شعور بالامتنان والدهشة، طوفان من الحظ والسعادة غير المتوقعة، غير المشروطة، وغير

المصدقة تقريباً. توقفت الدموع في أعينهما، هذا شيء لا يمكن إنكاره .. نعم.

- لو كنتَ رجلًا التقيته ذلك اليوم أو في ذلك الوقت من حياتي، أكنت سأحبك؟ ليس كثيرًا. لا أعتقد ذلك. ليس كثيراً. لقد أحببتك لأنك تربطني بماضيَّ، بطفولتي وأنا بريئة دون أي جريرة اقترفتها. لو كان بمقدوري إذكاء شرارة الحب حينذاك وحملها معي الآن، لكنت بددت من حياتي أقل كثيراً مما حدث. إن حياتي لم تنهَر في الحقيقة، بل ضاعت بين السكك والدروب.

بطبيعة الحال، كانت تعرف منذ البداية أن الإقدام على خطوة الزواج بتلك السرعة أمر بالغ الخطورة، فلا يمكن أن تتخذ من ذكريات الطفولة أساساً لذلك. فالعلاقات قابلة للانهيار في أي لحظة، وقد انهارت بالفعل، وليس بمقدور أحد كائناً من كان أن يضع يده على مكمن الفشل. شِئنا أم أبينا، وليس هناك أحدٌ تستطيع أن تشكو له وتبوح إليه.

وكالعادة تصل النجدة في آخر لحظة، رسالتها الساخطة الموجزة المعبرة عن يأسها الشديد. ثم رد هو برسالة اعتذار مفعمة بروح الدعابة، تفيض بالرقة إلى حد ما. يقول فيها أنه ليس هناك أي خطر.

كانت مريم تعتقد دوماً أنهم يقفون على أرض صلبة، إلى أن بدأت ظروف العمل تضطره للإكثار من الغياب. في البداية اعتقدت كما لو أن هذه الحفرة التي وقعت فيها، والمتمثلة في غيابه المستمر من أجل العمل، ليست سوى وهم تخوِّف به نفسها، أو في أسوأ الأحوال مكان لا تملك إلا أن تصرخ منه بصوت عالٍ بما يكفي طلباً للمساعدة، مؤمنة بقدوم المساعدة، وتأتي المساعدة.

اليوم يمر عدة أشهر على جلوسها، تراقب وصول الأثاث قطعة بعد قطعة، حقائب الكتب، أباها وهو يتولى تعليق أرفف الكتب في انفعال شديد لأنه كان متخوفاً لفكرة انتقالها للعيش بمفردها.

حاولت مريم جاهدة أن تُطمئن الجميع، كل من رغب في المجئ لرؤيتها وتفقد أحوالها، وهذا ما كان يجبرها على العودة إلى الكلام، لكنها لم تكن تعلم كيف ستتمكن من إشباع فضولهم حول أسباب الانفصال.

كانت تتمنى كثيراً أن تعود إلى نقطة الصفر، إلى ما قبل الصدفة التي جمعتها مرة أخري بأدهم بعد كل تلك السنوات.

تذكرت كيف احتضنها أباها، وانهمزت في البكاء متوسلة

إياه أن يتركها تنتقل للعيش في تلك الشقة، وكيف انهارت أعصابها وسقطت مغشياً عليها ثم حملوها إلى السرير وقد انتابتها الحمى.
مرت عدة أيام وهي في السرير، وحرارتها مرتفعة لكنها لم تكن تهذي كثيراً. كانت ساقطة في دوامة لا تعي منها غير البكاء والصداع. كل ما تذكره أنها كانت ترقد على جانبها الأيسر تتبع بطرف اصبعها وجه أدهم، وهو يجلس بجوارها على السرير.

تتأمله ثم تستغرق في دوامة من الأحلام المزعجة، والتي رأت فيها الكثير من الأشياء، السقف يوشك أن يقع فوقها، كلبتها تنتفخ وتصبح في حجم الحمار وتجثو فوق صدرها. تتذكر أيضاً أنها حاولت أن تدفعها بعيداً، ولكنها تركت ذراعيها الضعيفتين يسقطان مرة أخري.
تذكرت ذلك الطبيب الذي أتوا به. شاب ضئيل وأسمر، وله صوت يشبه النساء ويداه باردتان، ارتعشت حين لمسها.

وأخيراً تتذكر كيف في صباح اليوم التالي، أحضر لها أباها باقة من زهور التوليب، لأنه يعلم أنها أكثر الورود التي تحبها، لكنه لم يكن يعلم أنها أحد الأسرار الخاصة بينها وبين أدهم.
- آه يا أبي كيف يمكنك أن تفعل ذلك بي؟!

تذكرت حينها المرة الأولي، التي أهداها فيها تلك الورود في المطار، وزيلها بتلك المقولة:
« وأن يحبك رجل مثلي فهذا يعني انتصارك. إنتصرتي لنفسك وكل الذين سبقوك، حين أقنعتي رجلاً بائساً أن هناك من تستحق، رجل هزمه قلبه فأحبك».

الفصل الحادي عشر
«حديث»

أدار أدهم محرك سيارته، وأمسك بهاتفه المحمول، وطلب الاتصال بمستشفي صني بروك، لأنه كان يشعر بضرورة الحديث مع دلال في تلك اللحظة.

- غادرت الدكتورة دلال منذ حوالي الساعة .. أوضحت موظفة الاستقبال بوحدة الرعاية.

أدهم: هل ستعود مرة أخري؟

- لا .. لقد انتهى عملها اليوم، والغد هو موعد عطلتها الأسبوعية.

أدهم: أود أن أعرف عنوانها من فضلك.

- آسفة سيدي، ليس مسموحاً أن نعطي تلك المعلومات عن العاملين بالمستشفي .. قالتها بلهجة مرتابة.

أدهم: أنا صديقها، والأمر عاجل جداً.

- إذا كنت صديقها، فمن المؤكد أنك تعرف أين تسكن.

قاطعها أدهم بفظاظة:

- اسمعي يا سيدتي .. جئت إليها البارحة، ومنذ ثلاثة أيام أيضا .. ربما تذكرينني، أنا دكتور ...

- أنا آسفة.

- أرجوكِ، أعطني هذا العنوان اللعين .. صرخ أدهم عبر الهاتف.

على الطرف الآخر من الهاتف، أطلقت عاملة الاستقبال جودي تنهيدة عميقة. كانت ستنهي دوامها بعد عشر دقائق. وكانت تتحصل على الحد الأدنى للأجر، وهو عشرة دولارات في الساعة. ولم يكن الأطباء، ولا طاقم التمريض يعيرونها أي اهتمام، ولذا لم تشأ أن تزعج نفسها في نهاية دوامها بهذا المجنون المضطرب عبر الهاتف.

الحل الأمثل للتخلص منه، كان إعطائه تلك المعلومة، مع أخذ وعد بالحفاظ على سرية مصدرها. عادت إلى جهاز الكمبيوتر الذي تجلس خلفه، وانتهت بإعطائه عنوان الطبيبة.

- شكراً، وأسف لكوني غاضباً.

ولكنها كانت قد أغلقت سماعة الهاتف.

أقلع أدهم بالسيارة في اتجاه مدينة نياجرا. قاد لأكثر من تسعين دقيقة، قبل أن يصل إلى الشارع المطل على شلالات نياجرا حيث تسكن دلال.

- إذا كانت معلومات موظفة الاستقبال صحيحة، فيجب أن يكون هذا هو المنزل.

كان لمنزل دلال مظهر مختلف عن كل المنازل المحيطة، والتي تطل على شلالات نياجرا. كان صغيراً وضيقاً ويبدو منطوياً على نفسه. ولأنه لم يكن هناك جرس على الباب، دق الباب بعنف لعدة مرات قبل أن تأتي دلال لفتح الباب.

نظرت إلى أدهم مبتسمة، ثم قالت ببساطة:

- تفضل، كنت في انتظارك.

كانت ترتدي جلباباً نسائياً مصرياً، وعليه مريلة مطبخ ملطخة بآثار الطهو.

كان بيتها مريح جداً من الداخل، وتبدو البساطة واضحة في كل ركن منه. أحس أدهم بالسكينة تغمره، وكأنه كان يركض من مدينة تورنتو حتى شلالات نياجرا.

جلس في صدر غرفة المعيشة، على أريكة عريضة، أمامها طاولة

قصيرة مزينة بعلبة من الخشب مصنوعة يدوياً.

سألها أدهم مشيراً إلى تلك العلبة:

- لابد أن بها أشياء ثمينة، تبدو كصندوق لتجميع المجوهرات، ولكن مكانه يبدو غير مألوف.

- يمكنك فتحها، لا تخجل .. ردت دلال.

مد يده لفتح الصندوق، وإذا به ممتلئ بقوارير صغيرة مصفوفة بعناية شديدة. جلب واحدة منها وفتحها.

- إنها ليست إلا توابل .. قالها بابتسامة ساخرة.

دلال: هل يمكنك تمييزها؟

أدهم: لا .. تبدو كرائحة مختزنة في الذاكرة، ولكن لا يمكنني استدعائها.

دلال: هذه القوارير تحتوي على توابل من مختلف أنحاء العالم، كل قارورة تحكي حكاية. فكما يهوي البعض تجميع الطوابع أو العملات القديمة، أهوي أنا تجميع روائح التوابل.

- لأول مرة أصادف أحداً ينصف التوابل بهذا الشكل. قالها أدهم باندهاش.

دلال: لأنها تستحق ذلك، التوابل تلخص تاريخ العالم وأساطيره، وتاريخ التجارة والطرق والقوافل والصراع بين الدول. تؤثر على السياسة والاقتصاد والثقافة وطرق حياة الشعوب.

أدهم: كل ما أعرفه أنها تضيف نكهة أو رائحة، من الممكن أن تحسن مذاق الطعام.
دلال: بالتأكيد لأنها تؤثر على حاسة التذوق وأجهزة الهضم، مما يؤدي إلى تنشيط الغدد اللعابية عن طريق الجهاز العصبي. كما تعمل على تحفيز المعدة والأمعاء لإفراز كم أكبر من العصارات الهاضمة.
أدهم: أعلم تلك النقطة جيداً، وأنها أيضاً تستخدم في استخلاص بعض الأدوية.
دلال: نعم .. بالتأكيد. حتى في الحضارات القديمة، يوجد الكثير من الكتابات التي تشير إلى استخدام التوابل في تصنيع الدواء، والزيوت المقدسة، كما استخدمها الكهنة في التعاويذ والطقوس السحرية، إضافة إلى علاج بعض الأمراض.

نظر أدهم إليها بإعجاب قائلاً: لقد أبهرتني حقاً، أنت موسوعة، وعلى الأقل يمكنك الحديث في شيئ آخر، خلاف ذلك الهراء عن الموت والمستبصرين.

تجاهلت تلك الجملة الأخيرة، وابتسمت قائلة:
- أحاول أن أكون رفقة مسلية، اِعتبر نفسك في بيتك.
هل تمانع في تحضير كوبين من القهوة التركي، حتى أنتهي أنا

من وضع صينية البطاطس في الفرن؟
وقف أدهم يراقبها في حيرة بالغة.
مريبة ومحيرة جداً تلك المرأة. ما هي حقيقتها؟
طبيبة أم ربة منزل؟ اجتماعية أم انطوائية؟
منقذة للأرواح أم مجنونة؟ أي جوانب أخري تُخفيها تلك المرأة؟ ماذا تريد مني حقاً؟!
بدت دلال منغمسة وسعيدة بالطهو.

لقد رأيتها من قبل. أعرف أنني قد رأيت تلك المرأة من قبل. كان ذلك منذ فترة طويلة ولكن..
حاول لبرهة أن يستجمع تفكيره في محاولة للتذكر، ولكن دون جدوي. كل ما شعر به أنه في لحظة ما من حياته، قد حاول أن ينسي ذلك الوجه.

دلال: أمل أن تنتظر لتناول العشاء معي. لقد أعددت صينية من البطاطس بلحم الضأن مع أرز مصري وملوخية. أُريدك أن تعطيني رأيك فيهم.
أدهم: اسمعيني جيداً، لست هنا لأتذوق طبيخك. أعتقد أن علينا التحدث عن...
دلال: اسمعني أنت يا صديقي، لا أحب تناول العشاء بمفردي.

- هل تعيشين في هذا المنزل بمفردك؟ أليس لديك عائلة هنا؟ .. قالها أدهم، وهو يرتشف من فنجان القهوة.

دلال: ما رأيك في هذا البن؟ إنه بن مصري، أحضره لي أحد الأصدقاء من زيارته الأخيرة لمصر.

أدهم: لقد طرحت عليكِ سؤالاً، هل تعيشين بمفردك؟

بدا عليها الضيق، وكأنه نبش جرحاً كان قد اندمل.

أخذت رشفة متمهلة من فنجانها، وحاولت أن تتحلي بالهدوء، وقالت:

- نعم، يا حضرة وكيل النيابة. أعيش بمفردي منذ عدة سنوات.

لم يكتف أدهم بتلك الإجابة الموجزة، وأصر على دفعها للتصريح بالمزيد قائلاً:

- ألست متزوجة؟

- كنت.

- وماذا حدث؟

ابتلعت ريقها، قبل أن تشير إلى صورة فوتوغرافية موضوعة بداخل إطار، ومعلقة على الحائط.

كانت تظهر دلال في الصورة، وهي أصغر سناً وبشعر أسود

طويل، مع رجل وسيم ذو شارب، وبينهما تقف فتاة صغيرة لا تتعدي السادسة من العمر. بينما يتألق كورنيش الإسكندرية المميز في الخلفية. كانت تحتضن الفتاة الصغيرة بكل سعادة، وقد تلألأت انعكاسات ذهبية لأشعة الشمس على شعرهما.

بدت دلال نفسها مختلفة تماماً، عن تلك المرأة التي تجلس أمامه الآن. البهجة التي تطل من عينها في الصورة انطفأت، لتحتل مكانها مرارة خافتة تطل مع كل حركة منها.

مر بعينيه على باقي تفاصيل الصورة، أدرك أن كل شيئ بها يوحي بأنها مأخوذة في نهاية الثمانينات على الأرجح، ملابسهم، والألوان.

بدت الصورة كأنها نافذة مشرعة على الماضي. والابتسامة التي ارتسمت في أعين ثلاثتهم، دفعته لإلقاء سؤاله التالي دون تفكير:

- وأين هما؟ ماذا حدث لهما؟

داعبت الصورة بأناملها دون أن تُجيب.

شعر أدهم حينها أنه يتوجب عليه الصمت، وأن يقاوم الفضول الذي سيطر عليه في تلك اللحظة.

لكنها نطقت فجأة قائلة:

- «أمنية» ابنتي رحلت بعد اِلتقاط تلك الصورة بعدة شهور. بدا صوتها كأنها تستدعي الكلمات من بئر عميق. مقدار الحزن الذي ظهر في نبرة صوتها كان صادماً، فلم يطرح المزيد من الأسئلة، لكن هذا لم يمنعها من الاِسترسال:

- بعدها لم نتمكن أنا و زوجي، من الاِستمرار سوياً. لقد حملني وزر رحيلها بشكل ما.

لم يعرف هل يجدر به أن يسألها عن السبب في اِعتباره الأمر غلطتها، أم الأفضل أن يبقي صامتاً حتى لا ينكأ جرحها أكثر. لكن دلال أخرجته من تلك الحيرة، وهي تستكمل حديثها، بينما لاتزال تنظر في شرود نحو الصورة:

- بعد رحيلها صرنا نتفادى الحديث، اللمسات، النظرات، وحتى عندما يضطر أحدنا للمرور بالقرب من الآخر، فإنه يتفادى أن يحتك به بكل حذر كأننا غريبين. كأنما أبرمنا اتفاقاً غير معلن، لا لمس، ولا حديث.

- لابد أنها كانت فترة صعبة .. تمتم أدهم في خفوت، دون أن يجد ما هو أفضل لقوله.

ابتسمت دلال في إرهاق، وهي تجيبه:

- كانت فترة صعبة لكلينا، لم أكن أدرك ما يجب قوله أو كيفية قوله. صار نطق الكلمات مجهوداً عسيراً وبغيضاً، الأيام عصيبة، مملة، وثقيلة. وابتعاد زوجي الصامت كان

عقاباً أشد لي. على الأقل لو تشاجر معي، لكنت شعرت أنني عوقبت بشكلٍ ما على فعلتي. لكن عدم التفوه بشيء، وتركي للهواجس تنهش في عقلي وجسدي، كان العقاب الأقسى. كرهت أنه لم يحاول احتوائي، أو يحاول أن يشعرني بالأمان.

انفلت السؤال التالي من بين شفتي أدهم، قبل أن يتمكن من منعه:

- لكن لماذا اعتبرك مسؤولة عن وفاتها؟

- لأنني اتخذت قرار خوضها لتلك العملية الجراحية.

أجابته وهي تنتهد، قبل أن تقوم لتتجه نحو المطبخ لتفقد الطعام، وهي تكمل حديثها:

- حتى الطعام صرت أطهوه وأتركه. صار كل واحدٍ منا يتناول طعامه بمفرده. لم أعد أطيق نظرات الاتهام المضمنة في عيني زوجي. كل نظرة تصدر منه، أشعر بها تخترق قلبي بنصال من نار. كل تصرف منه أشعر به يهمس إنه وزرك وحدك.

ذنبي..

ذنبي .. ذنبي.

قرر أدهم استغلال حالة الضعف التي تمر بها دلال، والقفز إلى

السؤال الأهم قائلاً:
- كان ذلك منذ فترة طويلة، أليس كذلك؟
دلال: عفواً!
أدهم: التقينا نحن الاثنان، ولكن منذ فترة طويلة جداً. أليس كذلك؟
مرة أخري، تجاهلت دلال سؤاله.
لم يحاول أن يلح هذه المرة. لم يكن يتخيل أنها تحمل كل تلك الأعباء على كاهلها.

تظاهرت بالمرح وهي تسأله:
- ما رأيك بمنزلي؟ لطيف .. أليس كذلك؟
من هنا أستطيع العبور سيراً عبر جسر قوس قزح إلى الجانب الأمريكي من شلالات نياجرا، حتى أنني في بعض الأحيان أقوم بشراء كل مستلزمات المنزل الشهرية من هناك. إنها أرخص كثيراً هناك.

لم يستطع أدهم تمالك نفسه تلك المرة، وقاطعها بفظاظة قائلاً:
- أنا لست هنا للحديث عن طرقك العبقرية في كيفية التوفير في شراء احتياجاتك الشهرية و..
- كي نكون متعادلين، حدثني عن زوجتك؟

يبدو أنها لم تكن امرأة عادية .. قاطعته دلال فجأة.

تجمد أدهم مكانه، لأنه لم يتوقع هذا السؤال، قبل أن يغمض عينيه، كأنه يرفض النظر في تلك اللحظة إلى أي شيئ آخر. كأنه يحتفظ بصورتها داخله، ولا يُريدها أن تتسرب للخارج. لكن سرعان ما انسابت الكلمات من فمه قائلاً:
- لا .. لم تكن مريم مجرد امرأة عادية. إنها الوحيدة التي لم أردها مجرد محطة عبور، أو قطار ينقلني من مرحلة عمرية لأخري. الوحيدة التي أردتها محطة المغادرة والوصول. أردتها أن تكون دوماً وجهتي، حين لا أعرف من الحياة سوي الغربة.
الطمأنينة التي أشعر بها في صوتها، كافية كي تصالحني مع فجاجه المهزلة الحياتية التي نعيشها، نظرتها تختصر الحياة، صوتها يطوي المسافات. امرأة تلغي كل النساء، كانت أمنية مجابة، رحمة واسعة. كان وجودها في حياتي مغفرة، تشفع لكل خيبات الحياة التي مررت بها.

بدا أدهم حينها كأنما سكت طويلاً، منتظراً أن يسأله أحدهم عن مريم، حتى يفرغ ما في جعبته عنها.
دلال: هل كانت مثالية إلى هذا الحد؟

أدهم: لا .. لم تكن مثالية ولا خارقة للعادة، لكنها كانت حقيقية، حقيقية فقط . صدقيني وددت كثيراً لو كانت امرأة عادية وتافهة لأنساها سريعاً وأستكمل حياتي. لكنها كانت شيئاً أخر، لم تكن تشبه أحد ولا أحد يشبهها.

دلال: ألازلت تحبها؟
أدهم: بالتأكيد.
دلال: وكيف كانت نهايتك معها؟
أدهم: كطفل عاش في حضن أمه، وحين بلغ سن الكلام، وقرر أن يلفظ «أحبك أمي» فوجئ بخبر وفاتها.

دلال: وكيف كانت البداية؟
أدهم: ظهرت مريم كجندي متسلل. لا أعلم كيف نفخت الهواء برائحتها. رمت أذني برصاصة صوتها. زرعت في عيني ألغام ملامحها. وأشعلت الصدفة نار حبها في صدري.

دلال: وهل وجدت راحتك هنا؟
أدهم: نحن نسافر ظنا أننا سنهرب، والحقيقة أننا نرحل بعيداً لنختلي بكل الذي هربنا منه.
دلال: هل تشعر بالغربة هنا؟

أدهم: أي غربة أقسى من أن تكون حياتنا فارغة من هؤلاء الذين نحبهم. هؤلاء الذين تتخذ الأشياء في غيابهم موقفاً عدائياً، فلا الطرقات تصل بنا، ولا الجهات تقف في مكانها، ولا الأيام تتحرك، ولا نتنفس حتى كما يجب.
دلال: وما الذي يدفعك لانتظارها؟
أدهم: أعتقد أن كلينا يرفض خيار الرحيل النهائي. قد نكون لازلنا غاضبين، لكن بدون أحدنا الآخر سنكون في وحدة إلى الأبد.
دلال: مادمت تحمل لها كل هذا الحب، فلما لا تحاول مرة أخري؟
أدهم: حاولت وربما يتكفل الوقت بحل المشكلة.
دلال: من يضمن يا صديقي أن نعيش طويلاً لنختبر صحة تلك النظرية. جرب مرة أن تتخلى عن حسابات المنطق والكبرياء، اندفع وكأنك لا تملك خياراً آخر، لا تستمع لصوت عقلك. تجاهل كل العواقب التي يصنعها عقلك. أغمض عينيك واقفز إليها، فقد تتعلم الطيران.
أتدري أننا متشابهان! لقد كانت ردة فعلنا متماثلة. لقد اختزنا الرحيل، على أن نحارب من أجل محاولة إصلاح العطب الذي أصاب علاقتنا بالطرف الآخر.
لكن صدقني، أنا الآن نادمة على ذلك، نادمة على كل تلك

الأعوام التي قضيتها بعيداً عن زوجي. والمؤلم أكثر أنه كان اختياري. لازال أمامك فرصة لإصلاح الأمور يا صديقي كي لا ينتهي بك الحال عجوزاً وحيداً مثلي، يستجدي أوقات عمله، حتى يجد صحبة إنسانية تلهيه عن إحساسه بالوحدة.

كان أدهم قد أنهي تناول طعامه في تلك اللحظة، ولأول مرة يشعر بذلك الانسجام والراحة في حضرة تلك الطبيبة. ربما ما جعله يسترخي ويهدأ، هو حديثهما عن مريم.

- وهل ..
- قاطعها أدهم، يكفي الحديث عن مريم.
- لك هذا ولكن عليك أن تعلم يا صديقي، أن المرأة لا تُريد شخصاً يراقبها من بعيد ويحبها في صمت، تريد شخص يُلح لأجلها، ويشد يديها أمام الجميع، ويُصِر عليها رغم كل ما بها من سوء.

احترمت دلال رغبته في التوقف عن الحديث عند تلك النقطة. واستطردت في الحديث عن الحقائق المرعبة التي تواجهها كل يوم في عملها. عن المرضي الميؤوس من شفائهم. وعن الموت المفاجئ الذي يدق باب بعض الأشخاص غير المستعدين لتلك الرحلة. وعن هذه العاطفة التي لا تُشبع أبداً، لاعتناء الإنسان

بأقرانه والتخفيف من آلامهم.
تحدثت أيضاً عن أيامها الأولي في كندا، وشغفها بالطبخ الذي كان يساعده على استعادة ذكرياتها في مصر.

- أتعلم! .. من الصعب أحياناً التحمل. على الطبيب ألا يندمج مع مرضاه، مع ضرورة بقاءه بالقرب منهم لمساعدتهم، ليس من السهل إيجاد حالة التوازن تلك.

فكر أدهم في الحالة الجسدية والمعنوية لمرضي وحدة العناية التلطيفية التي زارها بالأمس وقال:

- كيف يمكن مواصلة العلاج حينما تكون اللعبة خاسرة مسبقاً؟ كيف يمكن للمرء أن يبعث الأمل في نفوس موقنة أن النهاية قادمة لامحالة؟

دلال: كلا، ليس من السهل أبداً. كل يوم وكل مريض يمثلان تحدياً جديداً. ننجح أحياناً ونفشل أحياناً. لكن هكذا هي الحياة دوماً، سلسلة من الهزائم والانتصارات، من التحديات التي نمر بها. حتى لو لم ترغب في هذا، الحياة يا صديقي أشبه بالمسرحية التي لا يسمح بالخروج منها إلا مع إسدال الستار.

ساد صمت طويل بينهما، بينما في الخارج كان صوت الرياح

وحركة الأشجار ينذران بالعاصفة وشيكة الحدوث، كأنما هي أوركسترا الطبيعة تأبي إلا أن تشاركهما مزاجهما العكر.

- لقد حان موعد نومي. يمكنك أن تنام هنا، فالوقت قد تأخر على العودة إلى تورنتو، وخبراء الطقس يتوقعون هبوب عاصفة ثلجية في المساء. لدي غرفة منفصلة ومجهزة دوماً لاستقبال الأصدقاء.

محبطاً من العودة إلى منزله الفارغ والبارد، ومدركاً حقيقة الطقس، قبل أدهم الدعوة دون تمنع.

في الصباح، استيقظ أدهم متأخراً. فلأول مرة جعلته الراحة التي شعر بالأمس، ينام دون أخذ المهدئات التي اِعتاد تناولها. خرج إلى غرفة المعيشة، ووجد ورقة موضوعة على الطاولة «عند مغادرتك: رجاء غلق الباب ووضع المفتاح في صندوق الرسائل»

استقل أدهم سيارته، وسلك طريق الملك إليزابيث عائداً إلى تورنتو. وبينما يقود سيارته، لم يكف عن التساؤل حول ذلك الشعور المختلط بين الرفض والانبهار، الذي يشعر به تجاه دلال. بالطبع، كانت تلك المرأة تسبب له القلق، لكن في بعض

اللحظات كان يشعر أنه على انسجام معها، وكأنها أحد أصدقائه القدامي. كان يصعب عليه تفسير تلك المشاعر المتناقضة تجاهها.

الفصل الثاني عشر
بداية

أدهم

أقول أحبك للمرة الأولي، وأدرك معها كيف يحني المهزوم رأسه أمام المنتصر، الأعزل أمام خصم مدجج بالسلاح، الضحية أمام الجلاد.
أقولها، لأني أريد أن أحرر روحي من احتلالك لها، لأني أريد أن أتخلص من حصارك لقلبي الذي يفرض على الاستسلام كخيار وحيد.
أقولها لأن قلبي مكدس بالكثير من المشاعر التي تتخذ هيئة العبوات الناسفة، ووحدها «أحبك» هي زر الأمان الذي

يبطل مفعولها.
أقولها لأني مددت يدي في جعبة الكلام، بحثاً عما يكافئ هذا الشعور، فلم أجد إلا تلك الكلمة التي نزعت عن قلبي كل دروع حمايته، وألقته عارياً من كل ستر في ساحة عينيك.
بإمكانك الآن أن ترى بكل وضوح رجل يُحبك بهذا العري وتلك الشفقة .. يُحبك فقط.

مريم

الحب مؤامرة لا تعترف بالتخطيط المسبق، كمين يسعدنا الوقوع فيه. الحب يشبه التدخين، تعلم مسبقاً أن احتمالية إصابتك بالسرطان واردة، لكنك لأجل النشوة التي تجدها في ذلك، تأمل أن تبقى معافاً بطريقة ما.
عادة ما يقع الحب دون سابق انتظار، تماماً كالسرطان. يحدث في لحظة خاطفة، وبعدها يصبح أي شيئ غير مهم. كل شيئ يصبح خارج قوانين الزمن، خارج القواعد المتعارف عليها، وبذلك تنتفي من الحياة كل أسباب الإحساس بالخوف.
فجأة يشتعل في شغاف القلب لهيب، فيستبد بالرأس دوار، ويتمدد في تجاويف البطن فراغ. حينها نحيا انعدام الجاذبية بقلب مرتجف وأفكار مقلوبة رأساً على عقب.

أدهم

لا يتصل شيئ بِابتسامتها إلا نبت واخضر، ثم نور وأزهر، كأن الطبيعة خبأت في روحها كل أسرار الربيع. فجأة يدب ربيع الحياة في عروقك، وينبعث في صدرك نبض قلب جديد، وتنبثق أفكار في غاية الصفاء، لأن المرأة التي تُحبها قد حررتك من نفسك. تستبد بك حينها الشهوة للمسها، لشفتيها، لعبير شعرها. ومن الآن وصاعداً كل المفاتيح أصبحت بين يديها، مفاتيح الجنة والنار.

مريم

الحب الذي يأتي خاطفاً، مفاجئاً، سريعاً وعظيماً، ثم يتضخم حتى يتحكم بحركة القلب والرئتين. حين يهاجم، يهاجم بقوة ثم يتضخم، حتى يكاد يعطل حركة القلب والرئتين.
أنا لا أخجل من ضعفي أمام هذا الحب، من خساراتي الكثيرة أمامك، من تجاوز مبادئي في كل مرة تكون أنت فيها في مواجهتي. مهما كان غيابك، لا تنتظر مني شيئًا آخر غير هذا الحبّ. أنا لا أعرفني إلا بك، أجهل قلبي لو توقفت لحظة عن حبّك.

أدهم

أنت مجرد شخص عادي. فوضاك الداخلية تسيطر على حياتك. تعيد التفكير مئات المرات قبل أن تتفوه بكلمة واحدة.
لا يعنيك أمر هذا العالم الذي تعمه الفوضى، والبرد، والحرب على الإرهاب، وسقوط القذافي ومقتل الأطفال في سوريا، لقد جعلته خلف ظهرك. أنت لا تعيش في هذا العالم.
حين تجد الحب، تكون قد أوجدت لنفسك ملاذك الآمن، ومملكتك الهادئة التي لا يسكنها غيركما.

مريم

بمرور الوقت نشأت بيننا رابطة غريبة، تلك الرابطة الغامرة والعميقة والرائعة التي تجعل إثنين يشعران أن لقلبيهما يدان تتصافحان.
كل شيئ في ليالينا يتحول إلى مشاركة وانفصال عن العالم. رأسي المسنود إلى كتفه، شعرنا المتشابك على الوسادة، الموسيقي المخنوقة في شرايينه، خفقان قلبي المتزامن مع نبضات قلبه.

أدهم

عدة أيام تفصلنا عن رحلتي، أو رحلتها الجوية القادمة.
كل مرة أرافقها أو تُرافقني إلى المطار، يواجهنا نفس السؤال:
من أين لنا بتلك المقدرة على انتظار اللقاء مرة أخري؟!

أتصفح دوماً الكتاب الذي أهدتني إياه، وأتوقف كل مرة عند نفس المقولة وأضحك: هل الحب هو ما يحولنا إلى أغبياء، أم أن الأغبياء وحدهم من يسقطون في فخ الحب؟

مريم

حتى في قسوته كنت أحبه أكثر، يتحول وحشاً، وحش يبكي.
تخيل روعة المشهد، كائن بشري يصل لأعلى درجات الغضب والقهر فيغدو وحشاً، ثم لأعلى مراتب الضعف والقلق فيبكي ويعود طفلاً صغيراً أمامي.

أدهم

هل تعي معني أن يحبك شخص يحاول جاهداً أن يستيقظ كل صباح ليبدو مطمئناً؟!
ينتزع جميع مخاوفه ومزاجه السيئ، ويضعهم في رف بعيد حتى لا تستطيعين أن تعثري عليهم، وتتعثري بهم؟
يحاول جاهداً أن يريك عالمه الصغير الخالي من القلق، حتى تستطيعين أن تشعري معه بالأمان.

مريم

أتمني أن تفهم يوماً أني معك أتخلي عن كل ما آمنت به، من قناعات وأشياء تحت تأثير المنطق، وإختارت الجنون، والركض معك في الطرقات وعلى صفحات الروايات الرومانسية، وفوق الغيم دون خوف أو خجل.
أنت يا أدهم كل منطقي وقناعاتي وإيماني. أتدري، رغم كل تخبطاتك، تناقضاتك المستفزة، مزاجك المتقلب، وكل هذا الهراء الذي تحمله في رأسك، هناك شخص آخر بداخلك، إنسان لا تهرب من حوله اليمامات إن مشي بينها.

أدهم

لو سألتني عن الحب، لحدثتك عنها، دون أي موعد أو تخطيط مسبق ودون إرادة مني، صارت هي كل الأشياء التي تعنيني في الحياة. صار صوتها الصوت الوحيد الذي يعبر لقلبي قبل أذناي، صار وجهها الجهة الوحيدة التي أستقبلها بعد قبلة الصلاة. فأي امرأة تلك التي ستكفيني بعد أن رفعت هي سقف الكفاية إلى حد تعجز عنه باقي النساء؟!

مريم

في اليوم التالي، كان علي أن أبوح لنفسي بحبي له. وفي نفس اليوم قصدت محلاً للوشم، وإستسلمت للإبر تنغرز في كتفي لتنقش بلمسات خفيفة منمنمة، وشماً على شكل فراشة، وأسفلها اسمه. هو الوشم نفسه الذي سأظل أحمله على جسدي زاداً في سفري لمواجهة تصاريف القدر حين تغدو أقل هدوءاً مما هي عليه.

هل تشعرين بالألم؟ .. سألني الواشم، وأنا أنظر إلى الإبرة تضخ حبرها تحت جلدي.

مؤلم وهادئ، كالحب تماماً.

نهاية

أدهم

يضع رأسه المثقل بالأفكار على راحة يده، كأنه يحاول أن يغفو ولا يستطيع، ويراوده سؤال ينطق من كل حواسه:

هل مازلت أحبها، بنفس الشغف والحريق والتمسك بها،

أم أن السنين أبطأت الخفقان؟

صمت قليلاً، توقف عن التفكير، وكأنه ينتظر الإجابة أن تهبط عليه كوحي من السماء. ومثلما أتي السؤال فجأة، فاجأته في إثره دمعة ساخنة انحدرت من عينيه، كأنها تلك الإجابة التي ينتظرها.

لقد التقيا هو وهي من زمن طويل، وافترقا لوقت طويل، وبقي في الفراق: خيط يشد أحدهما نحو الآخر، حتى في صمتهما. تري، ماهو ذلك الخيط؟ وهل يستطيع مقاومة عوامل التعري التي أصابت علاقتهما؟

يشعر أنه مسؤول عنها، وعن كل الخيبات التي مرت بها وتحملتها في مراحل عمرها المختلفة، عن جنونها وتمردها حتى عليه،عن

غيابها الذي طال، لتعود بعده كمطر المواسم الذي هطل على أرض قاحلة، فاخضرت وأزهرت.

مريم

تشعر مريم في هجيع الليل الذي تسرقها فيه تأملاتها، أن صدرها يكاد ينفجر وحدة وسأماً.
الوحدة الحقيقية في أن لا نجد من يفهمنا، ولا من يستطيع احتواء أسئلتنا وتمردنا، ودفء مشاعرنا المتدفقة. أن ننام وفي صدورنا بقايا الكلام الذي نود لو نستطيع إخبار أحدهم به.

لم تعد تميل إلى حفلات الرغى النسائي، رغم أنها حاولت كثيراً كسر طوق الوحدة في غياب أدهم، وانطلقت تلبي دعوات صديقاتها وسهراتهن. لم تشعر بتحسن، بل تضاعفت لديها الرغبة في البكاء والشعور بالغربة بينهن. فآثرت الانسحاب والعودة للتقوقع في شقتها، حتى لا تشعر بثقلها على أحد.
كثيراً ما أرقتها أفكارها حين تضع رأسها على الوسادة، لكنها كانت تمتلك المقدرة دوماً على طرد تلك الأفكار في حضور أدهم، وعلى رسم ابتسامة فوق شفتيها. كأن حلمها أن يقبلها ويعانقها في تلك اللحظة لتنسي كل شيئ.

سألت نفسها ذات ليلة:
تري هل يختلف «إحساس الامتلاك» الذي يشعر به الرجل بمجرد أن يربطه ذلك الرباط المقدس بامرأة، هل فعلاً يراها كقطعة من قطع الأثاث؟ عن ذلك الامتلاك الذي تشعر به المرأة في بنائها لبيت وأسرة .. وعن الامتلاك الآخر والأعمق بالحب واستمرار شغف العاطفة؟!

أدهم

ما يجول بخاطري الآن أكثر من مجرد هاجس، إنه يقين، يقين مرعب غير مفهوم: أنت تُشكل خطراً على مريم، لأنك تحمل الموت بداخلك.
لقد غزتك تلك القناعة فجأة والتصقت بك كلوثة لعينة. تتعقبك في نومك، وتنخر في جسدك عن آخره بنوبات الصداع الفظيع الذي يشق عليك حد الغثيان، وبتلك الرؤى المفزعة الجاثمة على وأنت عاجز تماماً عن التخلص منها.
هي ليست حالة قلق، ولا هذيان، أو نزوة شاذة، بل هي قوة خفية مجهولة، قاهرة ومرعبة، لا يمكنك التساهل معها. إنها علامة وافدة من مكان ما، لا نُريد أن نقصده، صادرة عن شخص ما، لا نود أن نتعرف إليه، بمثابة حالة طارئة ليس

بوسعنا سوي الاستسلام لسطوتها دون محاولة استيعابها. إنها صوت لا يفتأ يهمس في أعماقي بلا انقطاع: إذا كنت تُريد الحياة لها، فارحل عنها واستسلم لما تُريده هي.

مريم

أكبر إهانة تقع على قلب إنسان بثقل عظيم، هي أن يشعر أنه مجرد عدد في حياة شخص يحبه بصدق.
أعلم أني لن أشفي أبداً من حبي له. لقد سلبني النور واليقين وشغف الحياة. صارت أيامي فراغاً وحياتي موتاً.
أنا الآن أحاول فقط أن أتظاهر بالتماسك، والقدرة على الابتسام والإنصات والرد على الأسئلة.
ومع الأيام لا أزال أنتظر منك إشارة أو علامة. أنتظر منك مساعدتي على الخلاص من ذلك الثقب الأسود الذي تركتني متورطة فيه، والأهم من ذلك كله أنتظر منك أن تكشف لي عن السبب الحقيقي الذي جعلك تستجيب بقراري بالانفصال.

تُري لماذا تخليت عني؟

أدهم

بدونك يا مريم تبدو محاولات الاستيقاظ كل صباح، وإيجاد سبب للنهوض من السرير أصعب من محاولة شرح التناقضات في ميكانيكا الكم لعجوز أفني عمره في تحضير الشيشة في المقاهي.

لازال قلبي هشاً بعد كل تلك السنوات، لقد ترك رحيلك ثقباً في القلب، ثقب أعلم أنه لن يسمح لي أبداً بترتيب خيبات قلبي من جديد.
ها أنا الآن أخطو بقلب مثقوب إلى العالم البارد، منقاداً وسط جموع المهاجرين، لأول مرة أشعر أن طاقة المدينة تُدمرني، وأنها تدفعني قهراً بعيداً عنها. وإلى عهد قريب، كنت أظن أني في معزل عن الحب والمعاناة والعواطف.
وواقع الأمر أني كنت منتظراً لتلك الصدفة فقط.

مريم

أعرف أنك رغم كل شيئ، لم تكن تدرك إلى أي مدي أحببتك، وكيف أن حبك كان الشيء الوحيد الذي يبقيني على قيد انتظار يوم آخر.

لم تفهم أنني حين أكون معك لا ألتفت لهزائمي، لا ألتفت لحالة ضعفي الشديد أمامك. حين أكون معك كنت أشعر أنني أملك القوّة لمواجهة كل هذا العالم، أنت لم تفهم أنني كنت أحتمي بك من هذا الخراب، من هذا الحزن .
لم تفهم أن وجودك في هذه الحياة لم يكن شيئاً عادياً. وأنك بكلمة «أحبك» فقط، كنت تُصالحني مع كل السوء في هذا العالم.
هل تعي معني أن يخسر إنسان الرهان الذي وقف في وجه العالم من أجله؟!
أتعرف معني أن ينهار البناء الذي خططت لأجل أن يظهر في أجمل وأدق صورة، ثم بذلت كل ما تملك كي تفاخر به الجميع.
أتعرف ماذا يعني أن ينهار؟ أن يسقط دفعة واحدة؟!

مريم

أنا أدور فى دائرة مفرغة منذ مجيئى إلى هنا .. أستهلكنى خلال النهار .. أستنزفنى إلي حدّى الأقصي .. أستهلك مخزون يومى كاملًا من الطاقة ، وأستقبل إرهاقى بصدر رحب .. كل هذا يحدث فرارًا من لحظة كهذه ؛ أستلقى علي سريرى "فتنبثق من العدم" تداعيات الحنين إليك
لقد تغيرت تماماً يا مريم ... هرمت .. زهدت فى الفرح .. تراجعت عن الشغف .. غادرت منصة الصراع .. مللت من الحظ .. تنافرت وروحى .. توقف قلبى عن الحياة
نعم الحب ولادة يا مريم والفراق موت .. ماقبل لقائنا هامش وما بعد فراقنا مجرد روتين لتمضى الحياة

ربما كنّا عاشقين أكثر مما ينبغى .. كان علينا تفهم أن االعشاق غير معصومين من إساءة الفهم .. من الخطأ .. من الحاجة للعزلة ومن الغياب .. كان علينا أن نترك فى قلوبنا مساحة لكل هذا القلوب التى تتضخم بالحب أكثر مما يجب .. معرّضة بسهولة لأن تُثْقب عند الصدمة الأولي

الفصل الثالث عشر
«اِقتحام»

قفز أدهم إلى سيارته، وسلك الطريق الرئيسي إلى شلالات نياجرا حيث منزل دلال. سار بسرعة شديدة، حتى كاد يتعرض لحادث عند مخرج طريق الملكة إليزابيث. لم يكن بوسعه التركيز أو محاولة التحلي بالصبر. توالي شريط الذكريات في رأسه.

وصل أدهم أمام منزل دلال في في حوالي الواحدة ظهراً، كان الطقس رديئاً والرياح الجليدية التي تهب من الشلالات المتجمدة تمتزج مع ضجيج الأفكار في رأسه.

دق الباب عدة مرات ولكن دون جدوي.

أمر غريب حقاً، إنه يوم الإجازة الأسبوعية لتلك الطبيبة، ويجب أن تكون بالمنزل. دلال غير موجودة، يمكن أن يستغل ذلك في محاولة لكشف ما تخفيه، فحتى الآن هي من تمسك خيوط اللعبة كلها في يدها ويبدو أنها تخفي الكثير من الأشياء. الآن الفرصة سانحة لاستكشاف جزء من الأسرار التي لا تريد البوح بها.

تلفت أدهم حوله، لم يكن أحد موجوداً في الشارع. اِتخذ أدهم قرار أن يدخل المنزل بأي ثمن، كانت الطريقة الأسهل هي محاولة الدخول من باب المطبخ المطل على الحديقة الخلفية للمنزل. أحضر سكينته السويسرية متعددة الاستخدامات، واِتجه إلى الباب في محاولة لكسره. أدار مقبض الباب، ففتح دون الحاجة لذلك. لم يكن مغلقاً الباب من الأساس، وهذا من الأشياء المعتادة هنا في كندا، نظراً لإحساس الناس بالأمان، والذي كان يراه أدهم شيئاً مبالغاً فيه.

- أهلاً بك في عالم مخالفة القانون هنا في كندا، لو أمسك بك اليوم، ستقول وداعاً لمستقبلك الوظيفي، وسيزج بك إلى السجن.

لكن أدهم كان على اِستعداد للتضحية بأي شيئ، في سبيل كشف الأسرار التي تخفيها عنه دلال.
كان الدور السفلي من المنزل يحتوي على غرفة المعيشة التي تناول فيها العشاء مع دلال، والغرفة التي قضي فيه ليلته ثم غرفة مغلقة على اليمين في نهاية الممر، يبدو أنها مكتبها الخاص.
توقف أدهم الباب المغلق، أمسك المقبض وأداره ببطء وكأنه كان يشعر بالخوف مما سيجده بالداخل. اِنفتح الباب، وتوقف أدهم للحظات على عتبة الباب، وكأنه في اِنتظار شيئ ما سيقفز عليه من الداخل.
خطي إلى الداخل، غرفة كبيرة ذات أرضية خشبية مليئة بالكثير من الأرفف الخشبية، وتحتوي على كمية كبيرة ومدهشة من الصناديق الورقية. كانت الصناديق مرتبة، وكل صندوق يحمل ملصقاً بعام معين، ومقسمة بين مصر وكندا، بدءاً من صندوق في الركن الأيسر السفلي يحمل ملصقاً بالعام ١٩٩٠.
سحب الصندوق الأول فوجد الكثير من الوثائق الطبية، تصفح أدهم سريعاً تلك الوثائق، ولم يتطلبه الكثير من الوقت، ليدرك أن الطبيبة كانت تحتفظ بملف طبي لكل المرضي الذين عالجتهم.
- هل هذا طبيعي؟!
كانت الملفات مرتبة حسب المؤسسات الصحية التي عملت بها وتذكر حالات تمتد منذ عام ١٩٩٠.

سار أدهم بدون صبر مع الزمن: مستشفي دمنهور العام، مستشفي مصطفي كامل المستشفي الخيري بالإسكندرية، مستشفي مبرة العصافرة. أخيراً وصل إلى عام ١٩٩٢.
في تلك السنة كانت الدكتورة دلال تعمل في قسم الطوارئ في المستشفي الأميري بالإسكندرية، وكانت في الثلاثين من عمرها آنذاك.

وسط كومة الوثائق، اِستخرج دفتراً صغيراً بغلاف أبيض اللون، سجل يومي معنون «المستشفي الأميري بالإسكندرية ١٥-٣٠ أكتوبر ١٩٩٢».
نعم إنها تلك الفترة التي تعرض فيها أدهم لحادثة الغرق، وبالتالي فلا غرابة في أن يكون وجهها مألوفاً بالنسبة له.
تصفح أدهم اليوميات بعصبية شديدة، ووقعت عيناه على ما كان يبحث عنه.

١٩ أكتوبر ١٩٩٢

بعد ظهر اليوم نُقل إلينا صبي في العاشرة من عمره، في حالة موت سريري، نتيجة محاولته إنقاذ صديقته من الغرق.
حسب من جاء معه، والذين اِنتشلوه من البحر كان الصبي في

حالة توقف عن التنفس منذ عدة دقائق. أجرينا له الصدمات الكهربائية ولكن دون جدوي. واصلت محاولة إنعاشه، والضغط على قفصه الصدري، بينما كانت الممرضة تنفخ في فمه. وبخلاف كل التوقعات الطبية، فقد نجحنا في إنعاش قلبه مرة أخرى. إنه حي، ولكنه لايزال في غيبوبة.

هل فعلنا الصواب بإصرارنا على إعادته للحياة؟
لست متأكدة، لأنه حتى وإن اِستعاد الصبي وعيه، فإن المخ فقد الأكسجين لفترة طويلة، ولابد أن العديد من خلايا المخ قد تضررت، وفي الأغلب سيكون هناك عطب بجزء من المخ، أتمني فقط أن يكون قابلاً للعلاج.

كان أدهم مضطربا جداً وهو يقرأ تلك المذكرات، توافدت الذكريات عليه والتي حاول كبتها كل تلك السنين بلا اِنتظام، تابع القراءة مرتعش اليدين ونابض القلب بسرعة وبقوة.

٢١ أكتوبر ١٩٩٢

اِستعاد الصبي وعيه في وقت مبكر من صباح اليوم، وقد أخبرتني الممرضة بذلك في الحال.

فحصته بدقة، وأعترف أنني ذهلت من حالته العقلية غير المعتادة في تلك الظروف. لقد أدرك الفتي كوني طبيبة، رغم أني كنت أرتدي ملابسي العادية دون البالطو الأبيض. وحين سألته مداعبة: كيف عرفت أنني طبيبة؟
قال بكل ثقة: شاهدتك صباح أمس.
أين شاهدتني بالضبط؟
في قاعة اِستقبال الطوارئ، في الطابق السفلي.
سيطر الذهول على للحظات، ولكن الحالة الصحية للفتي لم تسمح بمزيد من الأسئلة. كان ضعيفاً جداً، وغير قادر على تحريك معظم أعضاء جسمه. يُدعي أدهم مصطفي، طفل نجول وكتوم، لكنه يبدو ذكياً، واِستطعت أن أتبادل معه القليل من الكلمات.

كانت أمه تجلس في الخارج في حال يرثي لها. امرأة في منتصف الثلاثينات، يبدو من مظهرها أنها لم تنم البارحة في اِنتظار إفاقة ابنها الوحيد.
سألتها إن كان قد سبق لأدهم زيارة غرفة الطوارئ من قبل، فأجابت بالنفي.
حاولت طمأنتها ومحاولة شرح ما حدث ولكن يبدو أنها كانت في حالة أشبه بالصدمة فهزت رأسها شاكرة.

٢٢ أكتوبر ١٩٩٢

ربما كنت مفرطة في التفاؤل أمس، كان حديثه اليوم غير منسجم. وتساءلت إن كان الحادث لن يترك في النهاية عواقب. من جهة أخري فإن أدهم طفل جذاب، ويمتلك مقدرة غريبة في التعبير عن نفسه، ولذلك قررت تسجيل حديثي معه على أحد أشرطة الكاسيت في اليوم التالي.

كان لابد أن يضع أدهم يده على ذلك التسجيل. توجه مباشرة نحو رف آخر ملئ بالصناديق الممتلئة بالأشرطة الصغيرة، والتي كانت مشهورة في ذلك الوقت، وبدأ ينبش بينها بسرعة كبيرة، إلى أن وجد ضالته أخيراً.

«١٩٩٢/١٠/٢٣»

وجد المسجل بجانب تلك الأشرطة، وبعد بضع ثوان بدأ يستمع بتأثر شديد تلك الأصوات القادمة من الماضي.
كانت دلال هي من تكلمت أولاً، بنبرة أرادتها أن تكون مرحة:
- مرحباً يا بطل.

- صباح الخير يا دكتورة.
كان أدهم قد نسي تماماً نبرة صوته خلال تلك الفترة، والتي كانت خافتة وواهنة من شدة التعب وحالته الصحية. رفع درجة الصوت.

الطبيبة: هل نمت جيداً؟
أدهم: نعم.
الطبيبة: هل تتذكر ما حدث لك؟
أدهم: الحادثة؟
الطبيبة: نعم .. هل يمكنك أن تقص علي ما حدث؟

ساد صمت، أرغم دلال على أن تكرر سؤالها.
- احكي لي .. هل يمكنك ذلك؟
بعد توقف جديد .. سمع أدهم نفسه وهو يجيب:
- عرفت أنني كنت ميتاً.
الطبيبة: ماذا؟
أدهم: عرفت أنني كنت ميتاً.
الطبيبة: لماذا تفكر في تلك الأشياء السيئة؟
أدهم: لأنك أخبرتي من حولك بذلك.
الطبيبة: عذراً يا صغيري، لكني لا أفهمك.

أدهم: حين وصلت للمستشفى .. قلتي أنني كنت ميتاً.
الطبيبة: أوه .. حقاً؟! .. لم أقل ذلك. ولكن على كل حال، لم تكن تستطيع أن تسمعني.
أدهم: بلي .. كنت أسمع كل ما يدور حولي بوضوح.
الطبيبة: ماذا تقول؟
أدهم: لقد صرختي عالياً بكلمات لم أفهمها، بدأتي بالضغط بقوة على صدري، ثم أتت الممرضة، ووضعت شيئاً ما على صدري، فانتفض جسدي كله، ورحتِ أنت ترجوني أن أصمد.

باستماعه إلى صوته الواهن، توتر أدهم، وأراد أن يوقف المسجل لأنه شعر بأن النهاية لن تجلب له سوي الألم، ولكن الفضول كان أقوي رغم كل شيئ.

الطبيبة: لا .. لا يمكن أن يحدث هذا .. من روي لك كل تلك الأحداث؟
أدهم: لا أحد .. كنت أسمع ما يجري.
الطبيبة: أظن أنك كنت تهذي.
لم يجب أدهم بشيئ، وساد صمت جديد، قبل أن تستأنف دلال الكلام بلهجة مشككة فيما يقوله أدهم.
- ثم ماذا حدث؟

أدهم: كانت هناك ممرضة عجوز، بدت لي خائفة، ظلت تتمتم، وهي تنظر لك ولزميلتها، لكني لم ألتقط شيئاً مما قالت للأسف.
الطبيبة: ثم ماذا حدث؟
أدهم: لم أعد أرغب في الحديث.
الطبيبة: اسمع .. أنا آسفة لم أقصد أنك كنت تهذي، ولكن ما تقوله هو مدهش جداً، ويصعب علي تصديقه .. هيا أخبرني ماذا حدث بعد ذلك يا بطل؟
أدهم: شعرت بأني أسقط في نفق، وكل شيء حدث بسرعة، وخارج عن السيطرة، لكني لم أشعر بالرعب.
ساد الصمت للحظة، قبل أن تحثه دلال على المتابعة.
- أنا أُصغي إليك.
أدهم: بينما كنت في النفق، تراءت لي حياتي قبل الحادثة، ورأيت أناساً أعتقد أنهم كانوا موتي.
الطبيبة: موتي؟ ماذا يفعلون هناك؟
أدهم: كانوا يساعدونني على عبور النفق.
الطبيبة: وماذا وجدت في نهاية النفق؟
أدهم: لن أستطيع التعبير عن هذا.
الطبيبة: حاول من فضلك.

أدهم: نوع من ضوء أبيض..هادئ وقوي في نفس الوقت

الطبيبة: حدثني أكثر.
أدهم: كنت أعلم أنني سأموت، وأردت فعلاً أن أغرق في ذلك النور. شعرت برغبة في البقاء، لأنه مكان هادئ وتسوده الطمأنينة، ولكن كان هناك ما يشبه الباب منعني.
الطبيبة: ماذا وجدت أمام ذلك الباب؟
أدهم: لن أستطيع التعبير.
الطبيبة: حاول يا بطل .. أرجوك!
أصبحت نبرة دلال توسلية، وبعد توقف آخر، استطرد أدهم قائلاً:
- كانت هناك كائنات.
الطبيبة: كائنات؟
أدهم: أحدهم فتح الباب ليدعني أدخل إلى النور.
الطبيبة: هل خفت؟
أدهم: لا على العكس .. كنت أشعر بِاطمئنان شديد.

يبدو أن دلال لم تعد تفهم منطق الحديث.
- ولكنك قلت لي، أنك كنت تعرف أنك ستموت.
أدهم: نعم .. ولكن ذلك لم يكن مقلقاً على الإطلاق، ثم فجأة شعرت أنه تُرك لي حرية الاِختيار.
الطبيبة: ماذا تعني؟

أدهم: كان يُتاح لي ألا أموت، إن لم أكن مستعداً.
الطبيبة: واِخترت الرجوع؟
أدهم: كلا .. أردت أن أعبر الباب وأموت. كنت مرتاحاً جداً وسط هذا النور.
الطبيبة: كيف يمكنك قول ذلك؟
أدهم: ربما أردت أن أذوب وسط ذلك النور.
الطبيبة: لماذا؟
أدهم: هذا ما حدث.
الطبيبة: ولماذا لم تمت؟
أدهم: لأنه في اللحظة الأخيرة كان هناك رؤية، وقررت العودة.
الطبيبة: وماذا كانت تلك الرؤية؟
سمع أدهم نفسه يُجيب، بصوت يكاد يكون غير مسموع
- آسف.
الطبيبة: ماذا؟
أدهم: هذا لا يعنيكي.
الطبيبة: ماذا كانت يا أدهم؟
أدهم: هذا لا يعنيكي .. آسف.
الطبيبة: لا مشكلة يا بطل .. لا مشكلة .. لكل منا الحق في أن تكون له أسراره

٢٥ أكتوبر ١٩٩٢

منذ يومين، وأنا لا أكف عن التفكير في كلمات ذلك الصبي، وكيف اِستطاع تذكر كل تلك الأحداث، خاصة فيما يتعلق بتناولي كبسولة دواء أثناء محاولات إنعاش قلبه.
شرحت له وعلامات الذهول تغلف ملامحي، أنها تساعدني على تجاوز ألم قدمي اليمنى، بعد حادثة أصابتني مؤخراً.
مازلت لا أفهم كيف اِستطاع أن يعطيني كل تلك التفاصيل بمنتهى الدقة، حول ما حدث منذ لحظة دخوله الى المستشفى.

كان وكأنه عاد فعلاً من الموت.
لم أسمع شيئاً مماثلاً من فم مريض من قبل. هذا حقاً أمر مشوق. وددت لو أستطيع مناقشته مع بعض الزملاء ولكنني خفت من كمية الاِنتقادات التي يمكن أن توجه لي وإلى ذلك الطفل.

٢٨ أكتوبر ١٩٩٢

خرج أدهم من المستشفى اليوم، بعد أن اعتبرت حالته العامة مستقرة، فلم يعد بوسعي أن أبقيه أكثر.

بالأمس حاولت أن أحصل منه على حديث جديد، ولكنه انغلق على نفسه مثل محار، وأعتقد أنني لن أنتزع منه أي شئ إضافي.
حين جاءت أمه في الصباح لاِصطحابه، سألتها إن كانت تقرأ لأدهم الكثير من الكتب التي تتناول الغيبيات وما وراء الطبيعة، فأجابت بالنفي.
لم ألح عليها كثيراً، وشكرتني واِنصرفت.

*****

حل الليل على الغرفة، وكان الجو بارداً، لكن أدهم لم يشعر بذلك. كان غارقاً في ماضيه، وفي تلك الفترة من حياته التي حاول الهروب منها كثيراً، والتي اِنبعثت أمامه فجأة، ولذلك لم يسمع صوت الباب وهو يفتح.
أشعل أحدهم النور في الغرفة، فقفز أدهم واِستدار نحو الباب.

كانت دلال تقف بعتبة الباب، تنظر إلى أدهم باِندهاش.
- ماذا تفعلين هنا؟ .. سأل أدهم، وهو يغلق المسجل كولد ضبط متلبساً بذنب.
ردت دلال بلهجة ساخرة:
- ألا تعتقد بأنه أنا من يجب أن يسألك هذا السؤال؟
اِنفجر أدهم فجأة يرتعش غضباً.

- لماذا لم تخبريني؟ لماذا أخفيتي عني أنك من عالجتني قبل عشرين عاماً؟

هزت الطبيبة كتفيها قائلة:

- لم أعتقد أنك قد تنسي من أنقذك من الموت!

الحق يقال لقد أغاظني ذلك جداً.

أدهم: الموت؟!

دلال: نعم، لقد مررت بحالة من الموت السريري.

أدهم: هل يمكنك أن تشرحي لي كيف نجوت من الموت؟

دلال: الظاهرة في حد ذاتها ليست فريدة من نوعها، كثيراً ما جري إنعاش أشخاص مروا بتلك الحالة من الموت السريري نتيجة الغرق. في معظم حالات الغرق يموت الغرقى جراء الاِختناق، يُصابون بالهلع، ويحاولون منع رئتيهم من الامتلاء بالماء، فينفذ الأكسجين منها ويموتون اختناقاً.

أدهم: وماذا حدث في حالتي؟

دلال: لا شك أنك تركت الماء يدخل إلى رئتيك، الأمر الذي سبب هبوط حرارة جسدك، فتباطأ قلبك إلى درجة كاد أن يتوقف عن النبض تماماً.

أدهم: وكل تلك الرؤى كانت Near Death Experience «تجربة الاِقتراب من الموت» .. أليس كذلك؟

دلال: نعم .. ولكن الظاهرة لم تكن مقبولة في مصر، وتقابل بكثير من الاِعتراضات الدينية والعلمية. لم أرد أن أفشي الخبر حتى لا تتحول إلى هدف بكل المهتمين بالغيبيات، ولا أن ينظر الناس إليك ككائن غريب، هبط فجأة من الفضاء. لقد كنت مازلت طفلاً في نهاية الأمر. ولكن ما أعلمه جيداً أن هناك آلاف الأشخاص عبر العالم قد مروا بتجارب مماثلة لتجربتك. وقد جمعت ودرست من قبل المجتمع الطبي.

أدهم: وهل وجدت تشابهاً مع حكايتي؟

دلال: نعم .. الكثير منهم تحدث عن خروج طيف من الجسد، ثم نفق مظلم يتبعه وميض هائل، ثم مقابلته لموتى كان يعرفهم، وشعور عام بالاِرتياح، مع إدراك ما يحدث في العالم الحقيقي في المحيط المتواجد به. هذا ما رآه كل من قارب على الموت، أو مات وعاد للحياة.

مؤخراً قرأت عن أحد الصحفيين المصريين الذين مروا بتجربة مشابهة عندما أصيب في حادثة تصادم، تحدث عن غيبوبة مربكة، ثم إفاقة أكثر إرباكاً، وعن الضوء المبهر الذي طغي على المكان، نور أقوى من نور الشمس لكنه لا يحرق. وكيف بدا الوقت بطيئاً جداً، بحيث أتاح له قراءة كل تفاصيل المكان على مهل، سيارات الإسعاف، السيارتان المدمرتان، الذين هرعوا لنجدة المصابين، صديقه المصاب الذي يتوجع، وأشلاء،

وبقايا متعلقات الركاب.

أدهم: وهل هناك تفسير علمي لتلك الحالة؟

دلال: الأبحاث العلمية ظلت عاجزة فترة من الزمن عن تحديد السبب، وكانت معظم التفسيرات نسبية، وأوعزت ذلك إلى نشاط الدماغ الزائد عقب الوفاة. فقد لوحظ أن الدماغ تومض بالنشاط لنقص الأكسجين، بعد توقف القلب بثلاثين ثانية. فالموت لا يحدث مرة واحدة أو في لحظة واحدة، إنه يمر بعدة مراحل، وتستغرق هذه العملية عدة ساعات.

أدهم: ولكن ما تفسيرك أنت لما حدث؟

دلال: لم تحن ساعتك، هذا كل ما في الأمر.

أدهم: ولكن أين كنت آنذاك؟

دلال: في مكان ما بين الحياة والموت ولكنه لم يكن العالم الآخر. يمكننا ببساطة القول أن تجارب العائدين من الموت أقرت أن موت الجسد والدماغ ليست نهاية الوعي، وأن تجربة الإنسان تستمر لما بعد خروج الروح، والأهم أنها تستمر في كنف إله يحب ويهتم بكل واحد منا.

أدهم: ولكن أليس هناك أي شيئ يبرهن على اِستمرار تلك الحالة؟

- هذا هو الحال .. أقرت الطبيبة

ومثلما فعلت دلال في الماضي، حاولت أن تنتزع الأسرار من أدهم:

- قل لي ماذا كانت تلك الرؤية، التي قررت من أجلها العودة؟

تكدر وجه أدهم:

- لا أُريد أن أتذكر.

دلال: هيا .. أنا بحاجة إلى أن أعرف .. ألا تفهم؟

أدهم: قلت لكي لا أريد.

أدركت أنها لن تحصل من أدهم على شيئ، في النهاية كان إحجامه عن الكلام مفهوماً. لقد قارب على الموت بعد غرقه، وعاش تجربة شديدة الغرابة، بحيث يصبح من الطبيعي أن يحرص على الاِحتفاظ لنفسه بجزء من ذلك اللغز.

أدار أدهم رأسه نحو النافذة، كان الطقس لايزال عاصفاً وكانت الريح تهب من كل الجهات. بدا كل شيئ في الخارج كثيفاً وسميكاً جداً، بحيث لا يمكن أن يري أي شيئ عبر زجاج النافذة، ولم يكن من الوارد مجرد التفكير في الخروج في تلك اللحظة.

هز أدهم رأسه وغمغم وكأنه يتحدث إلى نفسه :
- المستبصرون! لقد قرأت بعض القصص عن ذلك الهراء.
ترددت دلال في الكلام، كانت مدركة للصدمة العاطفية التي تعرض لها أدهم للتو.
- ألم تعد متشككاً؟ .. سألت بحذر.
أدهم: أنا مذهول .. ماذا تظنين؟ هل أقفز فرحاً لأنني الشخص التالي على القائمة؟!
دلال: هل تخاف الموت يا صديقي؟
أدهم: المشكلة ليست في الخوف من الموت نفسه، أنا أعلم جيداً أن الموت نقطة اِنطلاق لحياة أخري، علينا جميعاً أن نمر بها، هذا ما أخبرنا به ديننا الذي نؤمن به. خوفي الحقيقي من أن يأتي قبل أن أكون مستعداً للقاء الله، من أن يأتي قبل أن تجمعني الحياة بمريم مرة أخري.
ردت دلال
- يموت المرء في اللحظة المقدرة له .. هذا كل ما في الأمر.
أدهم: لست مهيأ بعد يا دكتورة. لا زال لدّي أحلامٌ لم أحققها، وأماكن لم أزرها بعد، وكلمات لم أجد الفرصة لقولها. لازال لدي الكثير لم أفعله. لا أريد أن تنتهي حياتي هكذا.

لا أريد الموت وفي داخلي الكثير من الأحلام تتقاتل. حقاً لا أريد.
تنهدت دلال وقالت:
- نادراً ما نكون مهيئين للموت يا صديقي.
صرخ أدهم فجأة:
- يجب أن يُترك لي مزيد من الوقت .. أليس هناك من شيئ يمكن أن أفعله؟
دلال: لا تحاول مجرد التفكير في ذلك.

أشعل أدهم سيجارة، وسحب منها نفساً طويلاً.
- إذا أخبريني بكل ما تعرفين عن هؤلاء المستبصرين، يبدو لي أن من حقي أن أعرف.
دلال: القصة كلها أنه يمكنني أن أستشعر مسبقاً من سيموت، ولكن ليس لدي قدرات أخري.
أدهم: لست الوحيدة الممنوحة تلك الهبة .. أليس كذلك؟
دلال: بالتأكيد .. علمتني التجربة أن هناك آخرين.
أدهم: وكيف تتعرفون على بعضكم البعض؟ أقصد فيما بينكم.
دلال: ليست هناك أي علامات ظاهرة، غالباً يكفي أمر بسيط، تبادل حديث أو نظرة، أنت تفهم.

وقبل أن تسأل فالمستبصرون، مجرد بشر عادية مثلك تماماً دون أي قدرات خارقة.

أدهم: ولكن كيف يبدأ الأمر؟ هل يستيقظ المرء ذات صباح ليقول لنفسه: اليوم سأصبح مستبصراً؟

ظلت دلال تُراوغ و تتهرب، ثم قالت:

- حين يحدث ذلك ستعرف.

أدهم: من كان على علم؟

دلال: ينبغي ألا يعرف أحد أبداً. هل ترغب في العيش مع إنسان يمتلك تلك الموهبة؟

أدهم: هل هذا أمر يختاره المرء؟

دلال: إنها أمور صعبة الرفض، كما لا يمكنني القول أن المرء يختارها.

أدهم: ولكن كيف يُختار المستبصرين؟ أهو ثواب أم عقاب؟

تغيرت ملامح دلال وترددت طويلاً

- صدقني أنا نفسي لا أعرف.

أدهم: ساعديني أرجوكِ.

دلال: لا أعرف أكثر منك عن تلك الغيبيات .. إنها تقع في نطاق الإيمان.

أدهم: إذا بماذا تنصحينني؟

دلال: أرجوك أن تحاول مرة أخري مع مريم.

أدهم: ولكن...

قاطعته دلال: حديثك السابق عنها، يؤكد أنك لازلت مغرماً بها. إنها من يجب أن تكون بجواره في ذلك الوقت.

هز أدهم رأسه باستهجان، وقال:

- نعم، سأذهب إليها وأقول: صباح الخير يا مريم، هيا يجب أن نحاول إصلاح الأمور، فأنا في طريقي إلى الموت .. قالها بلهجة ساخرة، أعتقد أن هذه ليست اللحظة المناسبة يا دكتورة.

دلال: لقد تذكرت أمراً يا صديقي.

بدت علامات التلهف على أدهم لما ستقوله.

- أثناء تواجدك في المستشفي، ومنذ اليوم الأول، كانت مريم تأتي لزيارتك كل صباح، تجلس صامتة في ركن من الغرفة تنظر إليك وأنت نائم، ثم تقبلك وتذهب. وفي اليوم الثالث، أتت بدمية صغيرة، ووضعتها بجوارك. ثم سألتني عن حالتك، وإن كنت ستنجو وأخبرتني أنها ستعود إلى القاهرة مع والدها.

أدهم: كيف يمكنك تذكر كل هذا؟

دلال: لأن هذا كان مبهراً جداً يا صديقي. لقد تركت دميتها الصغيرة لترعاك بعد رحيلها.

أدهم: في كل الأحوال، لا تبُنى العلاقات على بعض ذكريات الطفولة، إن علاقتي بمريم معقدة جداً.
دلال: على الأقل يمكن أن تحاول.

نهضت دلال من مقعدها وسحبت معطفها.
أدهم: إلى أين؟
دلال: سأعود إلى تورنتو.
أدهم: في هذا الوقت المتأخر؟ الطقس سيئ جداً بالخارج.
دلال: لدي عملية جراحية هامة في الصباح، كما أن الثلوج التي ستتراكم أثناء الليل، ستعيق من حركة السيارات في الصباح، لذا من الأفضل العودة الآن.

قبل أن تخرج من الباب، اِلتفتت إلى أدهم وقالت:
- لا تنس أن تضع المفتاح في صندوق البريد، وستجده في مكانه إذا حاولت العودة مرة آخري، بدلاً من اِستخدام باب المطبخ كاللصوص.

اِستغرق أدهم في تأمل النار التي بدأت تخفت في المدفأة، وكل ما يجول في خاطره، كيف يمكن لدلال أن تكون غارفة في تلك البيئة الكئيبة في منزلها، ومع ذلك تواصل الاِبتسام طوال الوقت وتوزيع الأمل على مرضاها.

بدأ أدهم يشعر بإلحاح الوقت، قال في نفسه أنه عليه هو أيضاً أن يقاوم. نعم كان لايزال مصدوماً، ولكنه لن يبق واقفاً مكتوف اليدين. من قال أننا نمتلك رفاهية الوقت لتصحيح الأخطاء.

اِتجه أدهم إلى غرفة الذكريات الخاصة بالطبيبة، والتي تحتوي على كل الملفات الطبية. كان البرد في تلك الحجرة رهيباً، لأن التيار الكهربي قد اِنقطع قبل خروج دلال بدقائق.

اِستخدم أدهم هاتفه المحمول في إنارة المكان. شعر أدهم أنه في معرض للجثث المجهولة، محاطاً بمصائر عشرات الأحياء المقبلين على الموت.

اِستولي على شريط الكاسيت، وسجله الطبي الذي يوثق لحالته أثناء تلك الفترة. وقبل أن يخرج لم يتوان عن نبش بقية الصناديق، لم يكن يعرف تماماً عما يبحث. لاحظ أن هناك، عدة صناديق تحمل اسم الدكتورة دلال سالم نفسها.

فتح الصندوق الأول، وبالداخل كان هناك الكثير من صور زفاف دلال، وزهرة جافة، ودعوة زفافها، وصور قديمة يبدو أنها من شهر العسل، وتذكرة قطار، وتذكرة باخرة، وكعب تذكرة سينما من موعدهما لأول، وفاتورة مطعم، وحذاء صغير، وكلمات متقاطعة محلولة بالكامل من جريدة الأهرام وجميعها مرتبة بنظام.

- يا إلهي، ما كل تلك الأشياء التي تحتفظ بها تلك المرأة!

سحب صندوق آخر، تربع على الأرض ليتفحص محتوياته، تقارير مدرسية قديمة وباهتة تخص طفلة في المرحلة الابتدائية. ربطة عنق صغيرة، سِنة صغيرة، خصلات شعر من أول زيارة لمصفف الشعر، ورسالة بريدية في مظروف، وضع عليها طابع البريد، لكن يبدو أنها لم ترسل.

كان الفضول يقتله لمعرفة ما تحمله تلك الرسالة، فتحها وسحب الورقة المكتوبة بخط اليد:

طفلتي العزيزة ميما ..

آسفة على قراري الذي اتخذته. عندما نلتقي مرة أخري، أتمني أن تتفهمي أن هذا القرار كان أصعب قرار اتخذته في حياتي، وأن دافعه كان حبي وخوفي الشديدين عليكِ. إنني أثق أنك في مكان أكثر سلاماً وأمناً الآن. لازلت أتخيلك أثناء تمارين السباحة، كنت أعتقد أن الموت سيتجنبك، وأنك ستصبحين معجزة طبية ستترك أطباء العالم كلهم في حيرة من أمرهم.

لقد مضي عام تقريباً على رحيلك عني. أشتاق إليك كثيراً.

بالأمس كان عيد ميلادك يا ميما، وقد ...

ولكن الرسالة كانت قد انتهت هنا.

كان فضوله يزداد في معرفة محتويات الصناديق الأخرى.

سحب صندوقاً آخر، وأمسك بالملف الموضوع على قمة كومة الوثائق. كان الملف الطبي لابنتها، ويحمل الكثير من التفاصيل حول اكتشاف إصابتها بالسرطان.

كانت الوثائق الأخري تشير إلى الصراع الذي خاضته دلال ضد مرض ابنتها، منذ اكتشاف المرض وحتى وفاة ابنتها بعد ذلك. التحاليل الطبية، الأشعة، الوصفات الطبية، تقارير الجراحة التي خضعت لها ثم شهادة الوفاة.

أسفل تلك الوثائق كان يوجد مجلد سميك، يحوي الكثير من الصور.

هل من حقه أن ينتهك حرمة الحياة الخاصة لتلك المرأة؟

ليس هناك أسوء من اقتحام حياة الآخرين دون دعوة منهم.

النبش في متعلقات دلال شيئ، ولكن العبث بألبوم ذكرياتها، والتي غالباً ما ستتضمن الكثير من المشاهد العائلية شيئ آخر، أغلقه بسرعة.

سيطرت سطوة الرغبة وفضول المعرفة عليه، لم يكن أدهم شخصاً فضولياً بطبعه، ولكن ربما كتبت دلال شيئاً عن تلك الفترة، قد يستفيد منها أدهم فهو في نفس الموقف تقريباً.

تحت سطوة تلك الرغبة، فتح المجلد مرة أخري وتصفحه.
الكثير من الرسومات الفنية، مقالات مقصوصة من الصحف حول أمراض السرطان، وأزهاراً يابسة.
لم يكن هناك شيئ يدعو للبكاء، كانت معظمها صور تجمعها بِابنتها وزوجها. قرأ بانتباه بعض الملاحظات التي ارتكزت حول فكرة واحدة:
إدراك الموت القادم يحثنا على الاِهتمام بالبشر، والعيش بطريقة مختلفة، ومحاولة الاِستمتاع باللحظات المتبقية لنا معهم، والاِستعداد لبذل الكثير في محاولة تصحح الأخطاء.

خلف إحدى الصور التي تمارس فيها اِبنتها رياضة الجري، كتبت «اِركضي سريعاً جداً يا ميما، ربما لن يلحق بك الموت أبداً».
كما كانت هناك الكثير من الأسئلة المطروحة على صفحات الألبوم، ولكن كان سؤال واحد تكرر على نحو خاص :
« هل هناك مكان نهرب إليه من الموت؟».

استكمل أدهم تصفح باقي الوثائق، إلى أن عثر على دفتر يوميات دلال الخاص.

١٧ ديسمبر ١٩٩٠

اليوم أعود إلى تدوين يومياتي بعد أن انقطعت عنها لفترة طويلة. لقد اِعتقدت دوماً أن معايشة السعادة أهم كثيراً من محاولة توثيقها وما شعرت به مع جمال طوال السنوات الماضية، وخصوصاً بعد أن رُزقنا بميما، كان شيئاً يفوق أي محاولة لتوصيفه أو توثيقه. الآن أعود للكتابة في محاولة لتوثيق اللحظات الحزينة والخيبات التي مررت بها مؤخراً في محاولة للتحرر منها.

عندما يكتب المرء مذكراته، فلا يجب أن يقرأها إلا بعد سنوات طويلة من كتابتها. فالكلمات التي كتبت منذ ثلاثة أيام يمكن أن توقع في النفس شعور عميق بالحزن والخجل من ذاته إن قرأها، بينما نفس تلك الكلمات يمكن أن تصبح معجزات، إذا ما أعاد المرء قراءتها بعد عدة سنوات.
أعترف أنني داومت على تدوين يومياتي في فترة المراهقة، لكنني توقفت عن فعلها بعد هذا ولا أتذكر السبب. غالباً كان الملل، فأنا شخصية ملولة للغاية. ولو كان التنفس أو دقات القلب بإرادتنا، لكنت غالباً، توقفت عن فعلهما منذ زمن. عموماً لن أخسر شيئاً لو جربت (أعتقد)، ولن تسوء الأمور (أتمني)، لن تسوء أكثر مما هي سيئة بالفعل (ربما).

ربما تساعدني الكتابة على إستيضاح الأمور قليلاً.
أتمنى حقاً.

١٨ ديسمبر

لم يحدث شيئ يستحق الذكر، مجرد يوم روتيني مكرر بالعمل والمنزل. عادت «ميما» من مدرستها مقطبة الجبين، وقضيت الكثير من الوقت في محاولة إستدراجها لمعرفة سبب عبوسها، ثم المزيد من الوقت لإخراجها من تلك الحالة. تشاجرت مع فتاة معها بالصف، أحد شجارات الأطفال في هذا السن، ولذلك ليست نهاية الدنيا، لكن بالنسبة لها كان الموضوع مأساوي للغاية. وعندما بدأت حالتها النفسية تتحسن قليلاً، بعد أن خرجنا للتمشية قليلاً وشراء المثلجات، كانت طاقتها السلبية قد إنتقلت لي كأنها عدوي سحرية، لهذا لا أشعر بالكثير من السعة النفسية أو النشاط الكافين للكتابة اليوم.

لماذا أشرح نفسي أصلاً؟ لا أعلم، أشعر أنني مجنونة لفعلي هذا، لكن عزائي الوحيد هو أن لا أحد آخر سيطلع على تلك السخافات (باستثنائي أنا، غالباً).
لا أعرف سبباً لهذا الفراغ الذي ينهشني. المفترض أنني أمتلك

عائلة رائعة يحسدني الكثيرون عليها، ولدي كذلك وظيفة ذات مغزي، وكل تلك الشعارات البراقة.
لماذا إذاً أشعر بكل هذا الخواء؟!

كثيراً ما تكون الحياة مفتقرة للعدالة. أعرف، لكنني وكثيرين مثلي بالتأكيد، نعيش يوماً وراء الآخر منتظرين ذلك الحدث الذي سيغير كل شيئ للأفضل، ويعيد الأمور لنصابها الصحيح. الفنان الشهير الذي سيكتشف أي رسامة عظيمة أنا مثلاً، عندما كنت أحب الرسم قديماً، أو العازف الناجح الذي سيسمعني مرة بالصدفة أعزف على البيانو الذي صرت مغرمة به حديثاً، لكن أياً من هذا لم يحدث!

١٩ ديسمبر

بدت «ميما» متعبة صباح اليوم. ظننتها في البداية تحاول التظاهر بالمرض للهروب من الذهاب للمدرسة، لكن جبينها كان يغلي حرفياً، لهذا أسرعت بها للمستشفي حيث إكتشفنا بعد الكثير من الفحوصات الطبية وجود جسم غريب بمنطقة المعدة. تأملت الظل الغريب الظاهر بالأشعة، في إنتظار النتيجة التي سيسفر عنها التحليل بعد أن أخذنا عينة منه.

جلست صامتة متوترة بغرفة الانتظار. حاولت قتل الوقت بعد رقع السيراميك التي تفترش الأَرضية تحت قدمي.
لم أستطع أن أخبر جمال في حينها. كل معلوماته أنها متعبة قليلاً، وأنني اِصطحبتها لإجراء بعض الفحوصات ورؤية طبيب الأطفال، فلم أجد هدفاً لإثارة قلقه دون طائل، ليس قبل أن أتيقن ما خطبها. سبعة عشر قطعة سيراميك عددتها للمرة المائة، قبل أن تدخل الممرضة لتستدعيني لاِستلام نتائج التحاليل الطبية!
اِلتقطت الملف الذي زينه شعار المستشفي بيدين مرتعشتين، ومررت بعيني ببطء على الكلمات المتراصة، التي أعلنت بشكل قاطع ما كنت متخوفة منه منذ أن رأيت ذلك الظل الغريب الموجود بالأشعة التي خضعت لها مبكراً.

التحاليل أظهرت وجود ورماً بالمعدة!
في تلك اللحظة غادرتني صفة الطبيبة، لم أستطع فهم أو تقبل كيف يمكن أن يصاب أطفال في سنها بمثل هذا النوع من الأورام. نتيجة التحاليل كانت واضحة. الورم كبير الحجم، ويجب أن تخوض عملية جراحية لاِستئصاله سريعاً قبل أن يستفحل ويحتل المعدة بأكملها.

الآراء الطبية متضاربة حول بروتوكول العالج الأمثل، فحالتها الصحية بدأت في التدهور بشكل غريب، ويجب على أن أتخذ القرار.
يري الأطباء أن عملية جراحية يمكن أن تُحسن من حالتها الصحية. نسبة نجاح العملية معقولة، ولكني أعلم جيداً خطورة الجراحة، والمضاعفات التي يمكن أن تحدث أثنائها قد تودي بحياتها على طاولة العمليات.

ولكن ماذا لو نجحت؟ ربما ستكون هناك فرصة لإطالة عمرها حتى أتمكن من رؤيتها في فستان زفافها.
كيف يمكنك أن تقرر مصير أحب الأشخاص إلى قلبك؟
كيف يمكنك أن تتحمل تلك المسؤولية؟
ماذا لو أصابها سوء أثناء الجراحة؟
ماذا سأقول لزوجي بعدها؟

كان زوجي متخوفاً من إجراء عملية لها في هذا السن الصغير لكنني أصررت. لدينا بعض الجراحين المهرة الذين يمكنهم إجراء تلك الجراحة. لو تجاهلنا الموضوع من الممكن أن يتطور بعد هذا وسيكون من الصعب إجراء الجراحة. وافق على مضض وبدا غير مقتنع.

تم تحديد موعد العملية ليكون بعد عدة أيام. أتمني أن تسير الأمور جيداً. آخر خواطري قبل أن أغيب في النوم كانت دعوات لله أن ينتهي الموضوع على خير.
آه يا ربي .. ساعدني لأتخذ القرار المناسب.

٢٣ ديسمبر

تم تحديد موعد العملية ليكون ظهر اليوم.
بعد الفجر مباشرة، انتهزت فرصة نوم ميما، وذهبت إلى المنزل لإحضار بعض الملابس والأغراض. وفي محاولة للسيطرة على القلق الذي غزاني منذ اللحظة التي اكتشفنا فيها وجود ذلك الورم، قمت بتحضير كوب من القهوة وجلست أرتشف منه وأفكر في كل ما ينتظرني من ساعات عصيبة.

من حسن الحظ أن جمال لم يستطع الحضور إلى الإسكندرية، نظراً لتواجده في باريس لحضور بعض الاجتماعات الهامة. أدرك أن الجراحة معقدة، ويمكن أن ينتج عنها الكثير من المضاعفات. سأكمل التدوين في المساء بعد الجراحة. أتمني أن يكون لدي أخبار جيدة.
أرجوك يا الله.

وجد أدهم مجموعة أوراق منفصلة يبدو أنها كتبت لاحقاً.

في تلك الساعة، كان الشارع موحشاً وفارغاً من البشر بشكل يبعث على الاستغراب. خرجت مسرعة من باب البناية التي أقطنها، وتقدمت بضع خطوات على الرصيف في اِنتظار تاكسي يقلني إلى وجهتي.

فجأة اِلتفت مذعورة إثر صوت فرملة قوية لسيارة أجرة، ظهرت من العدم وحلت كهبوب إعصار ضرب الشارع على بعد عدة أمتار مني.
غريبة..
لم تكن السيارة من نوع لادا التقليدي والشائع في سيارات الأجرة بمدينة الإسكندرية، بل كانت أكثر قدماً. سيارة صفراء عتيقة من نوع البيتلز، اقتربت من السيارة في حذر.
- هل تودين أن أقلك إلى مكان ما؟
كان السائق نوبياً يرتدي جلباباً أبيض، وطاقية بيضاء فوق رأسه.
تراجعت خطوتين إلى الوراء مرتابة من شكل الرجل، ولكن لكوني في عجلة من أمري للحاق بالمستشفي، فتحت باب السيارة ودلفت إلى المقعد الخلفي.

في الحال اِنطلق السائق، دون أن ينتظر مني تحديد وجهتي المقصودة. لكنني كنت متوترة الأعصاب لكي ألتفت لتلك النقطة في حينها.

ما أن استويت في جلستي، حتى انتبهت إلى أن تلك السيارة لم تكن تحمل علامة التاكسي فوق سقفها، وعندما نظرت لجانب عجلة القيادة، وجدت أنه لا يوجد بها عداد، فبدأت أتوجس خيفة من الورطة التي يمكن أن أكون قد أوقعت نفسي فيها، وأنا على عجلة من أمري للحاق بميما في المستشفى. فقد نما إلى سمعي بعض القصص عن سيارات الأجرة، التي تستخدم للإيقاع بالركاب بغرض سرقة ما بحوزتهم، ولكنني سرعان ما استبعدت تلك الفكرة، إذ أن سائق بتلك الهيئة لا يضمر أي عدوانية تغذي تلك الشكوك، لكن شيطاني لم يلبث أن تدخل ليوسوس لي أن هذا بالضبط ما يريدني أن أظنه لكي لا أخذ حذري منه، ربما لديه شركاء في مكان منتظرين ظهوره بالسيارة. ابتلعت ريقي في توتر، بينما أظهر السائق العجوز بعض اللطف والود معي، كأنما قرأ الشكوك التي على وجهي.

- يوم صعب، صح؟

سألني، وهو يرمقني من خلال المرآة الداخلية للسيارة.

- هه.. نعم، أتمنى أن يمر على خير.

أجبته وقد أربكني السؤال.

رمقته بنظرة حادة ومتفحصة، فلمحت الوشم الموجود أعلى يده، بدا غريباً وبلغة غير مفهومة. كيف لرجل في سنه أن يضع وشماً كهذا؟!

- يبدو لطيفاً هذا الوشم. هل تلك كلمات أم مجرد تصميم يشير لشيئ ما؟

- إنها كلمات باللغة السنسكريتية، تعني «الأمل، الإيمان، والشجاعة» .. بمناسبة الحديث عن الأمل والإيمان: كيف حال ابنتك؟

بادرني فجأة بصوت هادئ ومطمئن.

- ماذا؟

- ابنتك، هل حالتها الصحية مطمئنة؟

شعرت برجة في أعماقي، من أين له تلك المعلومة؟

- عما تتحدث؟

- أنت أعلم بما أقصد.

- هل ركبت معك من قبل؟

سألته، وأنا أستحضر صورة ابنتي المتمددة على سرير المستشفي في انتظار إجراء الجراحة.

لم يبادر السائق بأي جواب، لكنه قال مُهمهماً كأنه يتحدث لنفسه:

- ليس بوسعنا معاندة القدر المحتوم، وليس بوسعنا تأجيل القضاء.

تنهدت مذعورة مما قاله السائق للتو، وحولت نظري لمرآة السيارة الأمامية، وقد علقت عليها سبحة معقودة من حبات الصدف وتتدلي متأرجحة وسط الواجهة الزجاجية للسيارة، وأنا أستمع له وهو يتابع كلامه:

- الاعتقاد في القدرة على مواجهة القدر أو تأجيل القضاء مجرد وهم.

هززت رأسي بالإيجاب دون إجابة، لأني لم أجد بداخلي طاقة للحديث، وفتحت زجاج النافذة لاستنشاق قليل من الهواء الرطب، تاركة إياه يسترسل في حديثه:

- لو كان مقدراً لإنسان أن يموت؟ فهل تعتقدين أنه بإمكاننا إنقاذه مهما أوليناه من عناية؟

قُلت:

- إذاً نحن مسيرين، ولسنا مسؤولين عن أي شيء في حياتنا. أهذا ما تقصده؟

تمهل السائق قليلاً للتفكير قبل أن يرد على سؤالي بصوت وقور:

- أنا أؤمن بوجود قدر، لا يمكن بأي شكل خرقه أو تحريفه عن مساره.

- هل تؤمن حقاً في كون الأمور مكتوبة كلها سلفاً؟

سألته باستخفاف واضح.

- بالضبط. إن الزمن مثل صفحات الكتاب، فأنت في اللحظة التي تقرئين فيها صفحة معينة تكون الصفحات القادمة مكتوبة سلفاً.

- وكيف نتعامل مع الصدفة؟

هز السائق رأسه مجيباً:

- أعتقد أنه لا وجود لشيئ اسمه صدفة، أو لنقل أن الصدفة هي إحدى صور إرادة الله.

- وماذا عن حرية الاختيار؟

سألته في عدم ارتياح، لأنني لم يعد يعجبني مسار الحديث.

حاولت النظر لكورنيش البحر المجاور، والطريق الأسفلتي الذي بدا أمامنا وكأنه بلا نهاية. حاولت استنشاق رائحة البحر في محاولة لصرف تفكيري عما قاله للتو، لكن صوته يصمم على اقتحام عقلي، ويطغي على كل شيء آخر يحدث من حولي. ارتفع صوته الهادئ بنبراته المتأنية:

- ما نراه حرية اختيار ليس إلا مجرد مظهر خادع، مجرد وهم سام يجعلنا نعتقد في القدرة على التصرف في الأشياء والتي هي في الحقيقة خارج إرادتنا.

وجدت نفسي أحفظ ذلك الخطاب عن ظهر قلب. فهو أحد الحيل النفسية، التي يلجأ إليها من يرفضون الاعتراف بجرمهم في وقوع أحداث مأساوية، لكن أي جرم مكبوت يؤرق هذا الرجل؟

جلت ببصري أتفحص السيارة. مقصورة السيارة الأمامية مليئة بلعب ودمي صغيرة من أشكال مختلفة، مع صورة لطفل صغير في إطار خشبي موضوع على لوحة القيادة.

- هل هو ابنك؟
- نعم .. إنه داود.
- كم عمره؟
- سبع سنوات.

ترددت في طرح المزيد من الأسئلة. ولكنني فجأة سألته:

- توفي؟ أليس كذلك؟

هكذا وجدت الكلمات تنفلت من بين شفتاي.

- نعم .. أكد السائق، متابعاً بصوت خافت لا يكاد يُسمع، مات قبل ثلاث سنوات.
- ماذا حدث بالضبط؟ هل كان مريضاً؟

لم يرد السائق في الحال، ليترك فسحة طويلة من الصمت، وقد اِنصب تركيزه على الطريق، وكأنه لم يسمع سؤالي، أو كأنه سمعه، لكنه قرر عدم الإجابة، فلم أسأل مرة أخري. لابد أنه موقف مؤلم للغاية.

لكنني وجدته بعد لحظات، يحاول بصعوبة اِستحضار تفاصيل حكايته الموجعة، كاشفاً بحرقة وبصوت متقطع، بعض ما ترسب في أعماقه من بقايا ذكريات دفينة ومؤلمة. وأجاب:

- نعم .. لقد اكتشفنا إصابته بمرض سرطان الدم الحاد وهو في سن الثالثة، بدأ المرض ينخر في جسده بمرور الوقت إلى أن فارق الحياة. بموته استبد بي ألم عصي عن التفسير. وحين رحلت زوجتي التي لم تغفر لي ما حدث لداود، أشرفت على الموت مراراً بدوري، وبقيت على هذه الحالة إلى أن تيسر لي الفهم.
- ماذا فهمت؟ .. سألته بهدوء.
- أن هذا هو قدَره، وأنه الثمن الذي يجب أن أدفعه.
- الثمن؟
- نعم .. لقد كان مقدراً له أن يموت، وكان قدري أنا أن أصاحبه في رحلته نحو الموت.

كانت السيارة لا تزال تواصل طريقها، قاطعة طريق الكورنيش في اِتجاه قلعة قايتباي، واِستطرد السائق قائلاً:

- إنه قدر بعض البشر أن يصاحبوا أقرب الأشخاص إليهم نحو الموت. أعلم أن الأمر في الواقع أقسى مما تبدو عليه الكلمات. لكني أؤمن أن أجل وقدر كل إنسان محدد بشكل مسبق، وكل ما نستطيع أن نفعله، هو أن نساعدهم في اِتخاذ تلك القفزة نحو الموت في هدوء وسكينة.

ظللت أستمع له في اِرتياب، بدا لي يقيناً أنه أنشأ لنفسه قوقعة ممتلئة بأحاديث القضاء والقدر، ليتيح لنفسه مواصلة الحياة في منأي عن أي شعور بالذنب أو إحساس بالألم الناتج عن موت ابنه.

- هل يمكنك أن تفسري لي أمراً؟

- بالتأكيد.

- لماذا لم تحددي وجهتك المقصودة حين فتحتي باب السيارة؟ .. باغتني سؤاله، وتنبهت لكونه على حق في تلك النقطة.

- لا أعلم في الحقيقة. ربما لأني لا أريد أصلاً أن أذهب إليها.

- ألم ينتابك التوجس مني؟ كان بإمكاني في هذا التوقيت

الإيقاع بك، وسلبك كل ما في حوزتك؟

هززت رأسي قائلة:

- كيف ينتابني التوجس من ملامح تبعث على الاطمئنان والثقة؟

في هذه الأثناء، بدا لي أن علاقة توطدت بيننا على نحو غريب. ألقيت ببصري من نافذه السيارة وأحسست بغتة بالانقباض: المستشفي الأميري . هل هذه مجرد صدفة أيضا؟!

لم يدم تساؤلي طويلاً، إذ جاء الرد سريعاً حين توقفت السيارة بالضبط أمام باب المستشفي. بقلق واستغراب ملت إلى الأمام نحوه وسألته:

- بالله عليك، قل لي من تكون؟

- صالح، مجرد سائق تاكسي يحاول مساعدتك.

- ولكن لماذا جئت بي إلى هنا؟ كيف تسني لك أن تعرف وجهتي؟

ترجل صالح من السيارة، وفتح الباب الخلفي للسيارة. نهضت من مقعدي غاضبة ومرتابة من كل ما حدث، وانتصبت واقفة أمام ذلك السائق النوبي ذي القامة الفارعة فيما يشبه المواجهة، لكنه في تلك اللحظة بدا لي أكثر صلابة وأقل وداً.

ودون أن يفقد صالح رباطة جأشه، عاد إلى مقعد القيادة وأدار مفتاح المحرك دون أن ينبس بكلمة.

- لكنك لم تقل كيف عرفت؟ .. صحت به وأنا أضرب باب السيارة بقبضتي.

وهو على أهبة الاِنطلاق، فتح صالح زجاج النافذة، ورد على تساؤلي ببداهة:

- يوماً ما ستفهمين، إنها رسالة.

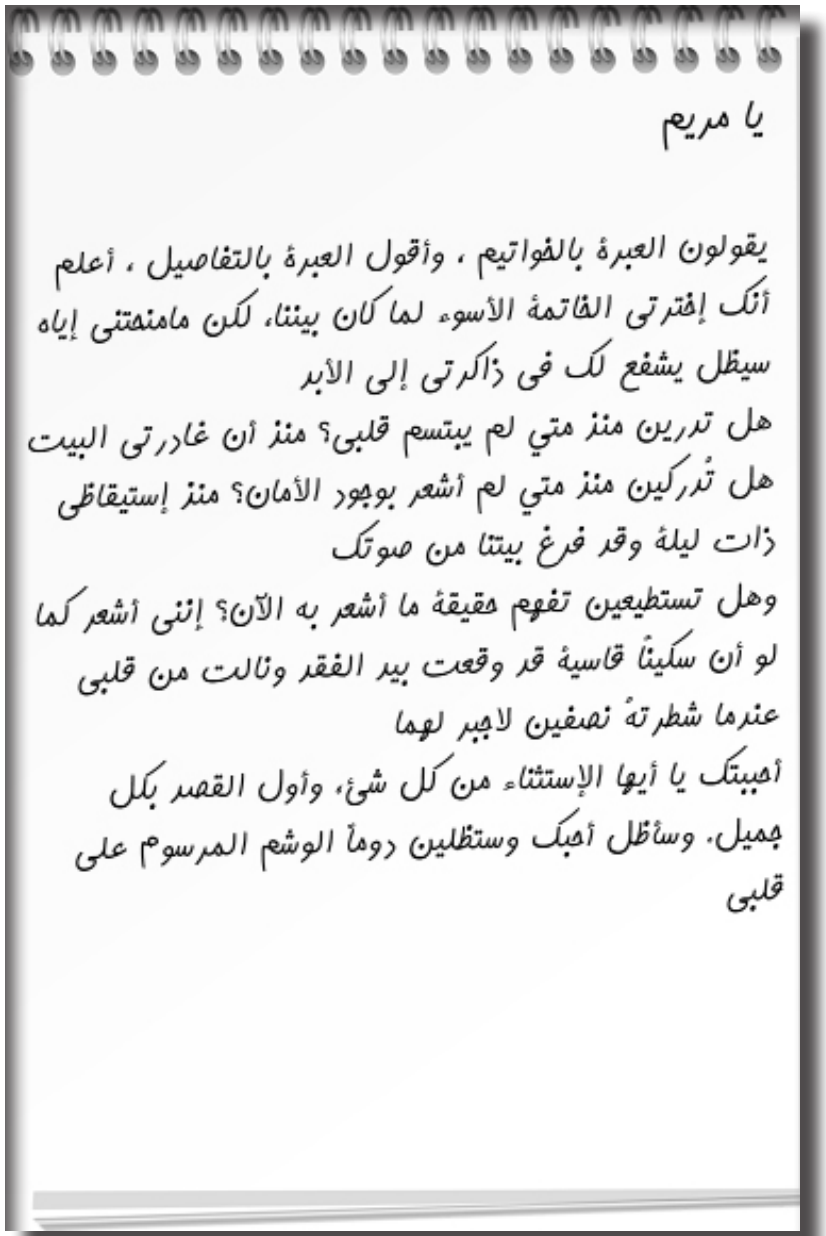

الفصل الرابع عشر
«الموت»

قاد أدهم سيارته وسط الثلوج المتساقطة عائداً إلى تورنتو، لقد كانت ليلة قاسية بكل المقاييس.
أغرقته كل تلك الأسرار التي اِكتشفها عن دلال وحياتها في موجة من القلق النفسي، مشوبة بإحساس فظيع من فقدان السيطرة على حياته.

كثيراً ما كان يتذمر من حياته، الكثير من ضغط العمل، والسفريات المتتالية دون أن يأخذ قسطاً من الراحة، الضرائب الكبيرة المفروضة في كندا، كبرياء مريم وعنادها.

تتالت الأسئلة، وبدأت الكثير من التفاصيل والذكريات في التضارب في رأسه، حتى بدأ يشعر بالتعب، وأدرك أنه لا سبيل للهروب من الموت، ويجب عليه أن يتقبل أن ذلك سيحدث قريبا.

لو كان الهروب ممكناً، لكان قد سمع بأحد فعلها، لم يستطع كائن أي كان أن يهرب من الموت أو أن يهزمه.
إنه المكان الذي لا يرغب إنسان في زيارته، ومع ذلك هو المكان الأكثر اِستقبالاً للمهاجرين من كل مكان، إنه المكان الذي يسافر الناس إليه بلا توقف. يسيرون جميعهم في طرق مختلفة تقودهم إلى نفس المكان.
البعض رحلاتهم طويلة، تمتد إلى عشرات السنين، والبعض الآخر رحلاتهم قصيرة، يصلون أحياناً إلى هذا المكان قبل أن تبدأ الرحلة أصلاً.

المكان الذي يعج بالبشر، المليارات منهم منذ بدء الخليقة، ورغم ذلك هناك متسع دوماً للجميع. يموت فجأة مليون إنسان في وباء أو في حرب، يصلون إليه فوراً. وهو لا يجد صعوبة في اِستقبالهم، دوماً في اِنتظارهم، ويعلم أنهم مهما تأخروا، فلن يستطيعوا الهروب منه إلى مكان آخر.

-لكن ماذا سيحدث بعد أن يموت؟

بدأ يشعر برجفة في داخله، تمني في البداية، ألا يكون ما يقال عن الموت صحيحاً، فذلك يعني أن هناك من سيأتي ويعذبه، وأنه سيعيش حتى قيام الساعة، وهو يعاني من عذابات القبر، أو قد يأتي بعض الملائكة ليسألوه عن إيمانه.

كيف سيتمكن حينها من التماسك، ليتأكد أنه سيعطي الإجابات الصحيحة؟!

أصابته كل تلك الأسئلة بالهلع والحيرة، لكن شيئاً واحداً بات مؤكداً، وهو أن كل شيئ سينتهي: طموحه الوظيفي، سفرياته المتعددة، إمكانية اِستعادة علاقته بمريم.

- نعم .. مريم! .. دوماً ينتهي كل شيئ بالتفكير فيها.

قرر أن يهدأ، واسي نفسه بأنه حتى وإن تبقت له أيام معدودة، فيمكنه المحاولة مرة أخري. فهو يعلم جيداً أنه بهذه الطريقة لن يستطيع التفكير في أي شيئ إيجابي، لن يستطيع أن يستخدم عقله، ومخاوفه تستنفد طاقته.

رغم مروره بتجربة الاِقتراب من الموت أثناء طفولته، إلا أنه لم تكن لديه فكرة واضحة عما يمكن أن يكون عليه الأمر. كان يفضل أن يفكر في الأمر كما لو كان الموتي ينتقلون إلى مكان آخر. وكأن ما نمر به في حياتنا ليس إلا مرحلة ولادة، نخرج

من بعدها عابرين ذلك الباب إلى ذلك العالم حيث نلتقي بكل من ماتوا قبلنا.

سيتحدث بعضهم عن اللحظات التي سبقت موتهم ويضحكون، سيتحدثون أن خوفهم كان بلا معني، متمنين لو كانوا يستطيعون أن يخبروا أحباءهم من الأحياء عن المكان الذي هم فيه الآن، كي لا يرتعبوا من الموت القادم كما فعلوا هم في لحظات حياتهم الأخيرة، وكي يودعوا أحباءهم بطريقة لائقة.

- تباً! كم كنت غبياً.

أدرك أدهم في تلك اللحظة أن حياته كانت ممتعة بالفعل، حتى مشاكله العائلية مع مريم، كان يمكن تداركها لولا تجاهله لها، وعناده والكثير من الأفكار الأفلاطونية عن طبيعة العلاقات. أدرك ذلك الآن، الندم أنه لم يدرك ذلك مبكراً.

تلك هي المشكلة مع الموت: إنه يعود بنا إلى ضرورة التعامل مع الحياة ببساطة، وعدم أخذها دوماً على محمل الجد، لكن ذلك يحدث بعد فوات الأوان.

ألقي نظرة على وجهه في مرآة السيارة، عكست له المرآة المقابلة وجه لرجل ميت مع إيقاف التنفيذ.

- الساعة ساعة صدق يا عزيزي، سأخبرك بما سيحدث، الأمر بتلك البساطة ، سيتوقف قلبك عن النبض، هذا كل ما في الأمر، ثم يتحلل الجسد في التراب منتظراً أن تقوم قيامته.

اِشتد البرد وتصاعد البخار أكثر من فمه. رفع درجة التدفئة بالسيارة أكثر وسيل الأفكار لا يتوقف.

- وماذا لو أن الإنسان، رغم كل شيئ، لا يختزل في غلافه الجسدي؟ ماذا لو كان هناك سر متعلق بالأرواح؟ لم لا؟! .. مادام هناك بعض البشر يمتلكون المقدرة على الشعور بالموت.

لو حدثه أحد عن المستبصرين قبل عام مضي، لسخر من ذلك ورآه شيئاً من الدجل. إلا أنه اليوم، لم يعد يشكك في حقيقة وجودهم.

قادته تجربته القديمة مع الاِقتراب من الموت بلا شك إلى شيئ ما. بدا الموت حينها وديعاً وجذاباً جداً، مثل النوم الناتج عن التخدير. كان يشعر بأنه في حال أفضل، لماذا عاد إذاً؟ بذل جهداً جباراً، كي يطرد تلك الذكري. كان يعرف بشكل غامض أنه لايزال غير مهيئ لمواجهة تلك اللحظة الفارقة في حياته.

ومع اِزدياد حركة السير على الطرق في الاِختناق، واِقترابه من مدينة تورنتو، كان قلقه من الآتي يخنقه.

الآن هو على اِستعداد لدفع كل ما يمتلك لكي يحظي ببعض الوقت الإضافي، ولو لبضعة أيام، ولو لبضع ساعات.

كانت هناك حادثة تصادم على الطريق. في الطبيعي لم يكن أدهم من الفضولين ليوقف سيارته، ويترجل ليعرض مساعدته. صف سيارته على جانب الطريق، ولكنه وجد أن سيارات الشرطة والإسعاف تملأ المكان. فعاد إلى سيارته ليستكمل طريقه.

توقف أمام مقهى تيم هورتنز للحصول على قهوته من الممر الخاص بالسيارات. اِعتاد أدهم الذهاب لنفس المقهى بشكل يومي تقريباً للحصول على قهوته، ولذاك كان وجهه مألوفاً للعاملين بذلك المقهى.

- صباح الخير سيدي، عيد سعيد.
- وعيدك سعيد أيضاً، شكراً لك.
- نفس الطلب؟
- أجل.

مد أدهم يده بورقة من فئة الخمسة دولارات.
- لا سيدي، لقد قامت السيدة في السيارة السابقة بالدفع لك.
كان هذا من الأفعال المنتشرة ف كندا خصوصاً في مواسم الأعياد.
- «الاِهتمام بالآخرين هو اِهتمام بالذات»
هذا ما كنت تردده مريم دوماً.

وصل أدهم إلى بيته أخيراً، لقد اِحتاج أكثر من ثلاث ساعات للعودة إلى تورنتو نتيجة الثلوج المتراكمة على الطرق، ناهيك عن الألم الجسدي الذي بدأ يزداد مؤخراً.
كان التساؤل الذي يشغل باله في تلك اللحظة، كيف سيتعامل جسده حيال اِقتراب الموت؟ هل سيرحل في هدوء أم سيعاني كثيراً؟ ربما كان القرار الأصلح أن يستكمل رحلته الأولي إلى الموت ولا يعود.
- من الأفضل لك أن تتوقف عن إثارة تلك الأوهام.
اِبتلع قرصين من عقار أدفيل لتهدئة الألم، قبل أن يترك نفسه يهوي على الأريكة.
أغمض عينيه، فقد كان عاجزاً عن فتحهما من شدة الإرهاق، وعن إخماد عقله من كثرة التفكير.

كيف تتحول حياة الإنسان إلى مجموعة اِعتيادات على وجود أشياءٍ ومن ثم غيابها؟!

مر شريط من الذكريات سريعاً أمام عينيه، أول أمس اِلتقي مصادفة بمريم على الشاطئ، شهادته في الطب والجراحة من مصر، شهادة الماجستير من إنجلترا، رحلاته إلى الدول الأفريقية، بالأمس فقط انتقل إلى كندا.

أدار التلفاز، كانت إحدى القنوات تعرض فيلماً وثائقياً يدعي «Life with Alex- الحياة مع أليكس».
كان الفيلم يحكي قصة ببغاء أفريقي، اشترته مالكته إيرين بيبرج الباحثة من جامعة ماساتشوسيتس الأمريكية، وهو يبلغ من العمر عاماً واحداً فقط. ثم قامت بتعليمه بعض الكلمات، والتي تمكن من حفظها وفهمها وليس مجرد تكرارها.

وتروي إيرين الكثير من التفاصيل عن علاقته بالببغاء التي اِمتدت لما يقارب الثلاثين عاماً، إلى أن أتت لحظة رحيل أليكس، حيث اِستيقظت صباحا لتفاجأ بتوديعه الحياة دون أي أمراض أو شيء من هذا القبيل. هكذا بكل بساطة ودون سابق إنذار.

تقول أنها ستظل تتذكر دوماً آخر كلماته:

You be good, see you tomorrow. I love you

«كوني بخير، أراك غداً، أحبك»، وهو ما لن يحدث للأسف.

- إن كان لا شيء يُمكن أن يُنقذني من الموت، فلينقذني حبك يا مريم على الأقل من تلك الحياة البائسة.

ماذا أفعل هنا وحدي، لماذا أجلس هنا مجتراً كل تلك الذكريات بينما مريم هناك في القاهرة؟

كانت الساعة تشير إلى السادسة مساء، ومع فارق التوقيت كان ليل القاهرة قد اِنتصف.

طلب الاِتصال بالرقم واحد على تليفونه، لا زال هذا الرقم مُخصصاً لمريم، لم يُغيره .

بعد رنات طويلة، ومحاولات الاِتصال ثلاث مرات، ردت مريم بصوت ناعس:

- نعم؟

أدهم: مساء الخير، يا مريم. أتمنى ألا أكون أيقظتك؟

مريم: لماذا تتصل في تلك الساعة المتأخرة؟ هل أنت بخير؟

أدهم: نعم .. كل شيئ على ما يرام.

- ماذا تريد إذاً؟ .. ردت بقسوة.

أدهم: ربما يمكن أن تكوني أقل حدة يا مريم.

تجاهلت تلك الملاحظة وردت بضيق واضح جداً:

- ماذا تريد يا أدهم؟

أدهم: أُريد استعادتك، لا أريد فقدان الحياة الوحيدة التي أحببتها، العالم الوحيد الذي شعرت داخله أني وبعد عمرٍ طويل من الغربة، وجدت البقعة المناسبة.

مريم: لقد اِنتهينا من هذا الحديث يا أدهم.

أدهم: لا يا مريم، لم نفعل. هل تدركين ماذا يعني أن أقضي أيامي برفقة ذكرياتنا، وقليلٍ من النبض وأمنية واحدة، أمنية أن أعود قليلاً إليكِ، أضعُ رأسي على قلبكِ وأغفو طويلاً، لم أعد قادراً على حمل هذا الرأس أكثر من ذلك، تثقله الأشياء الغريبة حولي والتي تجتاحه رغماً عني.

أحتاجُ إليكِ عمراً آخر، أحتاجُ إليكَ نبضاً أكثر. أشتاقكِ جداً وسأظل مؤمناً أن بيننا خيط رقيق، قد تكونين محقةَ أنه لا يربطنا معاً بشكلٍ كافي الآن، لكنه يجعل كل الذين يمرون من بيننا يسقطُون.

ساد الصمت بينهما لعدة ثوان قبل أن يستكمل حديثه:

- على العموم، أنا قادم إلى القاهرة في رحلة عمل قصيرة، وكنت أود لو نلتقي.

مريم: لماذا؟ .. ليس هناك ما أود الحديث حوله.

أدهم: أنت لازلتي زوجتي يا مريم، دعينا نلتقي فربما ..
قاطعته مريم بعنف:
- لا شيئ للحديث حوله يا أدهم، كل منا اِختار القرار المناسب له.
ولأنه لم يعد يحتمل تلك المعاملة الجافة جداً منها، قرر أن يطرح عليها السؤال الذي يكتمه في قلبه منذ مدة طويلة:
- هل تتذكرين تلك الفترة التي كنا نحكي فيها لبعضنا البعض كل شيئ؟ .. أيامنا الأولي، نقاشاتنا التي كانت تمتد لساعات دون ملل أو تعب. أرغب أن أحكي لك، أن أبوح، فأنت الوحيدة التي اِستحوذت على هذا الحق. لا أستطيع منح تلك الخصوصية لأحد غيرك، وبرغم ذلك فقد رحلتي.
مريم: لماذا تتذكر هذا الآن؟
أدهم: أنا لم أنسه يوماً، إنني أفكر فيه كل يوم.
- لا أدري إن كان هذا الوقت المناسب للحديث عن تلك الذكريات، أعتقد أنه يتوجب وأدها .. قالت بنبرة متعبة.
أدهم: الذكرياتُ كائناتٌ لا تموتُ إلا بموتِنا يا مريم، وعلى الرغم من ألمها إلا أنها أكثرُ وفاءً منا، أكثرُ وجعاً من رحيلِ من تركوها وحيدة. هي أشياءُ لا تنام، لا تهدأ، لا تُنسى، تفرضُ نفسها في كل حين، ومع كلِ نبضة. تجعلُنا قادرين على اِمتلاك جُغرافيا أكبر من تلك التي تمتلكُها قلوبنا.

لا يمكن شطب ما عشناه سوياً يا مريم.
- ليس صحيحاً .. همست.
تغيرت نبرة صوتها بشكل مفاجئ.

أدهم: اسمعي، تخيلي أن مكروهاً قد حدث لي، أن سيارة صدمتني أو أن الطائرة سقطت بي في إحدى رحلات العمل. الصورة الأخيرة التي ستحتفظين بها عنا ستكون صورة زوجين منفصلين.
قالت بصوت حزين:
- هذا ما نحن عليه في الحقيقة يا أدهم.
أدهم: لماذا يجب علينا الافتراق وسط الغضب وعدم التفاهم؟ أعتقد أنك ستلومين نفسك على إصرارك على الابتعاد، وأنه سيكون من الصعب عليك التعايش مع تلك الحالة.
انفجرت غاضبة:
- قلت لك مئات المرة، حتى ولو اتخذت أنا قرار الانفصال، فأنت من اخترت البعد في البداية.
شعرت مريم فجأة بغصة في حلقها، فأغلقت سماعة الهاتف. مسحت مريم الدموع المنهمرة من عينيها بمنديل ورقي، وحينما رفعت رأسها، أبكتها أكثر صورتها المنعكسة في مرآة غرفة النوم. وكأن لسان حالها ينطق:

- أتعلم كم مرة أخفيت وجعي وجئت إليك، كما لو أن شيئاً لم يحدث، وكما لو أن قلبي لم يشرخ. لقد خشيت على قلبك دوماً من أن تُثقلك أحزاني وتساؤلاتي.

منذ اِنفصالها عن أدهم، نحفت كثيراً، وتلاشت البهجة من حياتها. اِستعادت تلك الشخصية الباردة، التي قاومتها طوال حياتها.
لم تشأ أن تنعزل عن الناس، على العكس، أرادت دوماً أن تنخرط وسط صخب العالم، وأن تنفتح على الآخرين. ولذلك كانت ترتدي غالباً سراويل من الجينز وبلوزات فضفاضة ومريحة. في الحقيقة لم ترتدِ ثوباً نسائياً منذ فترة طويلة.

نهضت من السرير، أطفأت الإنارة وأشعلت عوداً من البخور، وبعض الشموع المعطرة.

في نظر الناس، اِشتهرت مريم بأنها امرأة مستقلة ومتزنة. مع ذلك كانت تحمل ضعفاً، يعود إلى فترة مراهقتها التي عانت خلالها كثيراً من نوبات الاِكتئاب، التي اِعتقدت لوقت طويل أنها تخلصت نهائياً منها إلى أن حدث الاِنفصال.

اِنقضت عدة شهور على اِتخاذها قرار التخلي عن مقاومة الاِنفصال عن أدهم. في أيامهما الأخيرة شعرت أنها غريبة عنه، وبأنهما لم يعودا قادرين على الاِستمرار. في اللحظة التي كانت بأمس الحاجة إلى مساندته، كان منهمكاً في حياته المهنية تاركاً إياها تغرق في إحساس الوحدة.

في البداية حاول كل منهما أن يخطو خطوة نحو الآخر. من جهتها، كانت تعيش بعيداً عن الاِجتماعيات، ولم يكن في حياتها إلا القليل جداً من الأصدقاء.

حاولت مريم أن تتحمل وتقاوم ذلك البرود الذي أصاب حياتهما. اِنغمست في كثير من الأنشطة الخيرية بجانب عملها. في مرحلة ما، حاولت أن تجذب أدهم لينخرط معها في تلك الأنشطة، لكن الأمور لم تجرِ على ما يرام.
من دون أن يدركا ذلك في البداية، كانت حياتهما تتحول إلى حلقات من سوء الفهم.
أما هو فرغم أنه كان دوماً مكتفياً بها، فلقد أراد أن يُثبت لها دوماً أنها تزوجت رجلاً طموحاً، وقادراً على الوصول إلى مرتبة معينة من المكانة المادية والاجتماعية لكي يُثبت أمراً لم يكن في حسبان مريم من الأصل.

حاولت مريم مراراً أن تشرح له مئات المرات، أنها لم ترغب يوماً في زوج خارق أو مليونير ولكن دون جدوي، ظل معتقداً أنه مجبر على بذل المزيد، وكأنه يخشي أن يخيب أملها. رغم كل ذلك، كانت مولعة به دوماً. لقد كان فصيلاً مختلفاً من البشر. أغمضت عينيها، وتواردت صور متتالية من الماضي كشريط الفيلم.

فيما كانا يظنان أنهما يخطوان تجاه أحدهما الآخر، كانا في الحقيقة يسيران في اِتجاهين مختلفين.

يا مريم

هل تذكرين حين سألتكِ كيف لنا أن نُحب الوطن دون أن نعلمُ عنه شيئاً؟

أخبرتنى يومها أنه يحدثُ أن نُحبَ أشياءً لا نعرفُها، تقودُنا إليها أشياءٌ أخري، كالوطن، ننتمى إليه قبل أن نشعرَ به أو نلمسه أو حتي نراه، ذلك لأن هُناك أشياءً تدلُنا عليه، ذاك الحُضنُ الإلهى الذى نرتمى فيه حين خوفنا وضحكنا وهروبنا ونومنا، شىءٌ يدلنا علي الوطنْ، وتلك اليد التى تمتدُ من وسط الزحمة والضجيج الذى يعصفُ بقلوبنا تربتُ عليها، تدلنا علي الوَطنْ، أشياء لسنا ندركها لكننا نشعُر بها، لا نراها لكننا نستشعر وجودها، واليوم اكتشفت أن هذه الأشياءُ كلها بأشخاصها وأفراحها وأحزانها وذكرياتها تقودنى إليكِ . . لأكتشفَ أخيراً أننى مُنذُ أن ولدت وأنت الوطن الذى أبحث عنه

الفصل الخامس عشر
«اللقاء الثاني»

السبت ١٢:٤٥ مساء

«مرحباً بكم على متن خطوط مصر الطيران، الرحلة رقم ٩٩٦ المتجهة إلى القاهرة، الرحلة تستغرق تسع ساعات وعشرين دقيقة».

بعد عدة ساعات، كان أدهم ينظر إلى الرجل الجالس بجواره، وهو يُنهي بتمهل طبق اللحم الذي قدمته له المضيفة، قبل ربع ساعة.

- ألن تأكل يا سيدي؟ .. سألته المضيفة بينما كانت قد بدأت بتجميع الأطباق الفارغة من أمام الركاب.

- لا، شكراً. ليس لدي شهية للطعام.

مرت الساعات ببطء شديد كأنها دهراً كاملاً. لم يستطع أدهم إغماض جفنيه، أو أن يأكل ويشرب شيئاً.

كانت الأفكار تتضارب في عقله بشكل غريب، لم يعد يُدرك حقاً حقيقة مشاعره تجاه دلال.

كان أمراً واحداً مؤكداً: بدأت المنغصات حين اقتحمت حياته. من جهة أخري، لم يستطع الامتناع عن الشعور حيالها بشعور غريب من الإعجاب والتعاطف. لأنه لو كان ما تزعمه دلال صحيحاً، فإن حياتها الخاصة لابد أن تكون مشغولة دوماً.

ولكن كيف يمكنها التعايش مع هذه الموهبة، وكل تلك الذكريات الحزينة. لابد أن رؤيتها المتواصلة لموتي مع وقف التنفيذ يتجولون في تلك الحياة حملاً ثقيلاً.

طبعاً، يتمني لو أنه لم يلتق بها أبداً، أو على الأقل لو التقي بها في ظروف أخري، لكنه كان فعلاً معجباً بتلك المرأة: كانت شخصاً حساساً ومطمئناً. امرأة جريحة فقدت ابنتها، وها هي تُكرس حياتها وروحها للمرضي.

فجأة، قطع صمت الطائرة صوت المضيفة:

«سيداتي، ساداتي: ستبدأ الطائرة عما قريب في الهبوط. الرجاء ربط الأحزمة، وإبقاء مقاعدكم في وضع رأسي».
ولأنه لم تكن لديه أمتعة لم يتأخر في الانتظار، وخرج مسرعاً من قاعة الوصول.

في القاهرة

كان صديقه حسين يقود سيارته، غير آبه لما يسببه من إزعاج لغيره من السائقين، متجاوزاً السيارات والشاحنات، حتى وصل أخيراً إلى مدخل المطار. وبسبب سرعته، تجاوز المفرق المؤدي إلى موقف السيارات، فاضطر خلافاً لقوانين السير، للعودة إلى الوراء ما يقارب خمسمائة متر. صف سيارته، وقفز منها مسرعاً نحو صالة الوصول.
وقف حسين يحدق بالأبواب التي يتدفق منها الواصلون، عيناه تبحثان عن إنسان ربطتهما صداقة لأكثر من خمس عشر عاماً.
كان أدهم يسأله كثيراً: كيف تحملتني كل تلك السنوات؟ فيضحك ويجيبه: كم في العمر من خمس عشر عاماً أخري، لأحظي بصديق آخر مثلك. لم يعد في العمر متسع يا صديقي.
خرج أدهم من باب الوصول. لوح بيده، فتلقفه حسين وشده إلى صدره بقوة.

- ماذا بك يا صديقي؟ أنت هنا لاستقبالي أم لتحطيم أضلاعي؟ .. لقد هرمنا يا صديقي.
- أنت لا تدري كم افتقدتك .. قالها، وهو يجذبه من يده باتجاه موقف السيارات.

في موقف السيارات، وقف أدهم ينظر إلى صديقه وابتسامة ساخرة تعلو وجهه.

- أدهم ماذا بك؟ لماذا تنظر إلى هكذا؟
- لماذا؟ ما هذا القميص الذي ترتديه يا حضرة أستاذ الجامعة، هل نظرت إلى نفسك في المرأة يا صديقي؟ ماذا لو رآك طلابك بالصدفة؟

وقف حسين أمام مرآة السيارة الجانبية. ضحك بشدة فقد اكتشف أن القميص الذي يرتديه مقطوع الجيب.
وعاد ليعانق أدهم:

- لقد كنت على عجلة من أمري.
- هيا، فأنا أود أن أُملي عيني برؤية شوارع القاهرة، ستظل دوماً المدينة الأحب إلى قلبي.
- إنها ماتزال على حالها، كما تركتها تماماً.

انطلق حسين بالسيارة.

أدهم: تمهل يا صديقي، لازلت لم تتخلص من قيادتك الطائشة. نحن في شارع صلاح سالم، ولسنا في حلبة سباق.

حسين: أخبرني عن تورنتو، هل أحببتها؟

أدهم: إنها مدينة تُحب، هادئة ومسالمة، لقد أحببتها حقاً.

حسين: وهل أحببت نسائها؟

ابتسم أدهم: أنا لم أذهب إلى هناك من أجل النساء.

حسين: أعني هل وجدت حباً جديداً هناك؟

أدهم: أنا؟ لا .. أبداً. وماذا عنك؟

حسين: ما أزال في انتظار المرأة المناسبة. أخبرني، ما الذي أتي بك فجأة؟ لماذا لم تخبر أحداً بقدومك، ولماذا طلبت مني تكتم الخبر؟

أدهم: أنا مرهق جداً الآن، سأخبرك بكل شيئ لاحقاً.

ساد صمت شبه مطبق بينهما.

حسين: لقد وصلنا، ها نحن أمام شقتك القديمة. أعلم أنها رحلة شاقة ومتعبة. يمكنك أن ترتاح الآن، وسأمر عليك في الظهيرة.

وقف أدهم وسط غرفة المعيشة بشقتهم القديمة التي ورثها عن أمه، وحيداً، وبضعة دموع تبلل خديه، محدقاً في كل زاوية

من زواياها، فكل ركن فيها يحمل له ذكري ما.

أدار الراديو، فانبعث منه صوت أم كلثوم، وبدأ في إزالة الأغطية التي استخدمت لحفظ الأثاث من الأتربة.

فجأة سمع طرقاً على الباب، فإذا به أمام شابٍ في منتصف العشرينات، يمد له يده ويصافحه في حرارة، مُرحباً به.

نظر أدهم إليه في استغراب.

- عفواً دكتور، أنا محمد إبن الحاج عبدالحميد حارس العمارة.

- تشرفنا، ولكن أين والدك؟

- إنه متعب قليلاً. يمكنك استدعائي إن احتجت أي شيئ.

صافحه أدهم وأغلق الباب وعاد إلى الداخل. فيما يُراقب الشقة التي بدت نظيفة تماماً.

أحس بالجوع، فخلال الرحلة من تورنتو إلى القاهرة لم يتناول أي طعام. توجه نحو الثلاجة غير آمل بإيجاد أي شيئ يسد جوعه، لكنه فوجئ بوجود ورقة معلقة على بابها « هناك بعض العصائر، الحليب، الجبن، وعلبة من فول بشندي المميز يمكنك تسخينها في الميكروويف، هنيئاً يا صديقي .. حسين».

أمسك بالورقة وتمعن في قراءتها، وابتسم

- فعلاً إنه لا ينسي شيئاً، وإلا كنت اضطررت إلى

النزول، والبحث عن طعام في تلك الساعة المبكرة.
عند الظهيرة، استيقظ أدهم على إثر أشعة الشمس التي تسللت عبر الزجاج إلى غرفة النوم. وقف في البلكون، وأخذ يطيل النظر إلى الشارع الذي تغيرت ملامحه، لقد تغير النسق المعماري للشارع كثيراً.
لم تبق المدينة على حالها كما ادعي حسين، ربما كان يقصد شيئاً آخر.
تناول كوب من العصير، وأعد فنجاناً من القهوة بفرح لا يوصف، فأخيراً هو تحت سماء نفس المدينة مع مريم.

أمسك هاتفه المحمول وطلب حسين، والذي بدا كأنه كان منتظراً تلك المكالمة، إذ أجاب مع الرنة الأولي:
- هل نلت قسطاً من النوم؟
أدهم: نعم .. لا أدري كيف ولكنني نمت.
حسين: إذاً .. هيا، سنتناول الغداء معاً في أحد المطاعم القريبة.
أدهم: لا .. لدي أمر آخر أهم لأفعله حالياً.
حسين: يمكننا تناول الغداء أولاً، ثم نفعل لاحقاً كل ما تريد.

في الثانية ظهراً، انطلق حسين بالسيارة، مع التزامه بتعليمات صديقه حول القيادة المتزنة. بادره فجأة بالسؤال:

- هل لازلت تفكر بها؟ أما زلت تحبها؟
أدهم: بالتأكيد .. إنها لا تزال زوجتي في كل الأحوال.
حسين: كونها زوجتك، لا يعني بالضرورة استمرار حبك لها، لكنني أعلم يا صديقي أن يوم رحيلها، انكسر فيك شيئا، أستطيع تمييزه. هذا البريق المنطفئ في عينيك حتى وأنت تضحك، شيئ فيك لم يعد كما كان.
شرد أدهم لثوان ثم قال:
- حين يغادرك شخص سكن قلبك، جزء من روحك سيغادرك معه، قد تتعلم تتجاوز الأيام، قد تنجح في أمور كثيرة وتحصل على أشياء أجمل، ولكنك لن تعد أبداً كما كنت.
حسين: أنا لم أسألك يوماً عن سبب الانفصال، لكني موقن أن عينيها كانت تنطق دوماً حباً باسمك.
أدهم: نعم، أنجبت عينيها الحب، لكنني لم أكن يوماً أباً صالحاً لهذا الحب.
حسين: لقد اعتقدنا جميعاً أنكما على نفس الصفحة.
أدهم: صدقني، هذا ما اعتقدته أنا أيضاً، لكنها كانت محقة، بمرور الأيام تحول كل منا ليسكن على هامش حياة الآخر.
حسين: لقد اعتقدت أنك ستشفي منها بعد سفرك إلى كندا
أدهم: الوضع معقد يا صديقي، نعم تابعت حياتي، ولكني لم

أنسها يوماً.

حسين: آه يا صديقي، لقد أصبح قلبك ملك يمينها. أستطيع أن أراها ترقص في لمعة عينيك، كلما تحدثت عنها رغم كل تلك المسافة التي تفصل بينكما.

أدهم: اسمع يا صديقي، سألتني وأجبتك بوضوح. والآن أرجوك أن تكف عن الاستمرار في الحديث عنها. لا رغبة لدي في ذلك الآن، لاحقاً سأشرح لك كل شيئ.

- هل أنت بخير؟ أتمني ألا تكون هنا بسببها .. قال حسين قاطعاً الصمت الذي ساد بينهما.

لم يعره أدهم انتباهاً لهذا السؤال، ولم يجب لا سلباً ولا إيجاباً.

بعد الانتهاء من تناول الغداء، سأله حسين:

- ماذا تريد أن تفعل الآن؟
- أريد زيارة والدتي.
- حسناً، لك هذا.

اتجه أدهم مباشرة نحو قبر والدته، والذي أضفي عليه الغروب إحساساً بالرهبة. تقدم وجلس أمام الباب والدموع تملأ عينيه. إنه الآن أمام ضريح الإنسانة التي لم ولن ينسها. وفيما هو كذلك عبقت أنفه برائحة الريحان التي طالما أحبتها سلمي،

وطالما حدثته عن تلك النبتة المحببة إليها.

راح يستعيد ذكرياتهما سوياً ومن ثم أخذ يخاطبها:

السلامُ عليكِ يا أمي، السلامُ على قلبكِ السماوي الذي لا تليقُ به هذه الأرضِ. السلامُ على نبضكِ الذي ينبضُ بداخلي دون توقف. السلامُ عليكِ يا وطناً لا يَمكنُ له أبداً أن يكون يوماً منفى.

مازلت يا أمي أذكر حديقة المريلاند بورودها وأزهارها، لقد دمروها. هل تذكرين ذلك اليوم الذي خبأت فيه المقص في حقيبتي، وفي لحظة انشغالك في القراءة، أخرجته وأمسكته في محاولة لقص بعض الزهور؟ وحين لاحظتي ذلك، تركتي مكانك مسرعة نحوي.

اِنتابني الخوف الشديد، وشعرت أنك ستوسعينني ضرباً، وأنك ستنزعين مني المقص بقوة لا توصف، كما يجرد إنسان من أوسمة علقها على صدره وهو لا يستحقها، لكنك لم تفعلي ذلك. كل ما فعلته أنك جلستي بجواري، ورُحتِ تداعبين عنقي بيديك الناعمتين الحنونتين، ثم أمسكت يدي ورحت تمررينها على جذوع الورود والأزهار برفق وحنو، وكذلك على أطراف الأغصان والأوراق، ثم انحنيتِ وقبلتي وجنتي وقلتي «تعلم أن تعامل الورد بحب، وألا تجرحه، لأن الإنسان الحق

لا يجرح ما خلقه الله لتجميل الطبيعة، بل يستنشق عبيره، ويستمتع بألوانه، وأضفتِ، كل ما في هذه الحديقة هو هبة من الله».
صدفة تلاقت أعيننا في تلك اللحظة، جلستي مرة أخري ومررتِ يدك على ذقني، وسألتني إن كنت أشعر بالوحدة. يومها، وبحركة من رأسي أجبتك «لا، لا أشعر بالغربة» لكن الحقيقة أني كنت أكذب عليك، وتمكنت من إخفاء ذلك عن ملامح وجهي.

مازلت أذكر ذات يوم، حين كنت في العشرينات من عمري، رحلتي وتركتني وحيداً في هذه الدنيا، فما عدت أستيقظ مبكراً مع شروق الشمس، لنذهب إلى التريض ولا عدت أرافقك مساءً لنراقب غروب الشمس في منطقة المطار، لنري الأفق يتلون بدرجات البرتقالي الداكن حيناً والفاتح أحياناً.

أمي، لم تسمح لنا الحياة أن نبقي معاً لفترة أطول، وفرقنا الموت، لكنه لم يقو يوماً على نزعك من خيالي.
أنت الآن برأي الجميع جسد بال، ولكنك بالنسبة لي، ما تزالين معي، وما أزال أتصرف تبعاً لما علمتني. ربما أكون قد ضللت طريقي قليلاً ولكني ها أنا الآن أعود.

نعم يا أمي، كل الليالي التي مرت بسكينة وسلام كان يصنعها صوتك. منذ غيابك، ولم أنم يوماً دون أن تكون للهواجس وللقلق وللأرق، النصيب الأكبر من ليلتي حتى آتت مريم.
لم أتخيل يا أمي أني قد أقع في الحب، وأن هذا الشعور النبيل سيسيطر على، وسيجعل مني أسيراً له. لكنه قد حدث، وكما التقيتها صدفة ثم تفرقنا في الصغر، عاد القدر ليجمعنا مرة أخري ثم افترقنا.

إنني أتسائل اليوم: هل كنت مجرد عابر سبيل في حياتها؟ إنسان أعادها إلى عائلتها، ومنع الموت عنها؟
إنسان شعرت تجاهه بالامتنان لأنه أنقذها من الغرق ثم لم تستسغ الحياة معه!
لم أستطع أن أسألها أو أخبرها بكل تلك الأفكار يا أمي.

أتعلمين، لقد قالت لي مرة ضاحكة: أنه لولاي لكانت تشاركك الآن المسكن في الفردوس. غضبت جدا حينها وقلت: أن الله ليس بتلك القسوة لينزع مني أحب النساء إلى قلبي بعد أمي.
أعلم بما تفكرين يا أمي، وأنني يجب أن أحاول معها بدون كلل، ولكنني أعلم أيضاً أنها لازالت غاضبة مني. مازلت أخشي أن أبوح لها بما أشعر تجاهها، أخشي أن أعبر لها عن أمنياتي

وأحلامي، مخافة أن تنكسر الأحلام وتتلاشي الأمنيات، أما خوفي الأكبر فهو ألا أكون هذا الرجل الذي انتظرته لتلتقي به بعد عشرين عاماً، وتعيش معه قصة حب.

صدقيني يا أمي، لقد فكرت كثيراً أن أبوح لها بمكنونات قلبي، ولكنني أتمنى أن يمر لقاءنا هذه المرة دون كلام، دون عتاب، ودون لوم.
كذلك وانطلاقاً من أنانيتي، فكرت أن أبوح لها بالحقيقة، ولكني لن أفعل لسببين: الأول هو أنت، يا من أوصيتني ألا أكون أنانياً، والثاني خوفي من إحساس الشفقة الذي ربما تشعر به حين تدرك حقيقة ما أمر به، وهذا ما لا قدرة لي على احتماله.

الحقيقة يا أمي أني كنت واهماً، حين اعتقدت أن المسافة ستميت الحب. فرغم مرور الأيام، إلا أنني كلما التقيت امرأة تشبهها، أخالها تشير إلى متسائلة «هل عدت من سفرك؟ أين كنت طوال تلك المدة؟».
حتى اليوم يا أمي، ما أزال إن قرأت اسمها، أتخيلها كيف كانت تنتظرني عند الباب عقب عودتي من العمل. وكذلك كلما وضعت رأسي على الوسادة أو استيقظت صباحاً.

أنا أعيش المتناقضات يا أمي، أعيش الأمل واليأس، الحزن والفرح. فهل ستنصفني الأيام، ونعود أنا ومريم مرة أخري سوياً؟!
أرجوك أن تغفري لي غيابي الطويل عن زيارتك، ولكني أعدك أن هذا لن يتكرر ثانية. ومن يدري فربما نلتقي قريباً. إلى اللقاء يا أمي.

سمع أدهم وقع خطوات قادمة، فإذا بصديقه حسين يقف على الباب.
- هيا يا صديقي، سيحل الليل قريباً، ومن غير المستحسن التواجد في المقابر في ذلك الوقت.
سارا معاً نحو السيارة المصفوفة عند الزاوية، نظر أدهم إلى ساعته، في حين كانت الشمس تسدل ستار أشعتها معلنة غروب هذا اليوم على أمل الشروق في اليوم التالي.

- الآن يا صديقي، ماذا تريد أن نفعل؟ .. سأله حسين.
- بدون أسئلة، سنذهب لزيارة مريم في بيت والدها.
عادا إلى حي مصر الجديدة حيث تقطن عائلة مريم. صف السيارة في الشارع الرئيسي.

أدهم: يمكنك أن تنتظرني هنا، وسأكمل المسافة سيراً على الأقدام، فالشارع مغلق نتيجة أعمال الحفر الخاصة بمترو الأنفاق.

نظر إليه حسين قائلاً: لقد وافقتك على كل شيئ، لكن هل فكرت جيداً في تلك الخطوة؟

كان أدهم متعجلاً الوصول رغم ما يشعر به، ترجل من السيارة دون أن يهتم لما قاله صديقه.

دق أدهم جرس الباب، وقلبه يخفق.

كان قد تحسب لكل شيئ، إلا أن يفتح له والدها الباب بنفسه. رجل طويل القامة في أواخر الستينات، وشعره رمادي اللون. أفسح له المجال ليدخل وعلى وجهه علامات الاندهاش.

- أدهمّ ماذا تفعل هنا؟ متي عدت؟
- أين مريم؟ .. قاطعه أدهم.
- ليست هنا. لقد انتقلت للعيش بمفردها، بعد رحيلك إلى كندا. هل أنت على ما يرام يا بني؟
- نعم! أنا بخير.
- يمكنني الاتصال بها للحضور، فغالباً ستكون في طريق عودتها من العمل. إنها تقيم في شقتنا الأخري على شارع أبي بكر الصديق.
- لا سيسب ذلك القلق لها. أعطني العنوان.

كانت مريم تصعد درجات السلم الخارجي للبناية، حين وصل كل من أدهم وحسين أمام الباب. ترجل أدهم من السيارة مسرعاً.

- مريم!

نظر إليها أدهم في تلك اللحظة، كأعمي أبصر ضوء الشمس لأول مرة.

أومأت برأسها لحسين وقالت: أدهم! ماذا تفعل هنا؟

كان لسان حاله «كيف تسأليني عن حالي، وأنت جواب السؤال».

- أنا هنا لحضور اجتماع هام، وفكرت أنه يجب المرور لإلقاء التحية.
- أتمني لك كل التوفيق. أرجوك أنا متعبة الآن، ويجب أن أذهب لأرتاح قليلاً، لقد كان يوماً شاقاً.

قرر أدهم ألا يعارضها. فهو يعلم أن هذا لا يجدي نفعاً معها وأخر ما يرغب فيه، أن يتشاجرا أمام حسين، واكتفي بالرد بنفس اللهجة:

- وأنا أيضاً ليس لدي وقت، وعموماً فطائرتي غداً صباحاً.
- رحلة سعيدة، إهتم بنفسك .. فرصة سعيدة يا حسين

قالتها وهي تسلك طريقها نحو باب البناية.

مطار القاهرة الدولي

«سيداتي، سادتي تعلن مصر للطيران عن قيام رحلتها رقم ٩٩٥ المتجهة إلى تورنتو، الرجاء من الركاب التوجه إلى بوابة ٤».

مع ذلك النداء، قام المسافرون ليشكلوا صفاً مزدوجاً أمام باب المغادرة. كان أدهم تائه وغير مدرك لما يدور حوله.

ماذا لو لم يرَ مريم مرة أخري؟ لا يمكن لحكايتهما أن تنتهي بتلك الطريقة. كان عليه أن يتحدث إليها للمرة الأخيرة. سيكون حديثهما أفضل ذكري يمكن أن يحملها، وهو في طريقه إلى الموت. لم يكن يريد أن يفوت الأوان دون المحاولة مرة أخري. يجب أن يحظي على الأقل بفرصة أن يقول لها وداعاً بشكل لائق.

- لن أغادر .. قالها بصوت مرتفع.

كان لسان حاله في تلك اللحظة، ينطق «يا أيتها المطارات الممتلئة بالراحلين، المسرعين إلى مصائرهم المجهولة، أعيديني بالله عليكِ إلى صدرها. أفلتي يدي يا مدن الغربة المزدحمة بالقلق والوحدة والموت».

- نعم! يجب أن أراها للمرة الأخيرة. يجب أن تعرف...
خرج أدهم مسرعاً من صالة المغادرة. استدعي سيارة أجرة، وطلب من السائق أن يعود به إلى مصر الجديدة.

*****

كان الطقس قد تغير، وبدأت السماء تمطر بشدة وكأنها تبدي غضبها من سفره دون أن يلتقي بمريم.

قرع أدهم باب الشقة عدة مرات ولكن بدا أن مريم لم تكن قد عادت من العمل.
جلس أدهم خارج مطعم ماكدونالدز المقابل للبناية التي تسكن فيها، فالمكان بالداخل كان مكتظاً بالبشر، ولم يكن يريد أن يفقد آثرها حين تأتي.
ربما لن تعود مريم خلال النهار، أو أنها ستمر لرؤية والدها. ولكنها حتى لو عادت، فلن يكون لديها ما تقدمه له سوي اللامبالاة والإصرار على قرارها. شعر أدهم أنه كان غبياً، حين استجاب لرغبة مريم في الانفصال، ولكل هواجسه بخصوص حريته الشخصية. ها هو بعد فوات الأوان، يُدرك أن الإنسان لا يمكن أن يفوز بكل شيءٍ.
- اللعنة! .. كان مبللاً بالكامل ويرتعش برداً.

لم يشعر أبداً بكل هذا الإخفاق والفشل في حياته. شعر أنه وحيد وضعيف وحائر، هو الذي كان يعرفه الجميع بالقوة والنشاط. وجد نفسه مشلولاً تماماً. هل هناك أدني معني لرغبته في أن يقول لتلك المرأة أنه لايزال يحبها؟

في تلك اللحظة التي تضاعفت فيها شدة المطر، توقفت سيارة أمام البناية، وخرجت مريم من السيارة راكضة نحو المدخل. انتفض أدهم واقفاً، ليلحق بها، ولكن حركة السيارات في الشارع أبطأته قليلاً.
فجأة خرجت مريم مرة أخري من باب العمارة، تنظر في كل الاتجاهات، ثم صرخت بصوت عالي:
- أدهم!

*****

رائحة شموع القرفة تفوح من الشقة، إنه نوعه المفضل من الشموع العطرية.
نزع سترته المبتلة، وعلقها على شماعه بالقرب من جهاز التدفئة، وأخذ يجفف نفسه بمنشفة أحضرتها مريم.
أغمض أدهم عينيه، وغاص في كومة من الوسائد متعددة الألوان، والملقاة على الأريكة. كان يشعر بإنهاك شديد، فهو لم ينم تقريباً منذ مجيئه إلى القاهرة.

وقفت مريم تعد له قهوته التركية في المطبخ الذي يُطل على غرفة المعيشة، التي يجلس فيها أدهم. في الوقت الذي كان صوت موسيقي الجاز يصاحبها كعادتها.
كانت تميل كل حين لاختلاس النظر إلى أدهم. لمحت أنه قد أغمض عينيه، وقد غمرت وجهه ملامح الراحة والاطمئنان، كما كانت تنظر إليه في الماضي، وهو نائم إلى جوارها.

كيف شعرت بوجوده حتى من دون أن تعلم أنه لم يستقل طائرته عائداً إلى كندا؟!
لن تفهم ذلك أبداً. دفعتها قوة سحرية إلى الخارج فجأة تحت المطر لكي تلتقي به. كانت على يقين أنه هناك، بِانتظارها في الجانب الآخر من الشارع.
لم تكن تلك المرة الأولي التي يحدث فيها ذلك. كان بينهما نوع من العلاقات الروحية الغامضة، والتي لم يتحدثا عنها لأي شخص، خشية أن يظنهما يغاليان في قوة العلاقة بينهما، ولكن تلك العلاقة كانت تمتد بينهما منذ الصدفة التي جمعت بينهما في الصغر.

نظرت إليه من جديد .. لماذا عاد؟
ورغم قلقها إلا أنها لم تبدِ ذلك، لكنها اِحتارت في أمر زيارته

السابقة وتلك الخطوة غير المتوقعة. بدا لها على نحو غامض أن شيئاً ما ليس على ما يرام.

- ماذا حدث؟

اتصالاته الأخيرة كان يفوح منها رائحة القلق، والآن تحت المطر قرأت الخوف في عينيه مجدداً.

نعم إنها تعرفه جيداً. ذلك الرجل المستلقي في أريكتها. تعرفه كما لم تعرف أحداً على وجه الأرض. وبقدر ما تعرف عنه، لم يكن أي شيئ على الإطلاق من الممكن أن يُخيفه.

شتاء ٢٠١٢ - مطار شار ديجول

اليوم هو عيد ميلادها الأول معاً، ومريم تقف منتظرة في قاعة الوصول. تحادثا للمرة الأخيرة بالأمس.

كانت ظروف العمل، قد اِضطرتها لحل محل زميلة لها في العمل أصيبت بوعكة مفاجأة على الرحلة المتجهة إلى فرنسا، وأدهم في رحلة عمل إلى سيراليون.

الرحلة من سيراليون تستغرق أكثر من ٢٤ ساعة، وأدهم لا يمتلك رفاهية الوقت لقضاء عيد ميلادها معها.

ومع ذاك أتت مريم للمطار تتابع وصول الطائرات القادمة من المغرب، لأنها المسار الأسرع للذهاب من وإلى سيراليون.

وقفت قلقة ومضطربة مدققة في كل القادمين الخارجين من قسم الجمارك.

حين بدأت تفقد الأمل ظهر أدهم فجأة فوق درجات السلم الكهربائي. كان هو حقاً مع قبعته الإنجليزية التي يهوي وضعها فوق رأسه وسترته الصوفية السوداء التي أهدته إياها في عيد ميلاده.

ولأنه لم يتوقع أنها تنتظره. لم يتكبد عناء البحث، واِتجه مباشرة نحو السير الآلي الذي ينقل الأمتعة.

- أدهم!

اِستدار وتفاجأ بوجودها. وضع حقيبته على أرضية المطار، وأقبل نحوها بسرعة ليعانقها.

اِسترخت مريم بين ذراعيه مستمتعة بتلك اللحظة الثمينة. دست رأسها في صدره، وهي تشمه كعطر مُسكر. إنتعشت مريم بعناقه، وأغمضت عينيها كأنها تستعيد روائح طيبة لطفولة لم تشهد صعوبات الحياة بعد.

- كنت أعرف جيداً أنك ستأتي حتى لو في آخر الدنيا.

قالت مازحة قبل أن تقبله قبله صغيرة.

نظر إلى عينيها وقال بلهجة احتفالية:
- بل سوف أذهب أبعد من ذلك. أبعد من آخر الدنيا.
كان أدهم في كل مرة يُثبت لها أنه رجل حياتها المختار، وأنه سيبقي كذلك إلى الأبد.

وضعت فنجان القهوة على الطاولة.
- آسف لم أسمعك وأنت آتية. همس أدهم، وهو يفتح عينيه.
كانا مرتبكين بلا معالم كعاشقين قديمين معروفين جيداً فيما مضي قبل أن يفترقا بسبب ما حدث.
- ما هذه الأمتعة؟ سأل، وهو يشير إلى حقيبتي سفر موضوعتين قرب المدخل.

مريم: لقد طُلب مني الانتقال لفرع الشركة في تورنتو، لقد اعتبروها أحد أشكال المكافأة لأن الجميع يعلم أن زوجي هناك بينما جميع زميلاتي لديهن التزامات تبقيهن هنا.
- أترين؟! .. إنه القدر يصر أن يجمعنا في نفس المدينة مرة أخري.
صمتت مريم، وكأنها لم تسمع ما قال.

فتحت مريم إحدى الحقيبتين، وأخرجت من داخلها شيئ ما:
- تفضل. اِنزع قميصك، وارتدي هذا وإلا ستصاب بنوبة برد .. قالت وهي تمد يدها بسترة رياضية تحمل علامة GAP. إنه قديم، ولكني أعتقد أنه لازال يناسبك.
فتح السترة، واِكتشف أنها أحد تلك الملابس التي اِعتادت مريم شراء زوجين منهما حتى يُمكن لهما أن يرتدياها سوياً.
- لم أكن أعلم أنك لازلت تحتفظين بتلك الملابس.

ولكي لا تدع الاِنزعاج يسود في تلك اللحظة، أخذت وشاحاً ملقي على الأريكة ووضعته على كتفيها ثم ذهبت للمطبخ.
بعد قليل ظهرت مرة أخري، وفي يدها كوبين من الشيكولاته الساخنة.
للمرة الأولي منذ مدة طويلة، يري تلك الاِبتسامة المرسومة على وجه زوجته، وهي تنظر إليه.
جلست بجواره ووضعت رأسها على كتفه، قبل أن تغمض عينيها.
- لقد مضي وقت طويل ولم نتحدث. أليس كذلك؟
كان المطر بالخارج يواصل هطوله ضارباً زجاج النافذة الزجاجية بقوة.

- قل لي ما يقلقك.
- لا شيئ .. كذب أدهم.
قرر ألا يبوح بما يشغل تفكيره، فتلك الحكاية منافية للعقل كثيراً، وقد تعتبره مريم مجنوناً.

- لا يبدو عليك أنك بخير .. مم تخاف؟
لم يكذب هذه المرة وقال: أن أخسرك.
- أعتقد أن كلا منا خسر الآخر منذ وقت طويل.
- يمكننا أن نخسر شخصاً ما بمستويات مختلفة.
رفعت خصلات الشعر التي تدلت فوق وجهها:
- ماذا تعني؟

بدلاً من أن يُجيب على سؤالها .. سألها:
- كيف وصلنا إلى هنا يا مريم؟
كانت مريم تكذب هي الأخري حين قالت:
- أنت تعرف لماذا جيداً. وتعرف أيضاً أني تائهة بين شعور داخلي يقول أني سأحبك بأخطائك، وشعور آخر يغضب منك ولا يود لقائك. لم أتعلم بعد كيف أسامحك وأصفح، ولا كيف أعتذر منك وأمضي.

شردت عيني أدهم في الفراغ.
- ما كان سيحدث أي شيئ، لو اهتممت قليلاً بماريا.
- ولكنها في النهاية مجرد كلب. كان يمكن أن تموت لأي سبب ونستبدلها بآخر.
مريم: دع ماريا حيث هي. القضية ليست في الكلب. أنت ما عدت الرجل الذي أحببته يا أدهم. هذا كل شيئ.
أدهم: الحب لا ينتهي بتلك الطريقة.

مريم: عن أي حب تتحدث؟ هل سألت نفسك يوماً ماذا يجب أن ننتظر من هذا الحب؟
أدهم: يا مريم، نحن في الحب نرفع راية ونخوض معركة لا نعرف لها هدفاً سوي أن نبقي معاً.
مريم: لم أقل أنني لم أعد أحبك. قل لي ما فائدة الحب، وما جدوي اِستمرار العلاقة إذا لم يكن هناك حضن يجمعنا حين نتبعثر، أذن تسمع حين نزدحم بالثرثرة، كف تطبطب حين نحزن. من قال أن كلمات العشق وحدها قادرة على تضميد جرح أو إزاحة هم. لقد أدركت بعد رحيل ماريا، أنك لم تعد الرجل الذي أحببته في البداية. لم تستطع الاِعتناء بها وأنت تعلم مدي حبي لها.

أدهم: الجميع يتغير يا مريم وظروف الحياة.
قاطعته:
- لا تتظاهر بأنك لا تفهمني. في أيامنا الأخيرة دارت حياتك كلها حول عملك وأصدقاؤك.

أدهم: تعلمين جيداً أنني أكره جداً محاولة شرح أو تبرير نفسي، وتُدركين أيضاً أنني كنت أفعل ذلك من أجلنا، من أجل تأمين حياة كريمة لك، ولأولادنا القادمين.

مريم: لكنك نسيت أن ما يفهمه العقل ليس بالضرورة أن يتقبله ويفهمه القلب. لقد ابتعدت عني كثيراً، كنت دوماً غير راض، باحثاً عن السعادة التامة.

أدهم: كنت أُريد تلك السعادة من أجلك.

مريم: ولكننا كنا نحظى فعلاً بتلك السعادة. لم تكن تشعر بها ولكننا كنا نعيشها. مالذي كنا نحتاج إليه أكثر؟ المزيد من المال؟ لماذا؟ شراء سيارة أحدث؟ تغيير الشقة؟ الاِشتراك في نادي أخر؟ السفر سوياً لبلاد بعيدة؟

أدهم: كنت أُريد أن أكون جديراً بك. أن أري نجاحي في عينيك.

مريم: هكذا إذاً. بالمال والوظيفة تُظهر أنك نجحت، الطموح الكبير لدكتور أدهم مصطفي.

أدهم: لن يمكنك أن تفهمي. في هذا العالم....
- الناس يموتون كل يوم يا أدهم بأتفه الأسباب. بأسباب كثيرة ليس من بينها الفقر أو عدم صعود السلم الوظيفي. الناس يموتون الآن من الجوع، والجوع ليس سببه شح الطبيعة، بل شح الرحمة والتفاهم من القلوب .. لم تدعه يكمل حديثه.
أنا أعلم ما تريد قوله، ولكن الحياة ليست حرباً، ولست مضطراً لإثبات نجاحك لي، أنت تعلم جيداً أنني كنت أراك أفضل رجال العالم.

نهضت متوثبة من الأريكة.
- مريم!
حاول أن يستبقيها لكنها لم تستجب لنداءاته. ذهبت إلى الزاوية المقابلة من الغرفة. وقفت لتشعل بعض الشموع الصغيرة في محاولة لتهدئة نفسها.
اِقترب أدهم منها، وحاول أن يضع يده على كتفيها، ولكنها تملصت منه بقوة، وقالت:
- انظر إلى أخبار الجرائد اليومية، أخبار عن قتلي وحروب في كل مكان. انظر إلى ما تقوم به في عملك. كم عدد اللاجئين؟ كم عدد مصابي الإيدز والملاريا والكوليرا؟

أي معنى لتلك الحياة إن لم نستطع أن نتقاسمها مع شخص نحبه؟!

اغرورقت عيناها بالدموع، وحدقت فيه بغضب.

- ما الذي قد يكون أكثر أهمية من أن تقاسمني حبك؟ هل تدري كم مرة قطعت المسافة بيننا لاهثة حتى وصلت إلى عتبة الباب، ثم اِستدارت وعدت بخطي ثابتة، لأنني كنت أشعر حينها أن الوقت غير مناسب، أو أن الباب لا يستحق الطرق!

وبما أنه كان مذهولاً من الغضب المنبعث في صوتها، لم يرد بكلمة.

مريم: لم أرد أن أعيش مع شخص بلا عيوب. ربما كان بوسعك أن تقر بنقاط ضعفك على الأقل أمامي. كان بوسعك أن تثق بي.

أدهم: لكني أكره أن أبدو ضعيفاً أمامك.

مريم: هل أنت أحمق؟ لحظات الضعف هي من يخبرك أنك كنت قوياً بما فيه الكفاية، أنك لازلت إنساناً.

كانت هذه الكلمات تعني : لقد خيبت أملي كثيراً.

نظر إلى مريم لامع العينين، فباستثناء- الثقة كانت كل ما قالته صحيحاً وقال:

- كيف أخبرك بطريقة أكثر صدقاً من الكلام أني أحببتك كشيء لا يُستبدل، ولا ينتهي ولا يختلط ولا يفسد ولا ينقص ولا ينقضي.

كيف أخبرك أنك دوماً كنتي منيتي ويقيني، وحقيقتي الواضحة التي لم أستطع الهروب منها يوماً.

وعلى أي حال لقد حافظت على زواجنا .. قالها وهو يلوح بخاتم الزواج في بنصره.

أنا حافظت عليكِ، في حين أنك مع ذنبي الأول تجاسرتِ على الرحيل.

بهدوء أخرجت مريم من تحت بلوزتها، قلادة صغيرة يتدلى منها خاتم من الذهب الأبيض.

- أتري؟ أنا أيضاً حافظت على زواجنا. ها هو معلق في قلادتي كشعوب تشعر بالغربة في بلادها.

لقد أصبح أكثر اِتساعاً على إصبعي النحيل.

سحبت منديلاً، ومسحت تلك الدموع التي بدأت تتلألأ في عينيها.

لم يستطع أدهم الاِقتراب منها خشية أن تصده، وبدلاً من ذلك جال في الغرفة بصمت، ثم فتح النافذة ليستنشق بعض الهواء. بدأت الغيوم الثقيلة في الاِنكشاح.

- يكاد المطر يتوقف .. أبدي الملاحظة في محاولة للتخفيف من حدة الموقف.

- المطر لا يعنيني في شيئ .. ردت مريم.

اِستدار نحوها. كانت بشرتها شاحبة وخديها ذابلين بطريقة محزنة. أراد أن يخبرها أنها كانت وستظل تحتل المرتبة الأولي في حياته، وأنه سيحافظ عليها إلى الأبد ولكن كل ما قاله:

- أعلم كل هذا يا مريم.

مريم: تعلم ماذا؟

أدهم: كل ما أخبرتني به للتو. السعادة لا تقتصر على الرفاهية المادية. السعادة هي كل الأشياء التي تشاركنها . حتى أحزاننا التي تقاسمناها سوياً أعرف كل هذا. أو على الأقل بت أُدرك حقيقته الآن.

فتح ذراعيه بعجز، وبش لها بِابتسامة خجولة.

نظرت إليه بحنان. رؤيته على تلك الحالة جعلها تتذكر تلك الحادثة التي جمعت بينهما، ولم تستطع مقاومته.

تركت عتابها ولومها واحساسها بالغضب جانباً، واِرتمت على صدره. ما كان ينبغي أن تقسو عليه هكذا، لأنها تعلم جيداً أنها من اِختارت الرحيل، وكل ما فعله أنه اِستجاب لرغبتها.

أغمضت عينيها. لم يكن قد غادر بعد، ولكنها كانت تُدرك أنه بعد بضع دقائق ستشعر على نحو أليم بغيابه.

أرادت لو أن امتدت تلك اللحظة إلى الأبد. رغم ذلك بذلت جهداً خارقاً لتضع حداً لها، لم تكن اللحظة المناسبة. كانت مغرمة به ولكن لا يزال إحساسها بالغضب يمنعها عنه.

- يجب أن تغادر وإلا ستتخلف عن الطائرة مرة أخري.

قالت وهي تتملص منه.

رن هاتفه عدة مرات. السيارة التي اِستدعاها كانت تقف منتظرة أسفل العمارة منذ عدة دقائق.

كيف يشرح لها أن هذا قد يكون آخر وداع، آخر ابتسامة، آخر مرة يتلامس فيها جلدهما؟

- إذا ما حدث لي شيئ، فأرجو حقاً.....

- لا تقل أي كلام .. قاطعته.

- هذا ليس كلام يا مريم. تخيلي أن ..
- قلت لك سنتقابل مرة أخري يا أدهم في تورنتو.
أعدك بذلك.

ولأنه يعلم أنها لم تكذب عليه أبداً، فقد اِرتسمت على وجهه ملامح الاِطمئنان.

وضعت قبله في كف يدها، ثم داعبت بلطف خد أدهم. وعلى باب المصعد لم يستطع أن يمنع نفسه من الالتفات ليلقي عليها نظرة أخيرة. النظرة الأخيرة لرجل يخشي أنَ يفقد المرأة التي يحبها إلى الأبد. العلامة الأخيرة لامتنان روح حظيت في هذا العالم بفرصة العثور على نصفها الآَخر.

يا مريم

يقول الرفيق حسين البرغوثى: عندما يفقد أحد ماضيه تماماً، تستطيع أن تصنع بمستقبله ما تشاء، لأنه قد فقد ظله الممتد فى التاريخ

وأنا أردتُ معكِ أن أفقد كلَ يوم عشتهُ قبل أن ألقاكِ، أردتكِ ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل، أردتُ أن أحبكِ مداد هذا التاريخ الذى يقول عنه حسين، كلُ الرجال حين يُحبون النساء يريدونهم زوجةً، وأماً، وصديقةً، إلا أنا، أردتكِ شيئاً أكبر من ذلك، فنحن نريد الآخرين علي قدر حاجتنا، وأنا كانت حاجتى لوطن .. أعترفُ لكِ اليومَ بكل ما أوتيتُ من عُمر قبلكِ، وحُبٍ معكِ، ووجعٍ بعدكِ . . أنكِ كنتِ وطنٌ

الفصل السادس عشر
«اِعتراف»

- صغيرتي، ماذا بك؟

اِستدارت نحوه. نظرت إليه، وارتمت أخيراً بين ذراعيه، كما كانت تفعل حين كانت طفلة، وقالت:

- أنا تعيسة يا أبي إلى حد الإرهاق منذ اِنفصالي عن أدهم.

والدها: تحدثي معه، يا بنيتي. تعلمين أني أثق في قرارتك، ولكني أعتقد أنكما يجب أن تتحدثا. ربما سيكون لديه ما يقوله لك.

مريم: أتدري يا أبي، حين حدث الاِنفصال كنت أشعر بمزيج غير مفهوم من الحزن والاِرتياح.

والدها: الاِرتياح؟!

مريم: نعم .. طوال حياتي معه كنت أخاف أن يتوقف أدهم عن حبي. أن يستيقظ ذات صباح ويكتشف حقيقتي، ضعيفة وهشة. بتلك الطريقة، كان عدم وجودي معه يُشكل خلاصاً من ذلك الإحساس. بانفصالنا، لم يعد هناك خطراً أن أفقده. لقد كانت ماريا مجرد عذر يا أبي.

والدها: إنه بحاجة إليك بقدر ما أنت بحاجة إليه.

مريم: لا .. أعتقد أنه لم يعد يُحبني.

والدها: زيارته الأخيرة تقول عكس ذلك.

رفعت نحوه عينين مليئتين بالدموع والأمل، وقال:

- يمكن أن تحاولا مرة أخري، ولكن أسرعي إنها حياة واحدة وقصيرة. ربما يمكن أن تستشيرا أحد الأطباء النفسيين، فقد يفلح الأمر.

شعرت مريم للمرة الأولي، أنها تريد أن تتجرد من كل شئ، أن تقص كل أسراراها، كل مخاوفها، كل قلقها، أرادت أن تُطلع شخصاً ما على كل كبيرة وصغيرة في حياتها، أرادت أن تضع الأحمال عن كتفها. لن تُخفِ شيئاً بعد اليوم، أرادت أن تفعل كل ذلك من أجل أن تستعيد علاقتها بأدهم.

جلست مريم أمام طبيبها النفسي، وكل ما يجول في خاطرها، أنها تريد التحرر من كل تلك الوسواس والقلق.

- سوف أبدأ من نقطة الصفر، ولكن علينا الإسراع بعملية العلاج، ساعتها فقط سوف أثق في تشخيص هذا الطبيب.

وبناء عليه، قامت بسرد أحداث الأيام السابقة. بداية من مشاكلها الأسرية، وإنتهاءً بأدهم، الذي رحل بعيداً إلى تلك البلاد الباردة.

الطبيب: إذاً، أفهم أنه تم تشخيصك بالاِكتئاب منذ فترة المراهقة، وأنك قد توقفتي عن تناول أدوية الاِكتئاب منذ بداية علاقتك بأدهم، ثم بعد ذلك بعدة شهور، بدأت تنتابك نوبات القلق مرة أخري من أن تفقديه.

مريم: بالضبط، لذلك أريد أن أعرف السبب.

هل هناك علاقة بين نوبات القلق تلك، والتوقف عن استخدام الأدوية؟ هل يعني ذلك أن علاقتي بأدهم كانت تسير على ما يرام، وأن توقفي عن استخدام مضادات الاِكتئاب هو ما أدي إلى ذلك؟ هل من المفترض أن أعود إلى استخدام الأدوية؟ لماذا؟ كيف يمكن أن أعيش حياة طبيعية دون استخدام الأدوية؟

اِبتسم الطبيب وقال:

- رويداً يا مدام مريم. أنا مازلت في مرحلة اِستكشاف حالتك، كي أستطيع تحديد أين تكمن المشكلة الحقيقية؟ لا أعتقد أن إصابتك بنوبات القلق المتكررة بعد توقفك عن اِستخدام الأدوية، كان من قبيل الصدفة. السؤال الأهم الآن هو: لماذا توقفت عن اِستخدامها؟

- في الحقيقة أنا أستخدم تلك الأدوية منذ سنوات، ولكن مع الصدفة التي جمعتني بأدهم مجدداً، بدأت حالتي في التحسن، واِستقرت الأمور، لذا تصورت أن حالتي النفسية أصبحت على ما يرام، ثم فوجئت أنني بدون تلك الأدوية، مجرد شخص هش وضعيف، وغير قادر على اِستكمال حياته بشكل طبيعي، إنه إحساس مريع.

أنهت مريم كلماتها، وأجهشت في البكاء.

تأملها الطبيب، ثم أخذ يدون بعض الملاحظات في الملف الخاص بها الموضوع أمامه.

همهمت مريم بكلمات، وهي تبكي:

- لم أعد أعرف من أنا؟ ومن أصدق؟ أشعر بأن كل شئ داخلي معقد وغير مفهوم. لقد كانت أحلامي دوماً بسيطة جداً. تمنيت أن أجد قلباً يتحملني، يتحمل تعلقي بالتفاصيل

الصغيرة التي تؤلمني بشدة، والتي تحتل قلبي وتستهلكه.
يجعلني أشعر أن حزني هو قضيته الأولى، يهتم بي. يُدرك أنني لست بخير، حتى لو اِدعيت عكس ذلك.

ناولها الطبيب منديلاً ورقياً قائلاً:
- الواضح أنك غير مدركة لطبيعة المشاكل النفسية، إنها تربط الأشياء ببعضها، وليس من الحكمة التسرع في محاولة حل المشكلة. ربما كان من الأفضل، أن نحتفظ بها لبعض الوقت من أجل حماية أنفسنا.

توقفت مريم عن البكاء وتأملت كلمات طبيبها الجديد، وقالت في نفسها:
- ليس من الضروري صرف كل أشباح الماضي، والحاضر والمستقبل في التو والحين.
اِستجمعت أفكارها وقالت:
- من المؤكد أن هناك شيئ ما غير صحيح، ونوبات القلق دليل على ذلك. لا يمكن أن أتعايش مع تلك النوبات، ولا أريد أن أتناول تلك الأدوية لبقية حياتي.

سألها الطبيب، وهو يرتشف من كوب الماء الموضوع أمامه:

- ولم لا؟
مريم: لأن هذه الحبوب تعالج الأعراض فقط، وأنا أريد معرفة السبب الحقيقي. كنت أتمني أن أعيش حياة طبيعية مع أدهم.
الطبيب: مدام مريم، أري أن رغبتك في التوقف عن تناول تلك الأدوية أمراً طيباً، ولكن لنفترض أن الشخص يتناول أقراصاً لعلاج ضغط الدم، هل يسأل عن تأثيرها أو المدة التي سوف يستخدمها خلالها؟ إنه يستخدمها لأنها تساعده. لا أفهم لماذا يرفض الناس هذا الأمر مع الأمراض النفسية، ويريدون أن تحل الأمور من تلقاء نفسها. هل يطلب أحد ذلك من ضغط دمه؟
لم تستسلم مريم بسهولة وقالت:
- التشبيه غير صحيح يا دكتور. الأدوية تمنحني الشعور بكوني في حالة جيدة، بينما في داخلي فوران شديد، لدرجة تجعلني اشعر أن اللهب سوف يخرج من أذني، هل تفهم ماذا أعني؟

حملق الطبيب في وجهها قائلاً:
- أنا لم أقل أنك سوف تستخدمين الحبوب لبقية حياتك. كل ما في الأمر، أني لا أعتقد أن توقفك عن اِستخدامها

قبل اِستكمال شفائك فكرة صائبة.

مريم: لكن حالتي كانت جيدة، جيدة جداً. كُنت أعيش حالة حب مع أدهم و...

قاطعها الطبيب:

ولكن كان لديك شكوك بشأن تلك العلاقة.

قالت له بصوت غير راض عما قال:

- لا، أنا لم أشك في علاقتي بأدهم يوماً، حتى تغيبه وسفرياته المتعددة، كنت متأكدة أنه يفعل ذلك من أجلي. الحقيقة أني كنت أشك في نفسي بشأن تلك العلاقة. لم أعد واثقة أنه يمكنني إسعاده، أو أن أكون تلك الحبيبة التي أرادها.

الطبيب: وهل اِشتكي زوجك يوماً و..

قاطعته مريم:

- أريد أن أعرف تشخيصك لحالتي وبصراحة؟

الطبيب: الحقيقة، لا أعرف بالضبط، لأننا لم نتحدث معاً بما فيه الكفاية، ولكن التشخيص المبدئي يوحي بأنك تعانين من اكتئاب حقيقي. يبدو أنك تعانين منه منذ سنوات طويلة، لدرجة أنه أصبح مزمناً.

اِكتئابك من النوع الذي يستطيع أن يُخفي نفسه بصورة

كبيرة، واستطعت أنت أن تبني له درعاً واقياً نظراً لمستوي ذكائك.

أُصيبت مريم بدهشة شديدة، فلم تكن ترغب في أن تسمع هذا الكلام. ربما كان مزاجها يميل أحياناً إلى الكآبة نتيجة بعض الظروف الخارجة عن إرادتها، ولكنها كانت تري أن هذا لا يعني أنها مصابة بالاكتئاب.

- لا أعتقد هذا. أنا لا أشعر بالحزن، ولا أمضي وقتاً طويلاً في التفكير والتأمل، ولا أعاني من مشاكل في النوم، وليس لدي ميول انتحارية.

كانت هذه هي أعراض الاكتئاب التي تعرفها.

رد الطبيب بهدوء:

- مدام مريم، خلال النصف ساعة التي جلستي فيها أمامي، بكيتي ثلاث مرات، وقمت أنا بوضع خط تحت كلمة اكتئاب ثلاث مرات.

مد الطبيب يده بدفتر الملاحظات الخاص به، ليريها الخطوط التي وضعها.

- في اللحظة التي تبكين فيها، يبدو عليك الحزن الشديد، وعندما يظهر عليك الاكتئاب، يظهر لفترة قصيرة، فإذا

لم تلحظيه بدقة، فإنه لا يلبث أن يختفي، ويختبئ ليظهر في صورة نوبات القلق على سبيل المثال. لقد قلتي بنفسك، أنك تتناولين الأقراص عند إصابتك بنوبة قلق، فتشعرين بمفعولها وتهدئين، ولكنك تشعرين بعد وقت قصير بِانقباض شديد.

- هذا هو ما أشعر به الآن، تماماُ وبمعني الكلمة.
امتلأت عيني مريم بالدموع، ولكنها حاولت منعها من أن تنهمر، فلم يعد لديها دليل لإثبات خطأ تشخيص طبيبها النفسي.

الطبيب: مدام مريم .. إنك في منتهي الذكاء العقلي، والواضح أنك تملكين قدراً كبيراً من الذكاء العاطفي فيما يتعلق بمشاعر الآخرين، إلا أنك لم تحاولي اِستخدام ذلك الذكاء مع نفسك. أنت تحاولين دوماً الهروب من مشاعر الضعف والحزن، واضعة حاجزاً يمنع تسللها إلى الخارج.

مريم: من الممكن ..
قاطعها الطبيب مسترسلاً في حديثه:
- هل تعلمين أن النفس البشرية تستخدم عجزها عن

الإحساس بالأشياء عند وقوع الصدمات، كدرع واق، تحتمي خلفه. كل تلك الأشياء تعتبر حيل نفسية طبيعية، بل ومفيدة، لأنها تحميكِ من الإحساس بما لا تتحملين. فهناك شيئ مجهول جعلك ترغبين في حماية نفسك، وأنت لا تشعرين بها إلا عندما تبدأ مشاعرك في إفراغ شحنتها المكبوتة على هيئة نوبات من القلق. علينا الآن أن نبحث عن الأسباب الحقيقية التي يمكن أن تكون أدت إلى تلك الأعراض.

للمرة الأولي تشعر مريم أنه يمكن التحدث عن نفسها بلا أقنعة، دون أن تخاف من الأحكام، وردود أفعال المحيطين بها. بدأت الابتسامة التي كانت تحاول رسمها على وجهها تبهت تدريجياً وقالت:
- إليك ما أحتفظ به في ذاكرتي:
أولاً: اعتداء جنسي من أحد الأقارب في وقت الطفولة.
ثانياً: افتقاد الحنان من أم لم تكن قادرة على تربية اِبنتها الوحيدة، مع الأخذ في الاعتبار أنها كانت هي نفسها تعاني من الاكتئاب.
ثالثاً وأخيراً: أب وزوج كثيري السفر، لم يستطعا أن يقنعاني يوماً رغم إيماني بحبهما، أنني محور حياة أحدهما.

تفضل يا دكتور، اِختر ما يحلو لك من تلك الأسباب.
بدت الصدمة على وجه الطبيب لكنه حاول تلخيص الموقف:
- هذه ثلاث صدمات، قد تكفي الواحدة منها لتصل بك إلى ما أنت عليه الآن، ورغم أن تشخيص حالات الاكتئاب قد يحتاج عدة جلسات، إلا أنني أستطيع الجزم الآن، وبنسبة مائة في المائة، أن هذه هي أسباب درع الوقاية الذي أقمتيه بداخلك في محاولة لكبت كل تلك الخبرات السلبية في الداخل. فهذه نتيجة طبيعية.

كان تشخيصه واضحاً مما جعلها تصمت تماماً، نظر إليها الطبيب باِهتمام وسألها:
- ما هو إحساسك الآن؟
مريم: أنا حزينة.
الطبيب: لماذا؟
مريم: لا أعرف .. ربما لأني أشعر أن الحياة لم تكن منصفة يوماً. لم يعاملني أحد من هؤلاء بالطريقة التي أستحقها.
كانت الأمور يمكن أن تكون مختلفة، لو حاول أحدهم أن يتفهم طبيعتي.
الطبيب: بالضبط .. الخبر السعيد الآن فهو أنه يمكنك التعبير

عن ذلك الغضب المدفون.
مريم: نعم .. لكن مشكلتي مع نوبات القلق، أنها تنتابني في أوقات لا أشعر فيها بالحزن، بل وتسير الأمور فيها على ما يرام. وقتها أبدأ في التفكير والتعمق في تحليل الأشياء، وأحاول أن ربط في رأسي أشياء لا تمت لبعضها بأي صلة. حينها فقط أشعر أن رأسي يُشبه لعبة تركيب المكعبات التي يحبها أدهم، وضمها لبعضها، ولكنها لعبة سيئة الصنع، لدرجة أن قطعها لا تصلح لأن تكمل بعضها البعض، مما يثيرني بشدة، ويدفعني للبحث عن سبب.
تتنازع الأفكار في رأسي مثل مجموعة من أطفال المدرسة، كل واحد منهم يصيح، ويرفض أن يقف مع باقي المجموعة في صف واحد.

الطبيب: إذاً، عليكِ محاولة التوقف عن ذلك.
مريم: عن ماذا؟
الطبيب: عن التفكير، يجب أن تتوقفي عن التحليل العميق للأشياء. توقفي عن التفكير في الحلول المثالية. يوجد شخص يحبك، وهذا ليس بالشيء الهين، حتى لو لم يحبك بالطريقة التي تحبين أن يحبك بها. حاولي الاِستمتاع بحياتك.
خرجت مريم بعد ساعة من عيادة الطبيب، وقد تمكنت من

الحصول على موعد جديد، وكذلك على وصفة طبية تحتوي على بعض أدوية الاِكتئاب.

- إذاً، فسوف أعود لاستخدام مضادات الاِكتئاب، وبعد فترة قصيرة سيبدأ تأثير المادة الفعالة في الظهور.

شعرت وهي مستلقية على السرير، أن هدوءاً يسري بداخلها، اِقتنعت بالخطة الجديدة. لقد وجدت أخيراً مجموعة من المكعبات التي يمكن أن تُشكل شيئاً مفهوماً. قررت أن تتوقف عن التفكير، وربما تحاول أن تعطي أدهم فرصة أخري.

الفصل السابع عشر
«اِستدراج»

شتاء ٢٠١٦

وصلت مريم إلى كندا بالأمس.

«شكراً لك على تلك الأمسية الحلوة» .. كانت تلك هي الرسالة التي أرسلتها مريم، بعد أول عشاء جمعهما في كندا.
أجاب أدهم ببساطة « شكراً لك، أنت من جعلتيها حلوة».
كان يرغب في أن يُجيب بطريقة أكثر اِبتكاراً، أكثر رومانسية، وأكثر حيوية. لكن في النهاية كان هذا ملائماً لروح اللحظة، وهو في سريره كان يعلم أن النوم سيجافيه، كيف يذهب إلى الحلم،

وقد عاد منه للتو. اِستطاع أخيراً بعد الكثير من المحاولات في أن يخلد للنوم قليلاً، لكن شعوراً ما بالقلق أيقظه. لقد سار اللقاء بينهما بشكل جيد. نصبح مجانين من السعادة، ومن ثم، شيئاً فشيئاً يدفعنا إدراكنا لتعقيدات الموقف إلى التساؤل بما يمكن أن يحدث لاحقاً. الآن كل التطمينات والتأكيدات التي حدثت أثناء اللقاء قد تبخرت وتبعثرت.

في اليوم التالي، وفي الساعات الأولي من النهار، كان أدهم يجلس في بهو الفندق الذي اِختارته مريم المكوث فيه لحين إيجاد سكن مناسب.
تبادلا اِبتسامة مرتبكة، وتحية الصباح بخفة مصطنعة.
- ماذا تفعل هنا في هذا الوقت المبكر؟
- لقد فكرت في المرور لنتناول إفطارنا سوياً، قبل الذهاب إلى العمل.

كانا الإثنين غير قادرين على قول المزيد، والاِسترسال في الحديث، كل ما كان يجول في خاطرهما هو محاولة طمأنة أنفسهما بأن الأمور تسير على ما يرام.

من المؤكد أن لحظة لقاء روميو بجيوليت في الرواق صباح اليوم

الثاني لسهرة جميلة، لم يجدا شيئاً يتحدثان حوله. كل هذا لم يكن بالأمر الهام. كان يجب عليهما التفكير بما هو آت، هذا هو المهم.

عاد أدهم إلى مكتبه، فجأة اِختفت كل ملفات العمل، وبقي ملف واحد فقط مفتوح «مريم». لم يكن يعرف لمن يفتح قلبه، ولا ممن يطلب النصيحة، يجب حبس كل وساوسه وأفكاره في الصمت. كان باِستطاعته سجنها في الصمت لكن كان يخشي من قلبه، وهو يدق بشدة في أن يفسد محاولة الرجوع.

اِستشار كل مواقع الإنترنت التي تقدم الاِقتراحات للسهرات الرومانسية، نزهة في سفينة على سطح بحيرة أونتاريو لكن الطقس بارد، أو أمسية في مسرح لكن ماذا لو لم تعجب مريم بالعرض. لم يجد أي إثارة في أي من تلك المقترحات، كان يخشي من ألا يروق الأمر لمريم من شدة التفخيم أو شدة البساطة.

لم يكن لديه أي فكرة عما يمكن أن تفضله مريم، ولا بما كان يجول بخاطرها، وهل ستقبل الخروج معه في أمسية أخري أم لا؟.

لقد وافقت على تناول العشاء معه في ليلتها الأولي في تورنتو، ربما لأنها وعدته في زيارته لها في القاهرة، وقد يكون هذا كل شيئ. لكنها شكرته على تلك الأمسية الحلوة.

- نعم .. لقد كتبت كلمة «حلوة»، وهي لا تستخدم تلك الكلمة إلا حين تشعر بالسعادة فعلاً من شيء ما.

«لكن ما الذي أفكر به» يجب أن أتوقف عن تلك التخيلات، وأتقدم خطوة للأمام.

لقد كان فعلاً يائساً وخائفاً من ردة فعل مريم.

رغم كل الترتيبات والتدابير التي اِتخذها وخطط لها قبل حضور مريم إلى كندا، إلا أنه يجد نفسه الآن فارغ العقل من كل شيئ، كأنه يستعيد تلك الأيام الأولي لبداية تعارفه بمريم.

قطع رنين الهاتف ضجيج الأفكار المتزاحمة في رأسه. نعم إنه نفس رقم شريحة المحمول التي أعطاها بالأمس لمريم، كي تستطيع الاتصال به وقتما تشاء.

مريم: هل أنت بخير؟ هل أقاطعك؟ أعلم أنك في العمل الآن.

أدهم: أوه .. لا .. لا. يمكنك الاِتصال وقتما تشائين.

مريم: كنت أود أن أقترح، إن كان وقتك يسمح في المساء أن ترافقني لتناول العشاء مع مجموعة زملاء المكتب في إطار الترحيب بي في الثامنة مساء. بعضهم يعلم أن زوجي هنا في

كندا ومن غير اللائق أن أذهب بمفردي.

زوجي .. اِبتسم أدهم حين سماعه لها تنطق تلك الكلمة، كان كل جزء فيه يزغرد، ووسط مملكة النشوة تلك راح قلبه يتقافز فرحاً.

- بكل سرور، سأمر عليكِ في السابعة.

أنهي عمله مبكراً وذهب للحاق بقطار النفاق الذي سيقله إلى المنزل. اِرتسمت تلك السعادة على ملامح وجهه وراح يتأمل كل شخص يدخل إلى القطار. كل هؤلاء المقيدين بالروتين اليومي. إنها المرة الأولي التي لا يشعر فيها بالوحدة، ولا يحاول الاِختباء خلف سماعة الأذن والاِستماع إلى الموسيقي.

في المساء كان أدهم يقف أمام باب الفندق في اِنتظارها، بعد قليل خرجت مريم من الباب، وهي ترتدي بنطال من الجينز وسترة جلدية لم يسبق أن شاهدها ترتديها، والتي أظهرت نحافتها. لم يجرؤ أدهم على معانقتها وتقبيلها على الرغم من رغبته الشديدة في ذلك.

جلست مريم إلى جواره في السيارة، وبدت مرتاحة، ومع ذلك كانت تتأمّله بحزن، كما لو أنهما قد سبق وأضاعا بعضهما. حاول أدهم أن يُمسك يدها ولكنها سحبتها. التقت نظراتهما،

وساد الصمت بينهما طويلاً. وفي النهاية لم تستطع مريم الاستمرار في المقاومة، ومرّرت أصابعها برفق بين أصابعه. الآن بات واضحاً أنهما كانا يشعران من جديد برغبة متبادلة تجاه بعضهما، حتى وإن لم يكونا مستعدّين بعد لاِستعادة علاقتهما.

وصلا مبكراً إلى المطعم قبل الجميع. وسحب أدهم كرسياً لها وجلسا قبال بعضهما البعض.

اِقترب منهما النادل لكي يأخذ طلبهما.

تصفّحت مريم قائمة الطعام، وطلبت كوباً من الكابتشينو مع بعض الكوكيز، بينما طلب أدهم قهوة «دبل دبل» وقطعة من التشيزكيك.

مريم: دبل دبل؟ ما هذا؟

أدهم: إنه مصطلح كندي للتعبير عن القهوة المضاف إليها ملعقتين من السكر مع كوبين صغيرين من الحليب.

مريم: هل صرت كندياً إذاً؟

أدهم: لا، إنه مجرد مصطلح شائع الاِستخدام هنا. في الحقيقة رغم سعادتي لتوجيهك لي دعوة حضور العشاء معك إلا أنني يجب أن أقر أنها لم تكن متوقعة.

مريم: اِعتبرها عملية اِستدراج.

أدهم: اِستدراج؟

مريم: نعم .. لمعرفة السبب الحقيقي.
أدهم: السبب لماذا؟
مريم: السبب الحقيقي الذي جعلك توافق على قراري بالانفصال.
أدهم: ألا ترين أنه أنا من يجب أن يسأل هذا السؤال؟
مريم: هيا يا أدهم، أعتقد أننا أكثر نضجاً من أن نخوض تلك اللعبة؟ أنت تعلم جيداً أنك أمام فتاة مليئة بكل تلك الخيبة والضعف، لم يكن عليك أن تأخذ كلامها على محمل الجد. لقد قلتها يأساً وليس اقتناعاً، كان دورك حينها هو طمأنتي، وإعادة الحياة إلى قلبي وليس الاستسلام والرحيل.

تراجع أدهم قليلاً إلى الوراء:
- أعتقد أننا نعرف الأسباب.
مريم: لا .. أنا أعرف أسبابي فقط، أما أنت فلم يأخذ منك القرار أكثر من ثلاث دقائق للموافقة، ثم رحلت إلى غير رجعة.
حاول أدهم أن يستجمع شجاعته، وقال:
- صدقيني لم يمر يوم دون أن أشعر بالندم على هذا القرار. أنا آسف لأني لم أفهمك بينما كنت واضحة كالشمس. لأني أمسكتُ مطرقة الرحيل، وقفزت إلى قاربك المهشم أضربه بتسرعي واستجابتي لقرارك. آسف لأني زدّتُ وجعك بينما كان على حمله. آسف لأني أقول هذا الكلام متأخراً.

مرت بلسانها على شفتيها لمسح بعض بقايا رغوة القهوة التي لا تزال عالقة هناك. أحبت دوماً أنفاسها المختلطة بالقهوة. كانت تشعر أن إغراء الشفاه المدموغة بالقهوة لا يقاوم.
تذكرت شفتيه في آخر رشفة قهوة جمعتهما سوياً.
بابتسامة محبطة حاولت أن تخفي تلك الذكرى وقالت:
- توقف عن الحديث كهؤلاء المثقفين. من أين تأتي بتلك الجمل؟ روايات باولو كويلو؟ كتب غادة السمان، أم روايات ماركيز؟ وفر تلك المقولات لأحاديثك مع أصدقائك.
أدهم: لم يكن بوسعي منحك ما أردتي حينها، لقد أردتي أطفالاً وعائلة مستقرة، ولم أكن مستعداً لذلك.

وفي محاولة لتقليل التوتر السائد، سحب أدهم سيجارة لإشعالها.
بادرته مريم:
- ألم تقلع عن تلك العادة السيئة؟ كنت أعتقد أنك ستتوقف عن التدخين حين تأتي إلى كندا.
- سأكون أخر من يقلع عن تلك العادة .. رد عليها، وهو ينفث دوائر من الدخان المتصاعد.
- إذا كنت تعتقد أنك ذكي وشجاع، فالكثير من الناس

ماتت مبكراً من التدخين .. همست إليه بصوت ناعم، قبل أن تسحب السيجارة من بين شفتيه، وتطفئها في منفضة السجائر.

كانت تلك من عاداتها في الماضي، بدافع الحرص على العناية بصحته، والِاهتمام به.

لكن مريم سرعان ما قررت الخروج من هذا الموقف المؤثر قبل أن يملك عليها وجدانها:

- دعك من أسباب الِانفصال، ماذا بك يا أدهم؟ حين أتيت لزيارتي في القاهرة، كنت تبدو خائفاً.

أدهم: لا شيئ.

مريم: أتذكر لماذا وقعنا في الحب ؟ أتذكر لماذا كان حباً جارفاً أقوي من كل شيئ؟ .. لأني كنت قادرة على رؤية أشياء فيك يعمي الجميع عنها، وكذلك كان الشأن بالنسبة لك تجاهي.

أدهم: صدقيني، لا شيئ، أنا بخير.

مريم: أنت تعلم أني محقة فيما أقول.

أدهم: اِسمعي، حياتي مستقرة جداً هنا، وظيفتي ممتازة واِشتريت منزلاً جديداً و..

قاطعته مريم:

- بماذا تريد أن تقنعني يا أدهم؟

أنا أعلم أنك رغم كل شيء، لم تكن تدرك مقدار حبي لك. وكيف أن حبك أصبح الشيء الوحيد الذي يبقيني على قيد اِنتظار يوم آخر، وأن وجودك في هذه الحياة لم يكن شيئاً عادياً. لقد كانت أحلامي بسيطة جداً معك، تمنيت أن يتحملني قلبك، يتحمل تعلقي بالتفاصيل الصغيرة التي تؤلمني بشدة، والتي تغزو قلبي وتستهلكه. تجعلني أشعر أن حزني هو قضيتك الأولي. تهتم بي، وتدرك جيداً أني لست بخير حتى لو أخبرتك عكس ذلك. تمنيت أن تدرك معني أني خائفة من كل شيئ قد يأخذك مني، ولكنك للأسف استصغرت ذلك واندفعت وراء طموحاتك.

حاول أن يتمالك نفسه مجدداً، مشتتاً بين الرغبة في الإفصاح عن حقيقة كونه «ميت مع وقت التنفيذ»، والاحتفاظ بالسر حتى لا يقلقها.

- هل قطعنا كل تلك الرحلة معاً كي ننتهي غرباء. أخبريني بالله عليك، إلى متي سنظل هكذا! أقف أنا على باب قلبك خائفاً أن أتركه، وتخافين أنت أن تفتحيه .. صدقيني، كل شيئ الآن على ما يرام. يمكننا أن نحظي هنا بحياة طبيعية، وأطفال كما كنت تودين.

في الحقيقة أن أدهم كان يعلم يقيناً أنه يكذب. ففي الأسابيع

التي أعقبت فراقهما، ظل يعتقد أنه اِستجاب لرغبتها في الانفصال لأنه كان يشعر أن حياتها ستكون أفضل بدونه. في الأيام الأولي منحه ذلك التبرير نوعاً من العزاء. وفي الفترة التالية بعد انتقاله إلى كندا، اندفع في تكريس كل وقته وجهده للعمل. وبعد تحقيقه ذلك النجاح الوظيفي والاِستقرار، بدأ يُدرك أن توجساته السابقة كانت محض وهم، كوسيلة سهلة لتبرير تخليه بسهولة عن مريم.

والحقيقة أنه تركها كما ترك غيرها من قبل، لأنه لم يرد أن يكون مرتبطاً بأحد، لأنه لم يرد فقط أن يخضع لأي اِلتزام يحد من حريته. كان يريد أن يظل حراً طليقاً من أي قيد أو مسؤولية. صحيح أنه اِستمتع بتلك الحرية في البداية، لكن مع النجاح الذي حققه، بدأ يتسرب إليه شعور أن شيئاً ما كان ناقصاً، وهذا الشيء هو مريم.
لكن مع ظهور تلك الطبيبة في حياته، وجد أنه ما عاد متأكداً من أي شيء.

جري العشاء على ما يُرام، حيث حاول أدهم قدر استطاعته أن يكون اجتماعياً وودوداً مع الجميع، ينتقل من حكاية ظريفة إلى أخري، يحدد بذكاء جرعة التلميحات الثقافية والمراجع

الشخصية، ويجمع الأفكار للانتقال من الخاص إلى العام، ناشراً حوله بلطف تلك الحالة الجذابة للرجل الاجتماعي، لكن وسط تلك الحالة، أصيب فجأة بارتباك جعله يتوقف عن الحديث، حين نظر إلى مريم، وشعر بارتسام ملامح حزن الماضي على وجهها.
في البداية، كانت عبارة عن بقعة صغيرة اتخذت شكل الحنين لأيامهما الأولي سوياً، لكن لا، عند التمعن أكثر كان باستطاعته أن يستشف ملامح الحزن الحقيقية التي ارتسمت على وجهها.

اهتز هاتفها المحمول إثر رسالة جديدة وصلتها وفتحتها، لتجدها من أدهم : « ابتسمي يا مريم. إن ابتسامتك تشنق أحزاني، أحارب بها الحياة، أكسر بها كل قيود الخوف، أهرب من زنزانة خيباتي إليها. ابتسمي يا صغيرتي، إن في داخلي جيوش من الأحزان، كلما ابتسمتِ، يموت واحد منها. ابتسمي لتنتهي أيامي المملة، ليخرج الكلام العالق في صدري.
ابتسامتك يا مريم أهم من الوطن، من الموسيقي، من الطموح، أهم حتى من صينية البطاطس التي تعلمين جيداً كيف أقدسها».
نهض أدهم واقفاً وبقي للحظة معلقاً في الصمت، وجميع الأنظار متجهة إليه.

نظرت مريم إليه، دون أن تعرف ما سوف يقول أو يفعل. وبلهجة هادئة رفع كوب العصير في يده ونظر إليها قائلاً:

- نخب المرأة الوحيدة التي أحببتها، وسأظل أحبها إلى ما بعد اِنتهاء العالم.

شعرت مريم حينها بسيل مُتضارب من المشاعر بين الغضب والسعادة.

سألته وهي تدخل إلى السيارة:

- هل لازلت تُحبني حقاً؟

- آه يا مريم، هل فقدتي ذاكرتك؟

عندما جئت إلى القاهرة، كنت أطمع في ذاكرة قلبك، كنت حينها أُحبك أكثر من محاولات تشبثي بالحياة. فأنت الحياة في هذا الزمن الصعب. أنت لست حبيبتي فقط، أنت حب الماضي والحاضر والمستقبل. أنت خفقة القلب التي تشتعل برنة صوتك، وتضئ بلمسة يدك.

أعترف أنى لا أستطيع تحويل حياتك لنعيم مقيم لكن يمك أن أكون المعقل الذى تختبئين فيه من جحيمها، لن أصبغها بطلاء زهرى لكن سأحاول جاهداً أن أجعلها تستحق العيش. قد لا أجعلك محيطة بكل أمورى لكن حياتى ستكون دوماً مرتكزة حولك ووجودك فيها يشكل عمادها. لن أمطرك فرحاً على الدوام لكن سأتفادى إيلامك. قد أعجز عن رسم ابتسامتك لكن سأترصد دموعك وأوقفها. قد أغيب قليلاً لكن سأعود لك دوماً بكل قلبى ووجدانى

الفصل الثامن عشر
«عودة»

- أعتقد أنك خُلقت من أجلي يا أدهم، رغم كلِ ما حدث إلا أنني لم أستطع التوقف عن حُبك يوماً، كُنت دوماً موقنة أننا سنعود لتلك البداية مرة أخري. كان ينتابني في كثير من الأحيان شعور أن قرار اِنفصالنا كان محض غباء مطلق فيما اِعتقدنا حينها أنه شيئ من البطولة الرومانسية وأن الذي تخلينا عنه، أغلى بكثير من الذي تخلينا من أجله، وكنت أدعو الله دوماً ألا يمر الوقت قبل أن نُصحح ذلك الخطأ.

مرر أصابعه على وجهها، ماذا تقصدين؟

- أتذكُر في تلك اللحظة التي أنقذتني فيها من الغرق: سمعت صوتاً هامساً يقول هذا هو، إنه من ستجابهين معه كل مصاعب الحياة.
اِلتصق بها أدهم أكثر، تحول في حضرتها لأكثر الأشخاص وداعة ورقة. لا يُريد أن يتخلص من رائحتها، شديد الإحساس بأدني اِرتعاشة لبشرتها، لأضعف نفس من أنفاسها.
يمكن للمرء أن يربح الملايين في اليانصيب وأن يضيف سبعة أو ثمانية أصفار إلى حسابه البنكي ولكن لا شيئ أبداً يمكنه أن يوازي ما يشعر به في تلك اللحظة.

ضمها أدهم بقوة بين ذراعيه، قبل كتفيها، اِلتصق بظهرها وكأنه يستمد منها صلته الوحيدة بالحياة.
في تلك اللحظة، مر كل ما عاشه في الأيام الأخيرة أمام عينيه، وأدرك أنه لم يكن أبداً بهذا القدر من الحيوية العاطفية إلا منذ تسلل إليه إحساس القرب من الموت، لكن في نفس اللحظة شعر بالموت يحوم حوله من جديد.

هذا المساء، متصالحاً مع مريم بعد مرور عام على اِنفصالهما، كان مستعداً لأن يتقبل الأمر. في الحقيقة لم يتلاش الخوف، لكنه في تلك اللحظة ترافق مع نوع غريب من نفاد الصبر.

بات أدهم فضولياً جداً تجاه الموت، الآن يمكنه أن يرحل نحو المجهول وهو محاط بالحب. في سلام وسكينة مع الآخرين كما أشارت دلال.

كان جسده متقداً وكأنه محموم. أحس من جديد بذلك الألم يجثو على صدره، والذي كان قد تلاشي في الأيام الماضية. بدا له أن كل عظام جسمه تتفتت، وشيئاً فشيئاً يُقصي من عالم الأحياء ويسقط في بعد آخر مجهول.
الآن يشعر أنه لم يحيا إلا ليستطيع الموت في حضن مريم.

كانت الساعة الثالثة فجراً حين أغمض عينيه في تلك الليلة وكانت دلال مسيطرة على تفكيره بشكل غريب.
- قريباً سأتخلص منها، ولن أرها مرة أخري. لن أستمع لكل أحاديثها السفسطائية عن الحياة والموت، وستستكمل هي إجراء العمليات، وإنقاذ حياة البعض وترافق البعض إلى الموت.
أما أنا، هل ستتذكرني مريم بعد الرحيل؟ هل تركت أثراً حقيقياً في الحياة؟

كانت مريم تنظر إليه حين راح في سباته. للمرة الأولي تشعر

منذ مدة طويلة بالثقة في المستقبل وأنه الوقت المناسب للحصول على طفل يتوج تلك العلاقة بينهما، ملأتها تلك الأمنية بفرحة عارمة.

في اللحظة التي أغمضت فيها عينيها، لا تدري لم تذكرت فجأت أنها بسبب رحلتها إلى كندا، لم تمر لتأخذ نتائج التحاليل التي قد طلب منها الطبيب إجراءها قبل عدة أيام من سفرها. لا يهم، يمكن لنتائج التحاليل أن تنتظر، أو أن تطلب من أحد الأصدقاء أن يحصل عليها، أو يمكنها مطالعتها من خلال الإنترنت.

في الصباح، شعر أدهم بحرارة شعاع الشمس على وجهه ولكن اِنتابه بالخوف من أن يفتح عينيه، ويدرك أن ما حدث ليلة أمس كان مجرد حلم. سمع صوت موسيقي تأتي بعيد. كان يعرف ذلك اللحن.
- ما هذا اللحن؟ ربما جاز .. نعم إنها موسيقي الجاز ليحي خليل.

أخيراً بدت له رائحة أومليت تفوح في الهواء، وحينها فقط قرر أن يفتح عينيه، فلا شك أن المرء لا يتذوق الأومليت في العالم الآخر.

حين أفاق أدهم من نومه وجد نفسه لا يزال في بيته. مرتدياً سرواله الداخلي وقميصاً خفيفاً في نفس الغرفة التي نام فيها ليلة أمس. إستطاع بصعوبة أن يُصدق أنه لازال على قيد الحياة، إنتصب ليجلس فوق السرير.

لا أحد إلى جانبه. أدار رأسه نحو النافذة، كان الجو مشمساً في رأس السنة على غير المعتاد وكانت الشمس تُلقي بنورها الساطع في كل أرجاء الغرفة.
أنصت أدهم إلى صوت الموسيقي المُتصاعدة من خارج الغرفة والمُمتزجة بضجيج أدوات المطبخ. لطالما أحبت مريم تحضير الطعام وهي تستمع إلى الموسيقي.
وقف أمام المرآة وهو ينظر إلى نفسه بتركيز شديد، دعك وجهه بشده وكأنه لا يُصدق عينيه. نعم إنه هو بلحمه وعظمه. عشية ذلك اليوم إعتقد أنه سيموت خلال الليل ولكنه ها هو يقف مُعافاً، ولا يشعر بأي شيئ. لا حمي، ولا ألم وكأن الخطر الذي كان يُهدد حياته قد تلاشي.

- كيف يمكن تفسير ذلك؟
ومع ذلك لا يمكن أن يكون قد إختلق ذلك الألم أو حكايته مع دلال.

دوي صوت مريم من المطبخ:
- أدهم .. إنها العاشرة صباحاً .. هيا إستيقظ .. يكفي كل هذا النوم.
أسرع أدهم خارجاً من الغرفة.
- نعم يا حبيبتي .. أنا مستيقظ بالفعل .. هل تحتاجين مساعدة؟
- لا كل شيئ جاهز .. سوف أضعه على الطاولة .. هيا!

وقف أدهم خلف النافذة الزجاجية يراقب السماء، ومن ورائه سمع وقع خطوات مريم تقترب منه.
إحتضنته مريم من الخلف، ووضعت قبلة رقيقة على كتفه.
حين إستدار، إرتعش وشعر أن الأرض تنهار من تحت قدميه، كان هناك هالة من الضياء معلقة بشعر مريم.
خرج أدهم من بيته قلقاً شريد الذهن، أدار محرك سيارته وإنطلق بأقصى سرعة إلى مستشفي صني بروك.
يجب أن يعرف حقيقة الأمر، ووحدها دلال من تمتلك الأجوبة لكل تلك الأسئلة التي يحملها في رأسه.

إنطلق مسرعاً متجهاً نحو المستشفي، تجاوز بتهور كل إشارات المرور الحمراء في طريقه، فالقلق يأكله ولا يري حقاً الطريق

أمامه. لم يكن يري في الحقيقة سوي صورة مريم وإبتسامتها الطفولية، يمرر يده عبر خصلات شعرها.
نتيجة الزحام، صف سيارته بعيداً، وواصل طريقه سيراً على الأقدام وفي خلال بضع دقائق وصل إلى المدخل الرئيسي للمستشفي.

دخل مكتبها مسرعاً ولاهثاً، ووجدها تجلس تنظر إلى الكمبيوتر الخاص بها.
- ما معني هذا؟ .. صرخ أدهم.
رفعت دلال رأسها، ولم يبد أنها فوجئت برؤيته، وكأنها كانت في إنتظاره مُدركة أن الحكاية ستنتهي في مستشفي كما بدأت في مستشفي.

دلال: أعتقد أنك تعرف الإجابة.
أدهم: ليس هذا ما قلتيه لي، ارتمي على الكرسي المواجه لها لاهثاً .. لقد زعمتي أنني سأموت.
هزت دلال رأسها:
- لم أقل هذا أبداً! أنت من إعتقدت ذلك.
أدهم: بلي، لقد قلتي ذلك، أنا لا أتوهم.
تذكر أنه قد طرح عليها السؤال هنا:

- هل أنت هنا من أجلي؟!
أخذ برهه للتفكير، وإكتشف فعلاً أن دلال كانت محقة،لم تؤكد له أبداً أنه من سيموت. وفي المرة الوحيدة التي قبلت أن تعطيه ما يُشبه الجواب، خلال نقاشهما في مطعم المستشفي، أوضحت «لم أقل هذا». ولكن أدهم حينها كان يُعاني من الإستماع الإختياري فلم يسمعها.

حاول جاهداً أن يسترجع ما دار بينهما في ذلك اللقاء.
- هناك أشخاص إختارهم للقدر لتسهيل القفزة من الحياة للموت. أشخاص يهيئون من سيموتون للقيام بتلك القفزة الأخيرة.
- هل هذا شكل من أشكال الولاية؟
- يتخذون أشكال عدة وصور مختلفة والقليل من الناس يعلم بوجودهم. ليسوا أنبياء، إنهم مجرد بشر مثلك تماماً.
- يا إلهي .. إنها تلك الجملة الأخيرة .. مثلك تماماً.
كانت لدي كل أجزاء الأحجية أمام عيني، ولكني لم أر شيئاً.
نظر أدهم مباشرة في عيني دلال قائلاً:
- لم تأت إذاً لتخبريني أني على وشك الموت؟!
- في الحقيقة لا.. إعترفت بلهجة مستسلمة.

- لم تكن تلك الرسالة التي أردت إبلاغك إياها.
أدهم: أردتي أن تُخبريني أني سأكون واحد منهم، أليس كذلك؟
دلال: نعم، كان على أن أكشف لك عن هذا الجزء المخفي من الحقيقة. دوري أن أُهيئك لتلقي تلك الهبة. وأن أتأكد أنك مستعداً للتعامل معها.
أدهم: ولكن لماذا أنا؟

رفعت دلال إصبعها إلى السماء. لا تُحاول فهم ما لا يمكن تفسيره.
صمت أدهم قليلاً، لقد حان الوقت ليتأكد من الشيء الذي جاء من أجله.

أدهم: مريم هي من ستموت، أليس كذلك؟
قامت دلال من مقعدها خلف المكتب وأتت لتضع يدها على كتفه.
قالت برقة:
- للأسف .. نعم يا صديقي.
دفع أدهم بعنف اليد الرحيمة للطبيبة التي كانت تحاول أن تواسيه.

- ولكن لماذا عليها أن تموت؟ لماذا هي؟
تنهدت دلال بعمق ثم قالت:
- أنا آسفة يا صديقي ولكن لقد قربت ساعتها، وجرت العادة أن يكون الحاجز الأول الذي ينتظر من ابتلي بتلك الموهبة، هو أن يُصاحب موت أقرب البشر إليه.

- لا، هذا غير ممكن.
- اِهدأ يا بُني، لست أنا من يضع القوانين.
أجابت دلال بأسي.
- لقد عانيت أنا نفسي من ذلك.
- لماذا؟ .. سأل وهو يشعر أن لا حول له ولا قوة.
لماذا يجب علي حضور موت المرأة الوحيدة التي أحببتها بعد أُمي لأنعم بتلك الموهبة؟ وما الموهبة أصلاً في ذلك؟

دلال: هذا هو الثمن الذي كان يجب أن تدفعه.
أدهم: أنا لم أطلب تلك الموهبة، لم أختر أن أكون واحداً من هؤلاء. كيف أدفع ثمن شيئاً لم أطلبه من الأساس؟

كانت دلال تتوقع تلك الإجابة فقالت:
- هذا ليس صحيحاً يا أدهم، لقد اِخترت بالفعل.

اِخترت أن تعود ويجب أن تدفع الثمن. صدقني، ليس فقط ما عايشه هؤلاء العائدون من الموت ما يجعل من القصص التي يروونها مهمة، ولكن الطريقة التي باتوا يعيشون بعد أن عادوا من هناك. الكثير منهم لم يعودوا كما كانوا من قبل. والكثير منهم عزفوا عن كل ماديات الحياة، باتوا لا يهتمون بالوظائف التي تركز على المال والسلطة. لقد تعلموا من تلك التجربة أنّ الهدف من حياتهم أكبر من السعي وراء الماديات، وأن هناك أشياء أخري يجب الاِهتمام بها.

- هذا هراء!

نظرت دلال إليه بنظرة ممتلئة بالتعاطف والإنسانية.

- هناك أمل واحد يا صديقي، فرصة وحيدة لتغيير القدر، ولكن هل يمكنك دفع الثمن؟!

نظر أدهم إليها صارخاً:

- سأفعل كل ما يتطلبه الأمر للاِحتفاظ بمريم.

شكر

إلى كل من آمن بي، ودعمني لتصبح كلماتي المبعثرة متماسكة، إلى كل من رأى فيما أكتبه من هراء، شيئاً يستحق أن يطلع عليه الناس:

لولاكم لما كُتبت هذه الصفحات، ولما تعلمت المعنى الحقيقي لفعل «يُحب».

في الحقيقة، أنا نكرة بدون محبتكم ودعمكم.

أصدقائي القدامى: مصطفى الألفي، محمد زايد، شرين عبدالهادي، نورا الكومي، رامي جورج، وراندا يوسف .. الذين وثقوا بي في كل مرة احتجت ذلك، وبشكل يفوق كل تصور .. لن أتمكن أبداً من التعبير عن اِمتناني لوجودكم في الحياة.

أصدقائي من المرحلة الجامعية والحياة: حسن الشال، محمد أبوزيد، أحمد الشعشاعي، عبدالرحمن إسماعيل، أحمد عشماوي، هاله حافظ، هبة عاطف، أمير بشير، أيمن الدبيكي، مصطفى فودة، حسام عبدالحميد، نادر ناجي، طارق أبوالعينين، مجدي مهنا، إنجي صالح، يارا سيد، وأحمد فرغلي .. ساندمتوني كثيراً خلال رحلتنا سوياً، جميعكم رائعون وأُحبكم جداً.

أصدقائي من الميدان: نيرفانا ممدوح، أمينة زكي، هاني نخري، هبه علوه، وندا غنيم .. لقد نفختم الحياة في روحي، وملأتموها بها منذ أن تعرفت إليكم.

أصدقائي من صفحة بتنجان سحر، سلام، رشا، دينا، نهي، مروة، أمل، نيهال، ولاء، منى، وكل من وثق بأن هذا الكتاب يُمكن أن يكون عملاً فنياً يستحق التشجيع .. شكراً لكم.

أساتذتي الذين اهتموا بي دوماً: وخاصة دكتور محمد العزيزي، دكتورة دلال عبدالرحمن، ودكتور عمر عبدالعزيز-رحمه الله-. يجب أن يكون كل معلم مثلكم.

مريم: لقد منحت قلبي وطناً. ما كنت لأتمكن من الكتابة دون حُبك.

إلى أسرتي الأولي: أمي وأبي، ياسر وأماني .. أشكركم لأن حبكم دوماً جاء غير مشروطاً.

محمود منصور